www.9ofy.com

جين كامبيون - كيت بولينغر

بيانو

أغنية من أعماق المحيط

ترجمة سمية فلو عبود

الأنتشار العربي
Arab Diffusion Company

الملاذ - أدب ثقافة وفنون

هذا الكتاب

حاز
فيلم ال (بيانو)،
للمخرجة جاين كامبيون على
جائزة مهرجان كان عام ١٩٩٣. ويروي
الفيلم قصة حب لافتة استطاعت أن تجذب
الملايين إلى صالات السينما في العالم بأسره.
وهذه القصة التي تناقلها أولئك المقيمون في
مستوطنة صغيرة في نيوزيلند ا وأولئك الذين
عرفوا الام آدا وابنتها وحفيداتها، تدور وقائعها في
القرن التاسع عشر، حين غادرت آدا وطنها
اسكتلندا برفقة ابنتها والبيانو الذي تملكه إلى
الأدغال البعيدة لتتزوج حسب رغبة والداها.
كان البيانو الذي حملته آدا معها إلى (نهاية العالم)
كما تقول وسيلتها الوحيدة للتعبير عن نفسها وعن
صلتها بالعالم. ولذلك فإن محاولتها للاحتفاظ به
ستتحول إلى مغامرة للدفاع عن كيانها. إنها
قصة حب غريبة تتداخل فيها نوازع
الخوف والرغبة.

www.9ofy.com

كانت دروس البيانو مرة كلّ ثلاثة أيام، وهذا أقصى ما استطاعت آدا تقديمه لانهماكها في العمل المنزلي، ولو أن البيانو في بيتها كانت بدون شك ستجد وسيلة لتمضية بضع ساعات كل يوم أمام البيانو هرباً من أسر واجباتها. في هذا اليوم صحبت فلورا والدتها إلى كوخ جورج باينز كالمعتاد وأجبرت على البقاء في الخارج. عندما أحسّ الكلب فلين باقتراب آدا وفلورا، وسمع حفيف ثوبيهما، وثرثرة فلورا، أسرع ليختبىء تحت البيت. لفّت فلورا معطفها حول جسمها وتمدّدت تحت أرض الشرفة على بطنها، وبدأت تنادي الكلب. كان الكوخ مرفوعاً على ركائز قصيرة لحماية الأرض الخشبية من الرطوبة والهوام والحشرات المختلفة. زحفت فلورا مسافة قصيرة، لكنها ما لبثت أن تراجعت خائفة بسبب الظلمة والعفونة وصدى وقع الأقدام فوقها. نادته قائلة: «فلين، فلين» وأخذ إحساسها بالخيبة يزداد. الكلب من جانبه فضل البقاء في مخبئه.

صعدت فلورا إلى الشرفة منزعجة من احتمال تمضية بعض الظهر بمفردها وراحت تدق على الباب. قالت لباينز الذي فتح الباب: «أريد أن أتحدث إلى أمي». توقفت آدا عن العزف وتقدمت إلى الشرفة وأغلقت باب الكوخ خلفها، قالت لها فلورا بإلحاح: «لا أريد البقاء في الخارج، دعيني أتفرّج».

أشارت لها آدا: «لا. إهدئي والعبي هنا».

ـ «سأظل ساكتة».

ـ «إنه خجول جداً ومبتدىء في العزف».

رجتها فلورا قائلة: «لن أنظر إليه». لكن آدا هزت رأسها لأنها قرّرت متابعة الدرس. إنها ليست واثقة من باينز، ولا من شروط

الصفقة؛ فلورا يجب أن تبقى في الخارج. دخلت آدا وأغلقت الباب في وجه ابنتها. راحت الفتاة تمشي على الشرفة ببطء وقد خاب أملها وبدا الانزعاج واضحاً على وجهها؛ واصلت أمها العزف في الداخل. رمت فلورا نفسها على المقعد القاسي. لم تتعوّد تمضية وقت طويل بمفردها، ولم تتعوّد أن توجه أمها اهتمامها لأحد غيرها؛ فلورا لم تكن سعيدة.

وقف جورج باينز يراقب آدا ماك غرات وهي تعزف. أداؤها اليوم مختلف، تبدو أكثر ثقة، كما كانت على الشاطىء. استمع بتمعّن وأحسّ بالامتلاء لكنه ظلّ يرغب في المزيد. أخذ يجوب الغرفة مضيّقاً الدائرة أكثر فأكثر حول آدا كأنه حيوان يقترب من فريسة. كانت آدا تعزف باستغراقها المعهود لكنها انتبهت مع ذلك لحركة باينز. حين وقف واستند إلى ظهر البيانو وحدّق فيها، رفعت نظرها إليه ثم أغمضت عينيها راغبة في أن تكون داخل عالم الموسيقى وليس في مكان آخر.

في تلك الليلة حلم جورج باينز بالموسيقى. رأى في حلمه آدا ماك غرات تعزف تلك الألحان الغريبة التي ملأت أرجاء منزله. شيّد باينز الكوخ منذ سنوات بعد شرائه لقطعة الأرض هذه. استخدم لبنائه أخشاب الأشجار التي قطعها لإحداث فسحة في الدغل. يتكون الكوخ من غرفة واحدة فيها ركن للنوم محجوب بستارة، والنوافذ تغلق بمصاريع خشبية بدون زجاج. كان ينوي بناء بيت أفضل في المستقبل، لكن هذا الوقت لم يحن بعد. وجد كوخه مريحاً ولا ينقصه شيء لشدة بساطته.

والآن يضم كوخه آلة موسيقية، أفخم من أية آلة رآها منذ سنوات. عندما فتح عينيه في الصباح وقع نظره عليه مباشرة. أزاح

الستارة المخرمة التي تحيط بسريره ورآه كأنه ينتظر من يعزف عليه، اقتحام رائع لحياته الخشنة، مثل آدا ماك غرات.

نهض من سريره وهو يتمطّى. أشعة شمس الصباح الباكر تسرّبت عبر النافذة وذرّات الغبار تلألأت في الهواء. انعكست الأشعة على البيانو فوجد نفسه مشدوداً إليه. رأى خشب الورد يغطيه الغبار فنزع قميصه وبدأ يمسح البيانو. استعاد الخشب الناعم تألقه حيث كان باينز يمرّ بقميصه. أحسّ بدفء الشمس على ظهره وهو ينتقل حول البيانو، وانتبه لعريه. تباطأت حركته شيئاً فشيئاً كأنه لم يعد يمسح الغبار عن البيانو بل يربت عليه برفق. شعر أن البيانو تملّكه هو أيضاً؛ تملكه توق عميق إليه، ومن خلاله للمرأة التي تعزف عليه.

وصل جورج باينز إلى نيوزيلندا منذ أكثر من تسع سنوات. كان سائر المستوطنين الأوروبيين يرون حياته بدون رفقة منعزلة وغريبة. هؤلاء «الباكيها» لم يعتبروا الماووريين أشخاصاً وباينز عاشر الماووريين. إنهم بالطبع يعرفون طبيعة هذه البلاد الخيّرة والرطبة أكثر بكثير من المستوطنين. تعلّم منهم باينز الكثير، وكانوا مثله عندما تضيق بهم سبل العيش يتوجهون إلى البحر. كان باينز يقصد مرفأ نيلسون للعمل في زوارق الصيد؛ وعندما يتعب يعود إلى كوخه ويتابع عملية الاستصلاح البطيء للأرض.

أعجب باينز بأسلوب الماووريين في العمل والتنعّم بالراحة والتعاطي مع الأرض، كما أعجب بانسجامهم الهادىء مع أنفسهم ونظرتهم المتسامحة والمرحة لتصرفاته. منذ البداية لفت انتباهه الوشم -«موكو» - الذي يحمله معظم الناس هنا. رسم «الموكو» عملية بالغة الدقة يقوم بها معلمون بارعون - to hunga

ta moko - يجوبون البلاد لحفّاري الخشب الذين أتقنوا الحفر اليدوي وتزيين الخشب بنقوش منمقة تشبه رسومات التاهونغا. في أحد أيام فصل الصيف وصل واحد من هؤلاء التهونغا، وبعد إلحاح «هون» و«مانا» وافق باينز أن يحمل وشماً. رسمت على وجهه علامات جزئية لأن الوشم الكامل كالأشكال المتناسقة التي تزين وجه الزعيم نيهه يحتاج إلى جلسات تمتد بضع سنوات، ويتسبب بانتفاخات وآلام تترافق مع عملية النقش الدقيق وصباغة الجلد. لم يكن باينز خائفاً من الألم لكنه تضجّر من الجلوس أمام التاهونغا لساعات لإنهاء «الموكو». تعوّد باينز على نقوش وشمة على الرغم من أن سائر المستوطنين الأوروبيين الآخرين في التزايد في المنطقة كانوا ينظرون إليها بازدراء.

لم يكن باينز من الماووريين، ولم يكن أيضاً من الباكيها؛ ومضى وقت طويل وهو قانع بأنه مكتّف بجزء من كل عالم. وصول آدا ماك غرات أقلق ارتياحه. وجد باينز نفسه مهتماً برأي آدا فيه؛ تمنى لو أنها لا تأتي لزيارته فقط لأنها فرصة لتعزف على البيانو. فكر بارتياح أن الدروس ستستمر.

اقتربت العمة موراغ ونيسي وماري من ستيوارت وهو منهمك بتقطيع الأخشاب، ومشين على الألواح التي تساعد على اجتياز الحوض المحيط ببيته والذي كان يعتبره حديقة. موراغ ارتدت اللون الأسود ونيسي اللون البنّي وماري اللون الأحمر، وكل واحدة منهن وضعت مئزراً وقلنسوة ومعطفاً، فشكلن ثلاثياً مرحاً مقابل الأصول المسودّة المتبقية من الأشجار التي قطعت في تلك الباحة. قالت موراغ محذرة ماري ونيسي «امشيا بحذر»، ردّدت نيسي من بعدها: «بحذر»، كأن ماري لم تفهم.

www.9ofy.com

سمعت آدا أصواتهن وهي راجعة من درس البيانو. قالت العمة موراغ لستيوارت: «لست بحاجة إلى دعوة، لكن طالما أننا هنا لا بأس». تناولت نيسي سلة بطاقات الدعوة من ماري، وعندما وجدت بطاقة ستيوارت أعطتها للعمة موراغ التي سلمتها بدورها إلى ستيوارت بطريقة غير رسمية، وقالت له بلهجة آمرة: «لا تتأخرا. هناك فترتان كما ترى» وأشارت إلى البطاقة وتابعت: «وطالما أنك سترافق إحدى المشاركات عليك أن تصل في وقت مبكر».

بدأ أليسدير ستيوارت ينظر بعيداً وعمته ما زالت تتكلم. انتبه لآدا وفلورا وهما تدوسان بحذر على ألواح الممر، ترفع طرف تنورة أمها حتى لا يتلوث بالوحل. قال لهما: «انتظرا»، فتوقفتا والتفتتا نحوه، «كيف تسير الدروس؟»

أحنت آدا رأسها بحذر. الدروس تسير على نحو جيد؛ باينز أعطاها الحرية لتعزف كما تريد. أحست بشيء من الارتياح لأن أليسدير ستيوارت لا يعرف شيئاً عن الصفقة التي عقدتها مع جورج باينز. سألها ستيوارت: «إنه يتحسن أليس كذلك؟» ابتسمت قليلاً وأحنت رأسها بالموافقة ثم تابعت طريقها.

«تبدو أكثر هدوءاً». قالت عمته وهي تقترب منه بحركة تآمرية. «هل صارت أكثر حناناً؟» التفت ستيوارت بعيداً وقد أحرجته بسؤالها. قالت موراغ: «لا بأس. ببطء، ببطء».

على الطريق إلى كوخ جورج باينز كانت فلورا ساكتة على غير عادتها. امتلأ الفضاء بالطيور في ذلك الصباح، وبغنائها القوي والمرتفع، وفلورا مشت مأخوذة بالمشهد، سمعت غناء لافتاً فظنت في البداية أنه لمخلوق غريب يعيش في الأدغال. لكنها اكتشفت أن

مصدر الأصوات طائر مكسوّ بريش أخاذ لم يسبق لها أن رأت مثيلاً له. توقفت فلورا لتدل أمها على الطائر وتعطيه إسماً خيالياً يكون نابضاً بالحياة لريشه، لكن آدا تابعت مسيرها كأنها فقدت السمع إلى جانب النطق.

عند اقترابها من كوخ جورج باينز ازداد الوحل قساوة وصار المشي أسهل. تعوّدت آدا أن أطراف ثوبها تتلوث دائماً بالوحل. لم تكن السماء تمطر في ذلك اليوم وفلين خرج من مخبأه ليرحب بهما، وانهمكت فلورا في اللعب معه حتى قبل أن تدق آدا الباب. أبطأ باينز في الردّ، وعندما فتح الباب نظر بحدة إلى آدا فظنت أنه سكران. حياته في هذا الكوخ بعيدة عن مراعاة الأصول لدرجة أنها لم تعد تستغرب شيئاً عنه.

صارت آدا أكثر تقبّلاً لصفقتها مع باينز واعتبرتها جزءاً من حياتها الجديدة والغريبة. لم تعرف ماذا يريد منها حتى تستطيع كسب مفاتيحها. كانت آدا مصممة على استعادة البيانو؛ طبيعة الصفقة لم تعد تعنيها: إنها منذ البداية تجد متعة في الأسرار.

تجاهلت باينز الواقف عند الباب كالمسحور ودخلت مباشرة لتجلس مقابل البيانو. حدّد باينز لنفسه موقعاً في جوار النافذة؛ آدا تستطيع أن تراه بزاوية عينها. كان عادة يختار مكانه وراء ظهرها فتنسى وجوده وتستغرق في عزفها. لكنه اليوم، وكأنه يعد لشيء ما، جلس إلى جانبها يسند نفسه إلى كوعه ويحدّق فيها، عيناه تتحركان ببطء من يديها إلى أعلى ذراعيها ورقبتها وصولاً إلى وجهها.

بعد وصلة من العزف تكلم باينز للمرة الأولى في ذلك اليوم وقال: «ارفعي تنورتك». تكلم ببطء وبنبرة غليظة.

توقفت آدا عن العزف وتركت يديها الصغيرتين ترتاحان على لوحة المفاتيح. لم تكن خائفة بل مصدومة. لم تترك باينز ينتبه لصدمتها. دون أن تنظر إليه تريثت قليلاً. هذه هي الصفقة إذاً. عزمت على المضي في الأمر فرفعت تنورتها قليلاً لتكشف عن حذائها الملطخ بالوحل وواصلت العزف وقد خلا وجهها من أي تعبير.

تحرك باينز بانزعاج على مقعده. أحس أنه ما زال يحلم وأن آدا ماك غرات أتت إليه في حلمه. إنه يريد شيئاً ما منها، شيئاً لا يعرفه ولا يريد أن يدفعها بعيداً عنه بسببه. كان يدرك جيداً أنه يجب أن يكون حذراً معها وأن لا يضغط عليها كثيراً.

«ارفعيها أكثر».

بالكاد توقفت آدا عن العزف هذه المرة، ورفعت تنورتها إنشاً أو اثنين بحركة سريعة وعادت يداها إلى المفاتيح في الحال. ترك جورج باينز مقعده بجوار النافذة. نزل فجأة على يديه وركبتيه وقبل أن تفهم آدا ماذا يفعل رأته ممدداً على جنبه تحت البيانو. كلاهما لم يكن يعرف ما هي الخطوة التالية. أحسّا معاً أن الهواء صار ثقيلاً ويصعب تنفسه.

«أكثر» قال باينز لكن آدا تظاهرت بأنها لم تسمعه. ضرب بيده بقوة على أسفل البيانو مرتين، وعند هذه المقاطعة الملحة البعيدة عن التهذيب توقفت آدا عن العزف قال لها بهدوء: «ارفعيها أكثر».

تنفست بعمق ورفعت تنورتها وتنورتها الداخلية بإطارها الأبيض المخرّم إلى ما فوق ركبتيها. «كل شيء» تابع باينز، فرفعت الطوق أيضاً وكشفت عن سروالها الداخلي وتحته جوربها الأسود الصوفي. ألقت عليه نظرة عاجلة وهو تحت البيانو ولم تحاول إخفاء

احتقارها له. لم تر رجلاً من قبل يتمدّد على الأرض طلباً للمتعة. ولم يسبق لها أن وجدت نفسها في هذا الموقف من قبل. واصلت العزف وهي لا تعرف ماذا سيفرض عليها بعد ذلك.

تمدّد جورج باينز على الأرض الخشبية القاسية بارتياح كأنه يستلقي على وسائد كبيرة وناعمة. كان مأخوذاً برجليّ آدا بتحركهما الأنيق على الدعسات. بطّتا ساقيها جميلتان وقد غطاهما الجورب، وقدماها ترتاحان في حذائها الصغير الذي التفت إليه باينز وكأنه يرى أصابع قدميها الرقيقة. لاحظ وجود ثقب صغير في الجورب الأسود على رجل آدا اليسرى، تحت الإطار المخرّم مباشرة. برز الجلد الأبيض من خلال الثقب، جلد آدا وقد تعرّض للهواء ولنظرة باينز؛ إنه شقّ في تماسكها الذي تحتمي به. دون أن يفكر رفع يده. بإصبع واحد، ظفره متسخ وقاس، وجلده عليه بصمات التبغ والعمل، أخذ يتحسس عبر الثقب جلدها البارد والناعم والأملس ـ آدا.

أجفلت بعض الشيء عندما شعرت بلمسته. أجبرت نفسها على متابعة العزف. انهماكها في العزف يجعلها تشعر أنها تعطي القليل من نفسها إلى باينز، وأنه لن يستطيع أن يأخذ منها ما يريد. لمسته غريبة وبطيئة، مداعبة لطيفة جعلتها تشعر بالإهانة وبتقلص في حنجرتها. لم يلمسها رجل من قبل، وذلك كان منذ وقت طويل، ولم تجد نفسها قبل اليوم عرضة لمثل هذا التأمل المباشر والمسرف. أحست بالحرارة تصعد إلى وجهها، وبوخز في المكان الذي كان باينز يتحسسه ببطء. تابعت العزف؛ حافظت المفاتيح العاجية على برودها وكانت أنغامها شفّافة وواثقة.

كم كانت آدا تحب الاستماع إلى عزف ديلوار هسلر. مضت

www.9ofy.com

عدة أسابيع قبل أن تبدأ بالعزف في حضوره، كان يعزف ويسمح لها بمتعة الاستماع إليه. كانت تراقب أصابعه الطويلة المرنة تمر على المفاتيح، وجبينه يتغضن في المقاطع الصعبة، ومعطفه يشد على ظهره لدرجة أنها توقّعت تمزّقه. آدا تعرف جيداً كم هو ممتع الاستماع للعزف.

عندما التقت بديلوار هوسلر تفاجأت بأنه شاب صغير؛ توقعت أن يكون الأستاذ من عمر ماك غريغور مدوزن البيانو، رجلاً كبيراً متداعياً تفوح منه رائحة دخان الغليون والسعوط. كان يبتسم غالباً ويجذبها بحديثه عن الكتب والمسرحيات وكبار الموسيقيين الذين عاشوا في المدن الأوروبية الرائعة. سافر إلى فيينا ليستمع للأوبرا، وآدا كانت تطلب منه أن يخبرها عن هذه الرحلة مرة بعد مرة. دار الأوبرا، المغنون، الأوركسترا، تجهيز المسرح، رفع الستارة، المقعد الذي جلس عليه ـ أرادت معرفة كل التفاصيل لتتحسس ذلك العالم البعيد جداً عن حدود بيت والدها.

كانت آدا في السادسة عشرة عندما أتى ديلوار هوسلر إلى البيت، بل كانت في السابعة عشرة تقريباً. لم تكن تلتقي غالباً بأولاد من جيلها. كانت تعرف الفتيات شباناً من البلدة، أبناء أصدقاء والدها أو بعض المعارف الذين تلتقي بهم في الكنيسة أو في مناسبات اجتماعية. دعيت لحضور حفلة أو حفلتين لكنها فضّلت الابتعاد. وجودها بين الناس كان يزعجها لأن البعض كانوا يرفعون أصواتهم عالياً حتى تسمعهم لاعتقادهم بأنها صمّاء وخرساء في الوقت نفسه.

أما ديلوار هوسلر فإنه سرعان ما أقام صداقات في البلدة، مع عازفين آخرين، من الشبان غالباً. بعد أشهر قليلة من وصوله إلى

منزل عائلة ماك غرات بدأ يخرج في الأمسيات أحياناً وتمكن بسرعة من تأليف شلّته الخاصة. ويستون ماك غرات لم يكن مهتماً بنشاطات معلّم ابنته الليلية؛ كان يسأل آدا مرة في الأسبوع عن دروسها، ولم يحصل منها على أي ردّ لم يعجبه. وعندما تسنح له الفرصة كان يحب التحدّث مع ديلوار عن موهبة آدا. في البداية أراد ديلوار أن يبدو لبقاً وراح يبالغ في حماسته لمضاعفة اعتذار الأب الخور بابنته، لكن حماسته صارت حقيقية عندما بدأت آدا تعزف في حضوره وبدأت تتعلم قراءة الإشارات الموسيقية وتتقن عزف المزيد من المقطوعات.

أصدقاؤه في البلدة حسدوه على عمله وإقامته في ذلك البيت الكبير وعلى أنه لم يكن عنده سوى تلميذة واحدة. وديلوار لم يشأ تبديد أوهامهم، وآثر ألاّ يذكر أمامهم أن أوضاع المنزل تتدهور تدريجياً. لم يشغل باله بحالة ويستون ماك غرات المالية، ولا بكيفية تخطيطه للمستقبل، كان مرتاحاً طالماً أن راتبه يوضع في حسابه في المصرف كل شهر.

عملت آدا بجهد تحت إشراف ديلوار هوسلر؛ بدأ بتعليمها الموسيقى نظرياً، والتناغم ومزج الألحان أيضاً. أعطاه والدها المال ليطلب المقطوعات الموسيقية والكتب من لندن وأدنبره، وآدا واصلت معه توسيع معرفتها، وازدادت بهجتها في الوقت نفسه.

بعد مرور سنة على وجوده في منزل عائلة ماك غرات صار ديلوار راسخ الحضور هناك وفي الأوساط الموسيقية في ابيردين أيضاً. واظب على التردّد إلى الكنيسة مع أفراد عائلة ماك غرات على الرغم من تربيته اللوثرية، وذلك للإستماع للموسيقى ولقاء أصدقائه في جوقة المرتّلين. شارك في برامج قاعة الحفلات الموسيقية

بقيادة الأوركسترا حيناً والعزف حيناً آخر. أحيا مع رفاقه عدة حفلات لعزف البيانو أو المقطوعات الموسيقية في الأماكن الخاصة، وبدأ البعض يطلبون منه الحضور للعزف في حفلاتهم أو مناسباتهم. وبعد مضيّ فترة قصيرة كان ديلوار أحيا حفلات في كل البيوت الفخمة في المنطقة، وصارت فرقته مشهورة لدرجة أن العازفين بدأوا يطلبون أجوراً ضئيلة مقابل حضورهم. عندما يكون الوضع مناسباً، كانت آدا تشهد هذه المناسبات، تجلس في آخر الغرفة، وتغادر المكان برفقة والدها، أو أحد أصدقائه، مباشرة بعد توقف العزف؛ تلك الغزوات للصالونات التي تشع بالأضواء كانت بالنسبة للشابة الرزينة محنة ومتعة غير اعتيادية في الوقت نفسه.

فرحت آدا لنجاح ديلوار، الذي لم يسمح أبداً لارتباطاته الأخرى بتأخير دروسه معها؛ كان دائماً يصغي بانتباه عندما تعزف، ولا يشرد ذهنه أبداً. عرف ديلوار أن نجاحه في أبردين يعود بقدر كبير لوجوده في رعاية عائلة ماك غرات، وأدرك أنه يدين لهم بالكثير وآدا، إلى جانب ذلك، تلميذة رائعة.

في إحدى الأمسيات، وبعد الحصول على الإذن من والدها، رافقت آدا ديلوار إلى حفلة يحييها أربعة من أصدقائه يعزفون على آلات وترية. كان ديلوار قد أخبر آدا عن عازفة الكمان الشابة، الآنسة جوديت ماك دوغال، التي ستشارك في العزف ذلك المساء. بدا معجباً بعزفها وآدا كانت متلهفة للاستماع إليها بدورها. جلسا في مقدمة الحضور تقريباً. في الغرفة غمغمة خافتة؛ أهل البلدة بدأوا يتعلقون بهذه المناسبات الموسيقية وقد أتى عدد كبير منهم للإستماع اليوم.

وصل العازفون، ثلاثة رجال يرتدون معاطف سوداء، والآنسة

ماك دوغال التي ارتدت ثوباً أسود وسترة ضيقة لها قصة جريئة إلى حدّ ما تساعد ذراعيها على التحرك بحرية أثناء العزف، وقد أرخت شعرها الأشقر بعيداً عن وجهها. سادت الحماسة بين الحضور؛ لم تكن بلدة أبردين متعوّدة على مشاركة عازفة في حفلاتها الموسيقية. بدا الناس مرتاحين لذلك الحضور المميز في تلك المناسبة.

عندما بدأ العزف لاحظت آدا أن ديلوار مال إلى الأمام وأخذ يشدّ بيديه على طرفيّ مقعده. رأته يركّز نظره على الآنسة جوديث ماك دوغال. حاز العزف على إعجاب الجمهور الذي حيّا العازفين بالتصفيق الحاد، وأسرع ديلوار إلى الفرقة تاركاً آدا وراءه. لزمت آدا مقعدها فيما بدأ الناس بمغادرة القاعة. اتضح لها أن ديلوار لم يكن معجباً فقط بموهبة الآنسة ماك دوغال، بل هو معجب بالآنسة ماك دوغال نفسها أيضاً. وقفت آدا وتوجهت نحو باب القاعة حيث التقت السيد بيرسلي، محامي والدها، الذي حيّاها وعرض عليها أن يرافقها إلى البيت قائلاً بشيء من المرح: «من الأفضل أن نترك الموسيقيين على راحتهم، أليس كذلك؟» أسرعت آدا في الخروج إلى الشارع فلامست يده الممدودة نحوها.

بلغت آدا سن الثامنة عشرة ولم يكن أحد يتحدث عن زواجها. كانت بنظر والدها لا تزال طفلة. كان الأمر يخطر في بال بيرسلي من وقت لآخر عندما يتفقد حساب التوفير المخصّص لمهرها، لكنه ما يلبث أن يستبعد المسألة بدوره. آدا نحيلة ورزينة وصامتة لدرجة أنها تبدو فعلاً طفلة. ومن يقدم على الزواج من خرساء؟ وما هي مواصفات العريس الذي يجب البحث عنه؟ من الأفضل عدم الخوض في ذلك عن الإطلاق.

آدا بالطبع لم تعرف شيئاً عن كل هذه التعقيدات. أحست

www.9ofy.com

وهي في الثامنة عشرة بدون أم تهتم بها بأنها أكبر من ذلك بسنوات. لم تفكر في العريس ولا وجدت الزواج ضرورياً؛ إنها ببساطة سوف تواصل دورس البيانو، وتعيش سعيدة في بيت والدها مع ديلوار ولا تريد شيئاً آخر.

لكن رؤية ديلوار والآنسة جوديث ماك دوغال وهما يتبادلان الابتسامات ويتحدثان غير منتبهتين لسائر الناس، أثارت في نفسها مشاعر لم تفهمها في حينه، وأحست بأنها مهدّدة بشكل غامض وخطير. مشت آدا باتجاه البيت مسرعة، متقدمة قليلاً على السيد بيرسلي، الذي كان من حين لآخر يناديها لتبطىء قليلاً. لكنها كانت تتجاهله. عند الوصول إلى البيت صعدت مباشرة إلى غرفتها ولم تنتظر عودة ديلوار في غرفة البيانو كما كانت تفعل غالباً، لتتناول معه الحليب الساخن أو الكاكاو وتستمع إلى أخبار الحفلات الموسيقية التي ينقلها إليها.

لزمت آدا غرفتها طيلة فترة الصباح في اليوم التالي، وادعت أنها مشغولة على الرغم من أنه لم يكن هناك أي عمل تقوم به. وعندما حان موعد درسها بعد الظهر نزلت إلى غرفة الموسيقى وبدأت تعزف قبل حضور ديلوار موسيقى صاخبة ومتنافرة، كالموسيقى الارتجالية التي كانت تعزفها قبل أن تتعلّم كيف تقرأ الإشارات الموسيقية. بعد دقائق وصل ديلوار وسألها رافعاً صوته بسبب الضجيج: «ماهذا؟». أحست أنه يبتسم دون أن تلتفت نحوه فواصلت العزف بمزيد من الحدة وجعلت كل الأوتار داخل البيانو تنبض بالحركة. اقترب ديلوار منها ووقف بجانب البيانو لكنها رفضت النظر إليه وركّزت على تحريك أصابعها بقوة على المفاتيح. رفع صوته ثانية لكنها لم تسمع ما قال. واصلت العزف. مدّ يده

إلى لوحة المفاتيح ليعزف نغمات عميقة وخفيضة كأنه رغب مشاركتها في ذلك العزف المتنافر، لكن آدا توقفت فجأة عن العزف وأنزلت الغطاء بسرعة على اللوحة حتى كادت تؤذي أصابعه. نهضت ونظرت إليه واستدارت فجأة كأنها ترغب في الفرار. أمسك يدها وقال بلطف: «ماذا تفعلين؟» لم يرها من قبل في هذا المزاج المتقلّب.

رفست مقعد البيانو لتزيحه من طريقها وحاولت الإفلات من قبضته لكن ديلوار تشبّث بها وقال لها ببطء وقد توضحت له الحقيقية: «أعتقد أنك تغارين». قاومته آدا بمزيد من الغيظ لتتخلص منه. «أعتقد أنك تغارين من الآنسة جوديت ماك دوغال، يا آنسة». التفتت إليه لاهثة وقد تورد خداها. انحنى ديلوار نحوها دون أن يترك يدها وقبلها على شفتيها. كانت قبلة ناعمة على الرغم من العنف الذي ساد بينهما. أرخى قبضته وتركت آدا نفسها تسقط على المقعد. جلس ديلوار بجانبها. لم يجلسا من قبل على المقعد معاً؛ وهو بالكاد يتسع لاثنين. بدأ يعزف بهدوء قطعة تعرفها جيداً. وعندما مدّ أصابعه نحو مفاتيح النوتة العالية لامست ذراعه ذراعها. لم تتحرك من مكانها لتفسح له مجالاً أوسع ليعزف بحرية. ظلت آدا جالسة في جواره تستمتع بعزفه. قال لها بهدوء: «هذه قطعة هادئة، ببطء، ببطء».

- ٧ -

قصد باينز بقعة فيها مياه ليستحم ويغسل ثيابه، والتقى هناك بمجموعة من الماووري: سيدتان وأولادهما الذين انهمكوا في اللعب على زورق، وشاب يدعى تاهوا استلقى على غصن امتد فوق المياه. أخذ الجميع يراقبون باينز وينتقدونه وهو يعمل، وتراوحت تعليقاتهم بين الجدية البالغة والضحك الصاخب. هيرا، إحدى السيدتين، تركت شعرها الأسود ينساب في ضفيرة طويلة على ظهرها، وعلى شفتها السفلى وشم منقوش؛ انحنت على غصن تدلّى فوق المياه تريد توجيه بعض النصائح لباينز.

قالت هيرا لباينز: «أنت بحاجة إلى زوجة. لا يجوز أن تتركه منقبضاً بين فخذيك بقية حياتك». ابتسم باينز وضحك الأولاد وشاركتهم في الضحك وايمارا التي كانت ترتدي قميصها من نسيج القنب.

«باينز، لا تقلق» قال له تاهو مخاطباً إياه بالإسم الذي يطلقه عليه الماووري، «أنا أنقذك». ومدّ رجله في الماء ليغويه. كان يضع عقداً من الأصداف ويلف وركيه النحيلين بقماش ملوّن.

ردّ باينز: «عندي زوجة»، وكان الحديث يتراوح بين الإنجليزية واللغة المحلية.

قال تاهو وهو يعبث بشعره: «لا بأس. أنقذها هي أيضاً».

وبخته هيرا قائلة: «اسكت! يا لضياع الجهد الذي بُذل لإنجابك».

ردّ تاهو بوقاحة: «وأنت تعرفين جيداً هذا النوع من الجهد». ضحك باينز.

انحنت هيرا نحوه تسأله: «أين زوجتك؟»

ردّ باينز: زوجتي؟ إنها تعيش في هال في أنكلترا».

سألته هيرا: «يبدو أنها بشعة؟...» لم يرد باينز. «... لذلك هربت منها. أنت بحاجة لزوجة أخرى». وأشارت إلى عضوه لتقول: «يا له من كنز، لا تدعه ينام على بطنك في الليل».

وتعالى صوت السيدتين بالضحك فيما ابتسم باينز وواصل غسل ثيابه.

كانت آدا بالكاد بدأت تعزف بعد ظهر ذلك اليوم عندما أحسّ باينز برغبة ملحّة فقال لها: «فكّي أزرار ثوبك». رفعت آدا ماك غرات عينيها عن البيانو باضطراب شديد ما جعله يفكر أنه بالغ في الضغط عليها. «أريد رؤية ذراعيك» أضاف بشيء من التعقّل، كأنه لا يطلب أكثر مما تعوّد عليه كلّ مرة.

أحنت آدا رأسها بانزعاج وحرّكت شفتيها كأنها تقول إنه كان يجب عليها أن تتوقع هذه الخطوة التالية. جلس باينز في نهاية زاوية معتمة من الكوخ حيث لا تستطيع آدا رؤية وجهه بوضوح. أطاعته آدا على مضض ـ إنها ملزمة بتنفيذ الاتفاق ـ وبدأت برفع العلبة الفضية والقلم عن رقبتها.

www.9ofy.com

نهضت آدا لتفكّ أزرار سترتها القصيرة. خلعتها وابتعدت عن البيانو لتعلّقها. كانت ترتدي صداراً ناعماً أبيض بكمّين قصيرين فوق المشد الضيق. كشف الصدار عن رقبتها وكتفيها فأظهر بشرتها الناعمة، وعندما استدارت لتعود إلى البيانو وقع نظر باينز على ظهرها الذي ترك الصدار الجزء الأكبر منه عارياً. قال «ابدئي بالعزف».

وقف باينز ونزع قميصه. كان يرتدي تحتها قميصاً داخلياً رمادياً بكمين طويلين. بشرة آدا الشاحبة بدت له كأنها شفافة. انتبه لشبكة من العروق الدقيقة في باطن ذراعها الناعم. ظاهر يديها، الجزء الوحيد من جسمها الذي تعرّض لأشعة الشمس، كان بالمقارنة مع سائر جسمها. بدا باينز مفتوناً بهذا الاختلاف.

سمعت آدا وهي تعزف وقع خطوات باينز وصرير الألواح الخشبية تحت قدميه وأحست بأنفاسه على رقبتها. انحنى ليلمسها ويمرّر أصابعه الغليظة والقوية على بشرتها الطرية تحت ذراعها. توقفت عن العزف، رافعة يديها إلى رقبتها العارية. همس في أذنها: «مفتاحان»، أراد إقناعها بمضاعفة الحدّ المتفق عليه بينهما.

بدأت آدا بعزف النغمات الأولى من لحن متكرّر. وضع باينز يده تحت معصمها ـ إنه نحيل جداً وعظامها رقيقة. واصلت العزف ويده تمر على جلدها حتى التجويف الدافىء تحت كفها. ثم ابتعد قليلاً وأحست آدا أنه يخلع قميصه الداخلي وسمعته وهو يلقي به على الأرض. حدّقت آدا في لوحة المفاتيح أمامها ولم تعد تريد أن تسمع أو ترى أو تشعر بشيء، وباينز اقترب منها ثانية وأخذ يداعب بلطف وببطء رقبتها وكتفيها. أجبرت نفسها على العزف لكنها لم تعد قادرة على احتمال ما يحدث. إنه يثير

أعصابها بإصراره وجرأته؛ اختارت لحناً سريعاً وخفيفاً يكاد يكون هزلياً لتعبر عن توترها واستهزائها بما يحدث. شعر باينز فجأة بأنه سخيف. تغيّر مزاجه، هي التي غيرته. أبعد يده عن جلدها وتراجع إلى العتمة في الزاوية الأبعد من الغرفة ويداه على وركيه. واصلت آدا العزف بنشوة الانتصار. لقد نجحت في إرجاء ما سيترتب عليها.

وقفت فلورا بهدوء على كرسي فيما كانت العمة موراغ ونيسي تعملان على تثبيت خيوط جناحي الملاك على الصدار الذي سترتديه في مسرحية عيد الميلاد. كانت السيدتان تحاولان تعلّم بعض الإشارات التي تتفاهم بواسطتها فلورا وأمها.

قالت فلورا وهي تشير بيديها في الوقت نفسه: «سأستمع جيداً أثناء التمرين، لأنني أسكن بعيداً ولا أستطيع الحضور غالباً». حاولت نيسي تقليد حركات فلورا السريعة.

سألتها العمة موراغ: «أية إشارة تدل على كلمة تمرين؟» حرّكت فلورا يديها ثانية وحاولت السيدتان تقليدها، وارتبكتا قليلاً عندما حكّت فلورا ذراعها. تخلّت موراغ عن المحاولة قائلة: «لا أعتقد أن هناك حالة أصعب من الخرس».

«الطرش؟» قالت نيسي بعبوس دارماتيكي.

«صحيح، الطرش أيضاً ـ رهيب». ردّت موراغ بتأثر: «إنه مرعب».

فيما كانت نيسي والعمة موراغ تواصلان عملهما قالت لهما فلورا: الحقيقة أن أمي تعتبر أن معظم الكلام الذي يقوله الناس هراء ولا يستحق الاستماع إليه».

موراغ ونيسي تبادلتا النظرات. قالت موراغ بامتعاض: «حسناً. هذا رأي سليم».

ردّت فلورا: «أجل. إنه كلام آثم».

توقفت موراغ ونيسي عن عملهما قليلاً؛ لقد فوجئتا بالكلمات الجريئة التي تفوهت بها الطفلة وبنبرتها المتعالية وهي تتحدث.

بدا أليسدير ستيوارت متوتراً، مشدود الأعصاب، عندما التقى مع باينز بالزعيم نيهه، زعيم الماووريين، وبعض رجاله. كان ستيوارت يرغب في شراء أرض منهم واصطحب معه باينز ليساعده في المساومة. لم يكن باينز يفهم ولع ستيوارت باقتناء المزيد من الأرض، لكنه أبدى استعداده ليلعب دور الوسيط بين أليا كيها والماووري. ستيوارت يعرف جيداً أنه لن يتوصّل أبداً إلى التعامل مع هؤلاء الناس كما يفعل باينز، وأنه لن يتعلّم أبداً لغتهم المستحيلة؛ لم يكن يرغب في ذلك مع أنه ينزعج من ضرورة اللجوء إلى وسيط، ويفضل ألاّ يطّلع أحداً على عمله.

كان الزعيم يرتدي بذلة أوروبية من التويد ويعتمر قبعة بولر، وعلى وجهه نقوش متوازية من الوشم حول فمه وعينيه. قال الزعيم باللغة المحلية: «هذه الأرض فيها الأنهار وفيها الكهوف التي دفن فيها أجدادنا». قال ذلك بتمهل وبنبرة قوية مقصودة، وأشار بذراعه في كل الاتجاهات. وأضاف «قل له ذلك يا بايني». وهو يدل على ستيوارت».

غمغم ستيوارت لباينز، والزعيم مازال يتكلم: «ماذا يقول؟ هل وافق علىّ البيع؟»

واصل الزعيم حديثه: «أتريدنا أن نبيع عظام أجدادنا؟»

همس ستيوارت: «قدّم له البطانيات مقابل نصف الأرض». أحنى باينز رأسه. قال الزعيم مباشرة دون أن يترك فرصة لباينز ليترجم له: «أبداً، ليس هناك ثمن تستطيع دفعه».

«أثنتا عشرة» قال ستيوارت لرجال الماووري وهو يبتسم بعصبية ويرفع أصابعه ليشير إلى العدد.

قال باينز: "te, kaumarua paraikete ma te tahi hawhe o te whenua nei. اثنا عشرة بطانية مقابل نصف الأرض». تقدم هون، ابن الزعيم، وبصق على الأرض التي تفصل بين الطرفين.

«أعرض عليهم البنادق، أعرض عليهم البنادق» قال ستيوارت بإلحاح وقد زادت حدة توتره. بدأ باينز يترجم وستيوارت ينزع الغطاء عن البنادق وأوقف بندقية على عقبها وأخذ يعرضها أمامهم بابتسامة قلقة.

ألقى الزعيم نيهه كلمة مقتضبة عنيفة، لم يترجمها باينز، ونهض مع رجاله ليغادروا المكان تاركين رجلي الباكيها وحدهما.

عاد ستيوارت وباينز بحمولة البطانيات والبنادق التي رفضت بازدراء، وسلكا درباً يمر بمحاذاة الأرض التي فاز بها ستيوارت مقابل البيانو. قال يشكو من الماووريين: «لماذا يتمسكون بها؟ إنهم لا يزرعونها ولا يستصلحونها، ولا يفعلون بها شيئاً. كيف يعرفون أنها لهم؟»

توقف باينز قليلاً عند دعامة في السياج الجديد. سكت ستيوارت وراقب باينز بشيء من القلق. مشى باينز إلى الدعامة التالية ولمس الخشب المقطوع حديثاً، وفكر في الأرض التي تخلّى عنها. قالّ له ستيوارت كأنه يختبره: «نويت أن أسجّل حدودها أيضاً».

قال باينز: «أجل، ولمَ لا؟»

تابعا سيرهما. «تقول آدا إنك تتابع دروس البيانو جيداً. سوف أحضر مرة لأسمع عزفك. أية موسيقى تعزف؟»

www.9ofy.com

«لا شيء حتى الآن».

«لا شيء» قال ستيوارت حائراً وقد تملّكه الخوف من أن تكون آدا فشلت في تنفيذ ما يترتب عليها حسب الاتفاق. إنه لا يستطيع أن يثق بها على الرغم من أنه مضطر لذلك. واصلا سيرهما وكل منهما مستغرق في تأملاته.

خلعت آدا سترتها القصيرة كي تعزف وهي ترتدي الصدار كما فعلت في المرة السابقة. بدا طبيعياً أنه بعد التوصل إلى خطوات جديدة لم يعد هناك مجال للرجوع إلى ما كانت عليه الأمور قبل ذلك. ألقت بالسترة على ظهر الكرسي. إنها في الواقع تتحرك بحرية أكبر بدونها أثناء العزف، لكن آدا لم تشأ الاعتراف بذلك أمام جورج باينز.

حيّاها باينز دون أن يقول شيئاً. لاحظت آدا أنه نادراً ما يتكلم، لكنها تعوّدت على صمته، وعلى الرغم من التنازلات التي كانت مجبرة على تقديمها في كل زيارة كانت تتلهف لاستعادة البيانو. إنه بالنسبة لآدا لا يزال أهم ما تفكر فيه.

بدأت تعزف وانحنت بجسمها لتقترب أكثر من المفاتيح وتبتعد عن سائر العالم من حولها؛ مشى باينز إلى الكرسي الذي وضعت عليه سترتها. رفع السترة وهو يمر بيده على القماش، وحملها إلى مقعده الذي وضعه خلف آدا مباشرة. ضمّ السترة إلى صدره، إنها لا تزال تحمل دفء جسمها. أغمض عينيه ورفعها إلى وجهه ليشمها. أنزلها إلى حضنه وفتحها ليدخل يده عبر الكمين اللذين وجدهما ضيقين وصغيرين للغاية. هذا القماش يلمس جسم آدا. مرّ بأصابعه على القطب ولامس الأزرار، وكان لا يزال مغمض العينين، رفع السترة ثانية وغطى وجهه بها. فاح القماش بعطرها، كالبيانو.

التفتت آدا قليلاً وهي تعزف كأنها أحست بحركاته. عندما رأت ماذا كان يفعل توقفت عن العزف وقد أذهلتها طريقته الغريبة في الاستمتاع واللذة. يدفن وجهه في سترتها كأنها حية: هذا تصرّف غريب. أدارت آدا مقعدها لتواجهه ومدت يدها لتأخذ سترتها وهي تنظر إليه باستنكار وقسوة. لم ينتبه لها باينز وكان لا يزال مغمض العينين وبدا مستغرقاً حتى أنه لم يلحظ توقف الموسيقى. مشت آدا نحوه وانتزعت السترة من بين يديه. نظر إليها مدهوشاً، تريثت قليلاً لترى ماذا سيفعل، ثم توجهت نحو مقعدها.

نهض باينز وتبعها. شدّها بذراعها وأدارها نحوه. تمزّق قماش صدارها الأبيض كاشفاً عن كتفيها الشاحبين وصدرها. قرّب وجهه من أسفل عنقها وأخذ يقبّلها بنهم. لهثت آدا بصوت مكتوم كي لا تسمعها فلورا. جرّها باينز معه وكان من الواضح أنه يأخذها إلى سريره. حاولت مقاومته وهي تشد في الاتجاه المعاكس. هذا أكثر بكثير مما توقعت. عندما جلس على حافة السرير ترك ذراعها؛ جمعت آدا قماش صدارها لتغطي كتفيها وابتعدت عنه إلى البيانو، ملاذها الذي لم تعد واثقة منه، وتناولت سترتها.

ـ «آدا» ناداها باينز بصوت منخفض مشبّع بالتوق والرغبة، لكنه هادىء وأضاف «أربعة مفاتيح».

رفعت آدا يدها وأشارت بأصابعها وحركت شفتها كأنها تقول: «خمسة». وتابعت ترتيب ثيابها.

سألها باينز: «لماذا خمسة؟ أريد فقط أن أستلقي بجانبك».

نظرت إليه بثبات وقلبها يخفق بقوة. لن تتراجع عن العرض الذي قدمته.

قال باينز وهو يرفع يديه مستسلماً: «حسنا، حسناً، خمسة».

تمدّد على السرير مبتسماً وبدا رحباً وراغباً في اللهو، وربت على المكان الفارغ بجانبه كأن الأمر في غاية البساطة.

نظرت إليه آدا وهي تكاد لا تصدق أن الصفقة التي عقدتها أوصلتها إلى هنا. تنفست بعمق وشدّت أطراف صدارها وتمددت على بطنها إلى جانب باينز.

بعد فترة من الصمت بدأ باينز يداعب كتفيها دافعاً نحو الأسفل مجدداً كُمّي صدارها الممزق. أغمضت عينيها وقد حبست أنفاسها، ثم فتحتهما عندما شعرت بشفتيه تمتّان جسمها برفق. قبّل ظهرها وأذنها ودفع فمه إلى رقبتها، وكانت حركاته رقيقة وحنونة. تمددت آدا بلا حراك واحتقن خدّاها. فجأة انتبه باينز لسكونها، فهدأ بدوره. تناهى إلى سمعها غناء طائر وهما مستلقيان يسمعان أيضاً صوت تنفسهما. خافت آدا من الأحاسيس الغريبة والمشوّشة التي انسابت عبر جسمها. أحست بالخوف والخجل لتحرك مشاعرها.

رفع باينز رأسه فوق كتفيها متسائلاً ما إذا كان وجهها يكشف شيئاً من مشاعرها. نهضت آدا في تلك اللحظة وسحبت يدها من يده وابتعدت. راقبها باينز وهي تمرّ بظاهر يدها على المفاتيح العاجية اللمّاعة دون أن تصدر صوتاً، حركتها عكست مودة كان هو محروماً منها. توجه نحوها وأنزل الغطاء كأنه يريد إثبات ملكيته للبيانو، وأجبرها على إبعاد يدها عن المفاتيح. رفعت آدا سترتها وارتدتها وقد تجمعت الدموع في عينيها بسبب قسوة تصرفه غير المتوقع وبسبب وضعها غير المطمئن إجمالاً.

تجاذبتها الأفكار وهي تسلك طريق العودة إلى بيت ستيوارت. ما الذي يحدث لها؟ طوال سنوات صمتها لم تتمكن مرة واحدة

أن تكون قادرة على الكلام، لكنها اليوم تود لو تستطيع قراءة ما يخفيه جورج باينز بصمته. اهتمامه بها أشبع غرورها، وهي أدركت ذلك وأحست بخطورته. لكنها بعد الوصول إلى هذه المرحلة من الاتفاق كانت مصممة على المضي حتى النهاية، لكي تستعيد البيانو. ومهما كان الثمن الذي ستدفعه غالياً فهو لن يكون أصعب بالنسبة لها من خسارة البيانو.

انشغلت آدا بأفكارها ولم تنتبه لفلورا التي كانت تتحدث عن مسرحية عيد الميلاد التي ستعرض في غضون أيام قليلة. عرفت فلورا أن أمها لم تكن تستمع لما تقول لكنها تابعت كلامها على الرغم من ذلك. لم يعجبها تغيّر أمها في الفترة الأخيرة. «وأنا سوف ألعب دور الطفل يسوع في السنة المقبلة يا ماما، وعلى الجميع أن يطيعوا أوامري»، حاولت لفت انتباهها بذلك لكن آدا لم تسمعها.

جورج باينز عاش حالة من العذاب اللذيذ المؤلم وهو يقنع نفسه أنه ما زال قادراً على تحسس عطر آدا. تخيلها وهي راجعة إلى بيتها، تبتعد عنه أكثر فأكثر. أحسّ بفراغ قاتم وبائس يكاد يستحوذ عليه. لماذا لم تبق معه، تتمدّد بدفء بجواره؟

حان أخيراً موعد عرض المسرحية، ولم تعد فلورا قادرة على كتمان فرحها. ساعدتها آدا على جمع البدلة التي انتهت من خياطتها العمة موراغ في ذلك الصباح. أخذت آدا تحلّ الخيوط الطويلة في الستارة لتفك الحلقات الصغيرة التي تحبها فلورا، والطفلة تنشد إحدى أغنيات الميلاد. بدا الميلاد غريباً في هذا الوقت من السنة والطقس دافىء لهذا الحد، لكن فلورا تعوّدت بسرعة على مظاهر الاختلاف الواضحة وعلى التقلبات في حياتها

www.9ofy.com

الجديدة. أحبت جناحي الملاك وكانت متحمسة لظهورها على المسرح للمرة الأولى.

في ذلك المساء ارتدى ستيوارت أفضل قميص وسترة وبنطلون عنده وأعدّ العربة والحصان ليصحب عائلته الصغيرة إلى مقرّ الإرسالية. عند الوصول كان الناس ينقلون بواسطة عربات اليد للعبور فوق الوحل العميق، والأطفال الذين ارتدوا ثياب المسرحية كانوا يُرفعون ويُنقلون من يد إلى يد كأنهم دلاء تنقل لإطفاء حريق؛ وجرس الكنيسة كان يُقرع طوال تلك الفترة.

عمّت الفوضى في الداخل. أحضرت مقاعد إضافية لاستيعاب الحضور. وراء الستار انهمك أستاذ مدرسة الأحد بجمع الأطفال وتذكيرهم بترتيب الأغاني، وتفقد تسريحاتهم ولون شفاههم وتأكد أنهم جميعاً لم ينسوا الذهاب إلى الحمام. أخذ البعض يسترقون النظر عبر الفتحات الصغيرة في الستارة إلى الناس الذين غصّت بهم القاعة. قامت سيدتان تبرعتا للمساعدة بوضع المزيد من المساحيق على وجوه الملائكة، وضربتا ملاكين لأنهما غمسا أيديهما في دلو الوعاء الذي أعده القس كامبل بعناية بمساعدة كل أفراد المجموعة الدرامية التي تشارك في مسرحيته.

تجمّع حوالي أربعين شخصاً في القاعة، بينهم الزعيم نيهه ومعه عدد من أبناء شعبه يرتدون ملابس أوروبية. كان الجميع يتحدثون بمرح، ما عدا الماووريين، الذين انتظروا بدء الاحتفال ولم يعرفوا ماذا يتوقعون. رتبت العمة موراغ المقاعد الجديدة. عند باب القاعة وقف بعض الرجال يستقبلون الوافدين. وصل جورج باينز وبدا مظهره غريباً وهو يعتمر قبعة رسمية وجدها بين أغراضه. كان حضور باينز في مناسبة كهذه أمراً لافتاً، وهو شعر بالارتباك.

قال أحد الرجال: «انظروا من أتى: الموسيقار باينز».

«ماذا ستعزف لنا الليلة يا جورج، تلألئي تلألئي يا نجمتي الصغيرة؟» سأل رجل آخر.

نظر باينز بلا مبالاة ونزع قبعته. تجاهل الموجودين ومرّ بجانبهم بدون إلقاء التحية. استمرت التعليقات المزعجة وهو يجوب القاعة بحثاً عن آدا. تقدمت نحوه عمة ستيوارت وقد زينت شعرها للمناسبة بأشرطة حمراء، ومدت له يدها لترافقه.

قالت له موراغ: «ربما تستطيع مساعدة نيسي بتقليب صفحات النوتة لها وهي تعزف للأطفال؟» وقادت باينز إلى البيانو.

«هذا ثوب للمناسبة». قالت له نيسي وهي تخفض عينيها. كانت ترتدي ثوب زفاف أبيض وتغطي رأسها بخمار شفاف.

قالت موراغ: «أعجبني اهتمامك بالبيانو». وكأن الأمر يعنيها. وبدأت تفتح صفحات دفتر الموسيقى «أين نوتة هذه الأغنية؟»

في تلك اللحظة رأى باينز آدا ماك غرات وهي تدخل القاعة برفقة أليسدير ستيوارت. بدت متألقة في ثوبها الحريري الأحمر الذي عكس صفاء بشرة رقبتها وأعلى صدرها؛ جمالها الأخّاذ سحره. تقدمت بين صفين من المقاعد وتوقفت فجأة عندما أحست كأن نظرات باينز تشلّ حركتها. رؤية باينز بين الناس لم تكن أمراً مريحاً بالنسبة لآدا التي تضايقت من وجوده. لقاؤها به داخل الكوخ المعتم له سماته الخاصة وكأنه كان يدور في عالم مختلف. لكن وجوده أمامها في هذه الليلة أفقده روعته. باينز حقيقي، وكذلك شغفه الغريب، وكل مساوماتها معه حقيقية أيضاً ومثيرة للقلق.

ترك باينز موراغ ونيسي دون أن يقول شيئاً، فالتفتت نحو السيدتان وقد أدهشهما بسوء تصرفه. مر بين المقاعد واختار مقعداً خلف آدا، يفصل بينهما توأمان بشعر أحمر ويرتديان ثياب المسرحية. تجاهلت آدا وجوده كما تجاهلت نظرات الرجال عند باب القاعة.

عاد البعض لمضايقة باينز، فقال أحدهم: «جورج، من فضلك ما رأيك بأغنية لماري حمل صغير» وتابع مقلّداً ثغاء الحمل.

«أو تعزف لنا البولكا. هيا، جورج، ما بك؟»

إلتفت ستيوارت إلى الذين كانوا ينتقدون باينز. وقال بصوت منخفض: «أغبياء. جورج، تعال واجلس بقربنا». تقدم باينز ليجلس على المقعد بجوار آدا، لكن آدا التفتت بسرعة ووضعت يدها على المقعد ليجلس في المقعد المجاور وقد آلمه رفضها المباشر والمغرور.

رحّب القسّ من على المنبر بالحضور قائلاً: «سيداتي، سادتي. إجلسوا في أماكنكم. الاحتفال سيبدأ بعد قليل». رفعت الستارة واصطف الأولاد بعصبية على المسرح، يرتدون ملابس تدل على أنهم غيوم أو ملائكة، ويحملون الشموع وعصيّاً تدلّت منها النجوم والأقمار. أعجب الحضور ببراءتهم المحببة. بدأ الأطفال ينشدون التراتيل بجدية لكن أصواتهم بسبب حيائهم كانت بالكاد مسموعة. عندما وقفت فلورا في مقدمة المسرح أمسك أليسدير ستيوارت يد آدا، وهي لم تمانع. ابتسم ستيوارت من شدة فرحه. نظرت آدا إلى يديهما المضمومتين معاً وابتسمت بدورها. نظرت إلى جنبها بطرف عينها ورأت أن جورج باينز شهد تلك الحركة التي تنمّ عن المودة. تخيلت مدى تألمه بكثير من الارتياح. شدّ زوجها على يدها. حدّق جورج باينز بانشداه وفجأة لم يعد قادراً

على التحمّل فوقف وغادر القاعة. راقبته آدا وهو يخرج وقد امتلأت بنشوة انتصارها.

ظهر القسّ على المسرح وهو يرتدي بنطلون مهرج ويضع ربطة عنق كبيرة ومكشكشة، ويحمل صينية عليها شموع أضاءت بنورها وجهه الذي لوّنه بالمساحيق. كانت المسرحية تدور حول قصة «ذو اللحية الزرقاء» وهي حكاية وجدها معظم الحضور من الأوروبيين مخيفة إلى حد ما على الرغم من أنها مألوفة. «وهكذا رأت العروس الصغيرة كل زوجات ذي اللحية الزرقاء المفقودات، رؤوسهن ما زالت تنزف وعيونهن ما زالت تبكي».

تقدمت نيسي وهو يقرأ وكانت تلعب دور العروس الشابة. على الستارة الخلفية علقت رؤوس زوجات ذي اللحية الزرقاء السابقات. كان العزف المرافق مشحوناً بالترقب القلق والجمهور بدا متجاوباً ومتأثراً. مشت نيسي بحذر وهي تضيء كل رأس على حدة بواسطة صينية الشموع التي حملتها. وراء الستارة كانت العمة موراغ منشغلة بغرف الدماء ووضعها على الستارة كأنها تنزف من الرؤوس المعلّقة. نظرت موراغ إلى نيسي من أحد الثقوب وقالت لها هامسة وهي تنتقل بين الجثث: «تمهلي، تمهلي قليلاً».

واصل القسّ قراءة النصّ: «ولكن، مَنْ هذا؟»

ارتعشت نيسي وأطفأت شموعها بسرعة. سُمع صوت باب ينفتح بصرير مرتفع، وتلا ذلك وقع خطوات ثقيلة تردّد صداه في أرجاء القاعة. تجمدت نيسي وبدا الذعر في عينيها. خيال ذي اللحية الزرقاء الضخم والملتحي تحرك خلف الستارة.

«عُدْتُ إلى البيت باكراً يا زوجتي العزيزة» قال الرجل الهائل

www.9ofy.com

الحجم بكرشه الكبير وذراعيه الطويلتين المخيفتين. سُمع عزف كمان ينذر بالشؤم. «أين أنتِ؟»

حملت نيسي مفتاحاً كبيراً توجهت إلى خلف الستارة بدورها ليرى الجمهور خيالها. قالت بصوت مرتعش: «آه، زوجي، يا لها من مفاجأة».

قال ذو اللحية الزرقاء: «أجل يا زوجتي، إنها مفاجأة بالفعل». وأخذ المفتاح من يدها. «الآن أنت تعرفين سري». وأشار إليها بأصابعه الطويلة مهدّداً. كان الأطفال يجلسون مع الجمهور وهم في ملابس الاحتفال، وكانوا جميعاً يراقبون المشهد بعيون مفتوحة وتنهدوا خائفين بصوت واحد. آدا ضمّت فلورا إلى جانبها.

صرخت نيسي: «لا، لا».

«أنتِ الأصغر... والأجمل... بين نسائي... استعدي...» ورفع صوته وفأسه في الوقت نفسه وبدا الفأس فوق نيسي التي انكمشت مرتعدة رافعة يديها بالتوسّل: «إستعدي للموت!»

غمغم الحضور بإعجاب وتقدير. إثنان من محاربي الماووري من قبيلة الزعيم نيهه، هون ومانا، وقفا. قال هون هامساً: «Aue! Ha aha ra tenei-hey! هل هي جريمة قتل؟»

قالت نيسي ترجوه: «لا، لا، إنتظر أرجوك».

وقف عدد من رجال الماووري دفعة واحدة.

قال ذو اللحية الزرقاء: «لن أنتظر!»

صرخت نيسي: «لا».

قال لها مزمجراً: «تحسسي رقبتك». ورفع الشكل الشرير فأسه ثانية، وتحرك الماووريون مجدداً. صرخ هانا: «pokoko-hu جبان!

سنرى ماذا تفعل معي!» وانطلق يعدو بين الناس. كل زوجات ذي اللحية الزرقاء فتحن أعينهن وبدأن يصرخن. «أرني قوتك الآن!» وقفز إلى المسرح وهو يلوّح بهرواته وتبعه عدد من رجال الماووري.

تدافع الحضور إلى أحد جوانب القاعة، فيما سادت الفوضى على المسرح وتعال الصراخ الحقيقي هذه المرة. أحاط المقاتلون بذي اللحية الزرقاء ورفعوا مظلّة كالرمح فوقه وهم يتذمرون. الزعيم نيهه، ومعه مجموعة من أفراد قبيلته، بينهم بناته، لم يتحركوا من مقاعدهم. ضرب نيهه عصاه على الأرض وصرخ بصوته العالي: «Hoki mai! ـ كفى، كفى! ارجعوا في الحال».

فيما بعد تمت مرافقة الزعيم نيهه ومن معه، بما في ذلك المقاتلون المستاؤون، إلى ما وراء الستارة الخلفية حيث عرض أمامهم الأدوات المختلفة المستخدمة في العرض المسرحي ـ دلو الدماء، والفأس المصنوع من الكرتون، والفتحات في الأغطية. وقدمت لهم العمة موراغ جميع زوجات ذي اللحية الزرقاء: «السيدة ويليامز، السيدة بارسونز، السيدة ريد، الآنسة...» وتريثت قليلاً حين وصلت إلى السيدات غير المتزوجات وتابعت: «الآنسة، بالمر، الآنسة كير». أحنى الماووريون رؤوسهم للسيدات وسلموا عليهن بلباقة. «هذا جيد، هذا جيد جداً». قالت العمة موراغ في النهاية، ولم تكن توجه كلامها إلى شخص معين.

- ٨ -

بعد خروجه المبكر من قاعة مقر الإرسالية أمضى جورج باينز ساعات طويلة خانقة وهو يفكر بآدا ماك غرات. إنه الآن يجلس صامتاً وجو الغرفة بدا ثقيلاً من حوله. عزفت آدا مقابل المفتاح الثالث عشر والتفتت تنتظر تعاليمه. كان باينز مستغرقاً في كآبته، وقد أسند رأسه بيده. بدا مختلفاً، عابساً وبعيداً. عندما رفع نظره إليها أشارت إليه آدا برأسها لتقول له إنها انتهت وتنتظر ما يريد. قال لها بنبرة لا مبالية ومتعبة: «افعلي ما يحلو لك. اعزفي ما تشائين». تنهّد وهو يفكر أنه لم يكن لينجح في الدخول إلى العالم الصامت لهذه المرأة المتزوجة والمتحفظة، وكان يجدر به ألا يرغب في ذلك أيضاً.

احتارت آدا لهذا التغير في سلوك باينز، وتساءلت ما إذا كان سببه أنه رأى أليسدير ستيوارت يمسك بيدها؛ لم تتخيل أن يكون لنزوتها تأثير قوي لهذا الحدّ. استعدت للعزف وهي مرتبكة فعادت إلى اللحن الذي بدأت بتأليفه وتنقيحه منذ بضعة أسابيع، والذي كان بإيقاعه الذي يعلو ويهبط يعكس بعض التشوش والفوضى في

قلبها وفي عقلها. كان عزفها متسارعاً بإيقاع رباعي. بعد قليل التفتت؛ أحست بالقلق. واصلت العزف بتمهل وانتبهت أن باينز ليس موجوداً. تفاجأت ونهضت عن مقعدها، وقد انتابها خوف مفاجيء من أنه قد يخلف في وعده ويتراجع عن اتفاقه معها ولم يعد هناك سوى أقل من نصف المفاتيح. مشت بهدوء لكن صرير الألواح الخشبية بدا عالياً في الصمت المفاجيء، وحاولت معرفة مكان باينز من صوت تنفسه. تحركت ببطء يرافقها حفيف ثنيات تنورتها، حتى وصلت إلى الستارة الحمراء المخرمة التي تغطي سريره، تمهلت لتسترق النظر، لا شيء. توجهت إلى الستارة الثانية. تريثت ثم فتحتها وفي الحال تراجعت إلى الخلف وهي تلهث.

خلف الستارة وقف جورج باينز عارياً. لم يسبق لآدا أن رأت رجلاً عارياً من قبل. وقف باينز في ضوء الشمس. جسمه ممتلىء وعريض ومليء بالحيوية، وعضلاته المكتنزة بدت واضحة في الضوء. حدق في آدا ودون أن يرف له جفن وقال: «أريد أن نستلقي معاً بدون ملابس». لم تعرف آدا أين تنظر. رفعت يدها إلى فمها مرتبكة. سألها: «كم تطلبين؟» كان صوته واضحاً ومقنعاً.

نظرت آدا إلى الأرض ثم رفعت عينيها إليه مباشرة احتارت بين رغبتها في رفضه بازدراء والردّ على جرأته الوقحة، وبين رغبتها في انتهاء الفرصة لكسب المفاتيح الثمينة. وبدون الخوض في مزيد من التردّد رفعت أصابع يدها وأشارت بها مرتين.

قال باينز موافقاً: «حسناً، عشرة مفاتيح». رفعت آدا يديها معاً وأشارت بأصابعها دفعة واحدة كأنها تحدد السعر النهائي. ثم تنفست بعمق وهي تكاد لا تصدق أنها وافقت على طلبه.

www.9ofy.com

أزاح باينز الستارة عن السرير، وجلس وهو يضع يده على ركبته وأخذ يراقب آدا وهي تخلع ملابسها.

في الغابة كانت فلورا تهيم مع خيالاتها تمتطي جذع شجرة وتتخذه حصاناً. أعدت ما يشبه اللجام وجلست بشكل جانبي، وراحت تردد لحن الأغنية التي تعلمتها للمسرحية وهي تجوب التلال على ظهر حصانها الصغير غابريال. مع غابريال فلورا لا تشعر أبداً بالوحدة.

رفعت آدا فستانها لتخلعه فكشفت عن صدارها ومشدها وعن سروالها الداخلي وجوربها وقفص الأسلاك المربك. حوّلت يديها إلى التنورة ذات الأطواق ومن ثم إلى أربطة مشدّها.

انتبهت فلورا إلى توقف الموسيقى المفاجيء، فانزلقت عن سرج حصانها وتوجهت نحو الكوخ.

في الداخل وقفت آدا عارية بين كومة من الثياب الملقاة على الأرض. رتبت الغطاء على السرير ومدت فوقه تنورتها أسندت ظهرها إلى وسادة حمراء وضمت ركبتيها. بدت أصغر حجماً وأكثر قابلية للتأثر بدون تلك الطبقات الواقية التي كانت ترتديها. بلطف بالغ سحب باينز رجليها وحرّكها من كتفيها ليقرّب جسمها من جسمه.

صعدت فلورا درج الشرفة لتستكشف أمر الصمت الغامض. سكتت عن الهمهمة وأخذت تسترق النظر عبر مختلف الشقوق والفتحات في الألواح. كان مجال الرؤية محدوداً لكنها استطاعت أن تتبين أجزاء من أجسام ورأت لمعان الجلد الشاحب في الظلام. السيد باينز متمدّد فوق أمها. ارتابت وزاد فضولها وتابعت مراقبتها عبر تجويف آخر في الجدار. سمعت جورج باينز يهمس برقة، يخبر

أمها أسراراً، وفلورا تعرف أنه غير مسموح لها الاطلاع على هذه الأسرار.

لم تعد آدا قادرة على التحرك، وباينز لم يفعل شيئاً يجعلها ترغب في ذلك، كانت لمساته لطيفة وهادئة وقبلاته عذبة. أحست أنها مشلولة ومع ذلك كانت مرتاحة؛ جلده دافيء ومرن وحيّ، مختلف عن مفاتيح البيانو التي تلمسها بأصابعها. تركت يدها حيث وضعها تمكث هناك بسكون. بعد فترة ابتعد باينز عنها. حدّق الواحد منهما في الآخر محاولاً أن يعرف حقيقة شعوره. ثم نهضت آدا لترتدي ملابسها.

في اليوم التالي كانت فلورا تلعب مع ثلاثة من أولاد الماووري الذين صادقتهم، وذلك في فسحة مشمسة بين أشجار الصنوبر. جلست ثلاث نساء يدخنّ ويثرثرن في الظلّ، وواحدة منهن حملت خنزيراً صغيراً في حضنها وكان يعتبر حيواناً مدللاً. بدأ الأولاد لعبة يعمدون فيها إلى فرك أجسامهم صعوداً وهبوطاً على جذوع الأشجار ويقبلونها ويعانقونها. وعندما يصرخ أحدهم: «بدّلوا!» كان الجميع يتبادلون الأشجار. كان يشوب اللعب بعض الفوضى بسبب إنتقال الأولاد باستمرار من شجرة إلى أخرى فيتدافع أثنان أو ثلاثة لتقبيل الشجرة نفسها.

لم ينتبه الأولاد لمجيء ستيوارت. أدرك ستيوارت طبيعة اللعبة فشدّ يد ابنة زوجته وأبعدها عن الشجرة التي طبعت عليها للتو قبلة كبيرة.

قال لها بقسوة: «لا تفعلي ذلك ثانية أبداً، في أي مكان» وجاهد للسيطرة على أعصابه فيما كانت النساء يهزأن من قلقه. «هذا عار كبير. لقد تسببت بالعار للأشجار». طقطقت النساء

ألسنتهن وحركن رؤوسهن بسخرية وهن يراقبنه يجر الطفلة بعيداً. توردّت وجنتا فلورا من شدة الخجل. لم تعد تعرف ماذا تفعل لإرضاء أمها أو هذا الرجل.

عاد ستيورات برفقة فلورا إلى أشجار الصنوبر بعد بضع ساعات وطلب منها تنظيف كل شجرة ألحقت بها العار بواسطة الماء والصابون. في البداية تملكتها الرغبة في البكاء لكنها ما لبثت أن حوّلتها إلى رغبة في المشاكسة عندما تعبت من فرك الجذوع. قالت له عندما أقبل نحوها، وهي تتباهى بأنها تمتلك معلومات تعرف أنها ذات قيمة: «أنا أعرف لماذا لا يستطيع السيد باينز عزف البيانو».

أشار أليسدير ستيوارت إلى شجرة وقال: «لقد تركت هذه البقعة هنا».

«إنها لا تعطيه دوراً. هي تعزف ما تريد. وفي بعض الأحيان لا تعزف أبداً». مئزرها كان مبللاً برغوة الصابون.

نظر إليها ستيوارت بتمعّن. «متى موعد الدرس التالي؟»

أجابت فلورا: «غداً».

هبت الريح بقوة في اليوم التالي. صوت الدغل كان هائلاً، والأشجار تماوجت مع تدافع الريح، والغصون الصغيرة تكسرت وسقطت على الأرض حيث كان السرخس يدور كالدراويش. أسرعت آدا وفلورا في هذا الضجيج الهائل من الصرير والدفع العنيف؛ معطف آدا راح يخفق ولم تستطع شدّه حولها، فيما طار معطف فلورا بعيداً عن جسمها. طارت الطيور كأنها أصيبت بالجنون، تتدافعها الريح، ترفعها ثم تسحبها إلى الأسفل.

وصلت آدا وفلورا إلى كوخ باينز لتجد مجموعة من رجال الماووري يحملون البيانو. كان الرجال يغنون وهم ينزلون بالآلة

الضخمة على درج الشرفة. واحد منهم كان يعتمر قبعة رسمية لم يفعل شيئاً سوى أنه كان يضرب على المفاتيح كأنه يعزف إيقاعاً يواكب الغناء الذي كان يرتفع أكثر من كل درجة. أسرعت آدا إلى داخل الكوخ مذعورة من هذا التحول المفاجيء في الأحداث وتركت فلورا في الخارج.

كانت هيرا تعدّ الطعام لجورج باينز. كلاهما توقف عن عمله عندما دخلت آدا. بدت مضطربة وهي تلوّح بيديها بإصرار لتشير إلى ما رأته في الخارج وتطالب بتفسير. كانت أكثر وضوحاً في التعبير عن نفسها من المعتاد؛ لم تكن آدا تظهر بهذه الحيوية إلاّ أمام فلورا. توقفت عن تحريك يديها وأخذت تروح وتجيء في الغرفة محاولة السيطرة على أعصابها. كانت تحت وطأة حالة عاطفية محيّرة؛ أدركت وهي تسعى لتهدئة نفسها أن ما أثارها كان إحساسها بأنها مرفوضة وهذا ما أدهشها. جورج باينز يبعد البيانو عن كوخه، ويبعدها معه، وهذا لم يجعلها تشعر بالسعادة كما تصورت.

مازال صوت غناء الرجال مسموعاً وهم يحملون البيانو بعيداً.

قال لها جورج باينز: «رددت لك البيانو». وقف في مواجهتها وعلى وجهه علامات الاهتمام والألم. نظرت إليه آدا. ماذا يقصد بكلامه؟ تابع يقول: «أخذت ما فيه الكفاية».

فتحت آدا فمها وأطلقت صوتاً مخنوقاً عكس خيبة واضطراباً كبيرين. أخذ ما فيه الكفاية منها أم من البيانو؟ عزفها، حضورها: إنه يخرق اتفاقهما. أحست بأنها مصابة بدوار وأنها فقدت توازنها من هذا الارتداد الاستفزازي.

اقترب منها باينز، واستدار قليلاً وحرّكها معه لكي يحول دون

www.9ofy.com

سماع فلورا وهيرا لما يريد قوله. رأته مرهقاً وشاحباً. قال لها هامساً: هذا الاتفاق يحولك إلى عاهرة ويجعلني بائساً». حدقت آدا في الأرض. «أريدك أن تهتمي بي، لكنك لا تستطيعين ذلك».

عاد إلى مكانه مقابل الموقد مع هيرا. «إنه لك. عودي إلى بيتك». نظرت إليه آدا وقلبها يخفق بالامتعاض والخوف.

«هيا، اذهبي!» قال جورج باينز يحثّها بغضب.

شدّت قلنسوتها ورفعت طرف تنورتها وغادرت المكان بسرعة.

كان الماوورين قطعوا مسافة بالبيانو وهم يتحدثون ويروون النكات الجريئة ليرفعوا معنوياتهم. مشت فلورا وآدا في المقدمة، وكانتا مهتمتين بكيفية نقل الآلة. كان الرجال قد غطوا البيانو ببطانيات وبدوا حريصين عليه وعلى السرعة في الوقت نفسه. آدا التي كانت تتجاذبها المشاعر أحست فجأة بسعادة عارمة، البيانو صار لها.

رأى ستيوارت المجموعة الصغيرة تتقدم عبر الأشجار. كان في طريقه إلى كوخ جورج باينز يريد القيام بزيارة غير متوقعة ليتفقد طريقة آدا في إعطاء الدروس لباينز. أحسّ بالإحباط وهو يلتقي بالبيانو في الغابة.

قال بلهجة آمرة: «توقفوا في الحال!» وهو يركض نحوهم «هذا البيانو ليس لكما...» قال لآدا وفلورا، توجه بكلامه إليهما كأنهما طفلتان. «ماذا تفعلان بالبيانو؟ هه؟»

تبادلت آدا وفلورا النظرات، وآدا لم تعرف كيف ترد. قالت فلورا بدلاً منها: «لقد أعطانا إياه». كان وجهها مشرقاً وبدت حائرة لأنه لم يشاركهما فرحتهما. ملامح آدا كانت مشدودة ولم

يظهر عليها أي انفعال. حدّقت فيه بثبات وكان من المستحيل عليه أن يفهم ماذا تخبىء وراء نظرتها.

اندفع ستيوارت نحو الماوورين وأمرهم قائلاً: «ضعوه أرضاً! ضعوه أرضاً!» ورجع قليلاً ليقول لزوجته بصوت منخفض وهو يشير إليها بيده: «مُنتهى البراعة يا آدا، لكنك كشفت نواياك. لن أخسر أرضي بهذه الطريقة». لم يفهم لماذا تصرّ زوجته على تنكيد عيشه بهذه الطريقة. وعاوده الإحساس بأن البيانو يكاد يكون لعنة على زواجهما. صرخ في الرجال وهو يمشي نحوهم بخطوات ثقيلة الوقع: «إلزموا مكانكم!».

كانت هيرا تجلس على درج الكوخ تراقب الباب قالت له: «جورج لا يريد رؤية أحد. إنه مريض». توقف ستيوارت واستند إلى الدرابزون الخشبي وهو يلهث. اقتربت منه هيرا تسأله: «معك tupeka لهيرا؟»

فهم ستيوارت أنها تريد تبغاً. قال لها «لا» وتجاوزها ليقف أمام النافذة. أدخل يده وأزاح الستارة جانباً وناداه قائلاً: «باينز».

كان باينز مستلقياً على ظهره وقد غطّى عينيه بذراعه.

قال ستيوارت: «باينز، لم تكن مضطراً للتخلي عن البيانو. سوف أتأكد بنفسي أنك ستتلقى تعليماً مناسباً، بواسطة الموسيقى المكتوبة وكل الوسائل الممكنة». كان يتوق إلى إصلاح الضرر الذي تسببت به زوجته بسلوكها الغريب الأطوار.

قال له باينز وهو يجلس على سريره بفتور: «لا أريد أن أتعلم». لم يكن على ما يرام.

ردّد ستيوارت: «لا تريد أن تتعلم؟»

«لا».

تريث ستيوارت. «وماذا عن اتفاقنا؟ أنا لا أستطيع أن أدفع لك ثمن البيانو إذا كان هذا قصدك».

«لا، لا أريد مالاً. أنا أعطيته».

قال ستيوارت بصراحة: «لا أعتقد أنني أريده».

ردّ باينز وهو يتوجه نحو المقعد: «أنا أعطيته لزوجتك».

قال ستيوارت: «آه، آه حسناً» شعر فجأة أنه غبي ومحرج أمام شهامة باينز. «حسناً، أعتقد أنها سترحب بذلك».

لم يعد يعرف ماذا يقول ـ من المؤكد أنه تهوّر في تفسير كلام فلورا بهذه السرعة. سلك أليسدير ستيوارت درب بيته وهو مرتاح لأن صفقة الأرض ظلّت كما هي. ثمانون فداناً ليست مساحة كبيرة، لكن الجدول الذي يجري في تلك البقعة مفيد جداً: إنه يحتاج الماء لريّ أرضه الأكثر انخفاضاً. والآن استعادت آدا البيانو بدون أن يكلفه ذلك شيئاً أو يتسبب له بأي ازعاج، لذلك اعتبر ستيورات أن الأمر قضي بنجاح تام. زوجته استرجعت البيانو، وهو لم يكن ضعيفاً؛ لم يخضع لرغبتها. إضافة إلى ذلك ربما يساعدها فرحها بالبيانو على معاملته بلطف أكثر. إنه يذكر من حين لآخر كيف وضع يده في يدها أثناء الاحتفال وتلك الذكرى تعاوده أحياناً وهو يعمل في الأرض أو هو يستعد للنوم. يدها الصغيرة والعزيزة والدافئة والرقيقة كانت في يده كحمامة صغيرة ناعمة تنبض بالحياة. إنه يتوق لضمّها بين ذراعيه، لكن هذا لايزال بعيد المنال ومن الأفضل ألا يفكر فيه الآن. لقد أمسك يدها وفرح بذلك، وهو الآن يتمنى فقط لو تسنح له الفرصة ليمسك بيدها ثانية.

أوصل الرجال البيانو إلى بيت ستيوارت سالماً؛ لكن ستيوارت الذي عاد مؤخراً من رحلته التموينية لم يكن في حوزته مال ليدفع إلى الماوورريين أجرهم. لم يجد عنده سوى مرطبان مليء بالأزرار، وكان الماوورريون في ما مضى يرحّبون بالازرار في مساوماتهم التجارية. لكن عرض الازرار اليوم أثار غضبهم.

صاح واحد منهم: «ضع الإزرار في مؤخرتك أيها السافل، لسنا أطفالاً». لكن باينز لم يفهم ماذا قال. وأخذ آخرون يصيحون بدورهم.

أجاب ستيوارت: «هذا كل ما أملك». وبدا مرتبكاً بالفعل. وقبل أن يفكر ماذا سيفعل كان أحد الشبان، تاهو، انتزع منه المرطبان وركض وهو يرفعه فوق رأسه. صرخ ستيوارت بدون جدوى «أرجع المرطبان!» وغادر الرجال بخطى ثقيلة وهم يغمغمون بغضب.

آدا التي لم تنتبه لما يحصل في الخارج، رفعت غطاء البيانو وبدأت تعزف مقطوعات قصيرة لتسمع رنين النغم وتتأكد أنه لم يصب بأذى.

دخل ستيوارت وأقفل الباب خلفه. سألها: «كل شيء على ما يرام؟ لماذا لا تعزفين لنا؟لا

ابتعدت آدا عن البيانو. لم تكن متحمسة لتعزف للرجل الذي عقد صفقة بالبيانو وحرمها منه. أشارت إلى فلورا لتجلس أمام البيانو، وفلورا فرحت بأنها ستعزف أمام جمهور. سألت بخجل: «ماذا أعزف؟»

التفت سيتوارت إلى آدا التي وقفت عند النافذة كأنها غافلة عما يجري وقال لفلورا: «اعزفي لحناً راقصاً».

www.9ofy.com

نظرت إلى أمها تسألها: «هل أعزف لحناً راقصاً؟» كانت آدا مستغرقة في أفكارها ولم تنتبه لابنتها.

قال ستيوارت: «اعزفي لحن أغنية تعرفينها ثم...».

بدأت فلورا تغني وتعزف لحناً اسكوتلندياً حزيناً. بعد الاستماع إلى العبارات الأولى توجهت آدا نحو الباب وخرجت. تملّكتها الرغبة بالابتعاد عن البيانو وعن كل ما يعنيه: باينز ورفضه المفاجىء، وزواجها المستحيل. شعرت أنها مشوّشة الذهن، وأن البيانو محور هذه التشويش. رآها ستيوارت تغادر الغرفة وهو يضرب بأصبعه على البيانو ليواكب إيقاع غناء فلورا. انتقل إلى النافذة ليتأملها وهي تمشي بين جذوع الأشجار المسودّة. توقفت فلورا عن العزف. أثارت آدا غضب ستيوارت بغموضها وعدم تجاوبها فقال: «لماذا لا تعزف؟ نعيد لها البيانو وهي تمشي في الخارج». لم تجبه فلورا، لأنها لم تشعر أنه يوجه الكلام إليها. هي أيضاً كانت حائرة ومنزعجة من سلوك والدتها. قال لها ستيوارت: «حسناً، تابعي العزف»، وأخذ يضرب بتجهّم على البيانو فيما واصلت فلورا عزف لحنها الجنائزي.

تمشت آدا وعلى وجهها علامات الكآبة والقلق. توقفت قليلاً والتفتت نحو البيت. رأت أليسدير واقفاً عند النافذة يراقبها. بدون أن تفكر، إلتفتت بعيداً ووجدت نفسها تسلك طريق بيت جورج باينز. نظرت بعيداً في الدغل، وكأنها بتركيز نظرها تستطيع أن ترى ما وراء الأشجار، وتعرف ما الذي يثير اضطراب قلبها هكذا. استدارت لتلقي نظرة إلى الأشجار المحرومة في أرض زوجها، ثم تابعت سيرها.

كانت آدا تعرف أن الطريق الذي تحملها إليه أفكارها مسدود.

جورج باينز ليس زوجها، ولم يعد حتى تلميذها. هي لا تملك سبباً يبيح لها زيارته. وأخذت تقارن بين أليسدير ستيوارت وجورج باينز على الرغم من أنها كانت تحاول أن تمنع نفسها من ذلك. كانت تشعر أحياناً أنها تعمل عند ستيوارت أكثر مما هي زوجة له؛ علاقتهما لا تزال رسمية وباردة. هل تستطيع أن تغفر له الآن بعد استرجاعها البيانو، وبعد انتهاء الصفقة الشهوانية مع جورج باينز؟ استدارت وهي تجاهد لتمنع نفسها من سلوك الدرب إلى بيت باينز. كانت متوترة ومضطربة ولم تعرف كيف تهدىء رغبتها. لفت ذراعيها حول خصرها تعانق نفسها بحزن وهي تروح وتجيء في الفسحة الجنائزية مقابل بيت زوجها.

نظرت آدا إلى البيانو وهي تتناول طعام الفطور في المطبخ. تسربت أشعة شمس الصباح إليه فتألق لمعان خشب الورد. توجهت إليه ومعها قطعة قماش لتمسح عنه الغبار، ثم مرّت بظاهر يدها على المفاتيح تربت عليها بلطف حميمي كالمعتاد. كأن البيانو كان مستودعاً مشاعرها وهي تحتاج لملامسته كي تعرف ماذا يدور في خاطرها رفعت أحد المفاتيح بأصبعها. حُفر إلى جانبه على الخشب قلب صغير اخترقه سهم وعلى طرفيه حرفاً «أ» و «د». هي التي حفرت هذه الإشارات بنفسها، منذ فترة طويلة. تركت المفتاح يرجع إلى موضعه وبدأت تعزف.

بعدما ارتاحت أصابعها على المفاتيح وانطلق اللحن أغمضت آدا عينيها وعزفت بإحساس متدفق فغمرت الموسيقى العذبة أرجاء بيت أليسدير ستيوارت. ثم توقفت فجأة، والتفتت إلى جنبها. لم يكن هناك من يجلس في الضوء الخافت ليستمع إليها. حاولت أن تبدأ من جديد، وأن تملأ الفراغ الذي انتابها، لكنها لامست

المفاتيح العاجية بيد واحدة، وأحست أنها عاجزة عن متابعة العزف. مكثت حائرة لا تقوى على الاستمرار ولا تقوى على النهوض. يد على الغطاء ويد على المفاتيح. آدا ماك غرات وصلت إلى مرحلة غامضة في حياتها؛ إنها أمام نقطة تحول يجب أن تجد حلاً لها.

بعد مرور وقت لم تستطع تحديده دفعت فلورا الباب تريد من آدا مرافقتها لرؤية الدجاجات.

تناولت آدا معطفها وقلنسوتها وقررت وهي تحت تأثير الصدمة أنها ستذهب إلى كوخ جورج باينز. تركت البيت في الحال ونبهت فلورا إلى أنها لا تستطيع مرافقتها. أسرعت الخطى على الدرب الضيّق، وكانت الرياح العاصفة تعبث بأشجار الدغل وتحركها بعنف. لحقت بها فلورا التي استاءت من تخلي أمها عنها. تعلقت الفتاة بتنورة آدات وأخذت تشدها وتصرخ: «انتظري! انتظري!» وكأنها كانت تعرف إلى أين كانت آدا ذاهبة ولماذا.

إلتفتت نحوها آدا وشدّت تنوّرتها من بين يديها وأشارت إليها تقول: «ارجعي. إياكِ أن تتبعيني!» كانت الطيور تغني على الأشجار فوقهما. مهما يحدث في هذه الأرض لا شيء يبدو أنه يزعج الطيور ويمنعها من مواصلة الغناء.

سألتها فلورا بإلحاح: «لماذا؟ لماذا لا أستطيع؟» أشارت إليها آدا: «عودي إلى البيت وحضري دروسك».

على مقربة منهما كان ستيوارت في هذه الأثناء يشق طريقه عبر الدغل مع تاهو الذي كان يساعده في ذلك اليوم. عندما سمع الصراخ توقف ورأى آدا تترك فلورا خلفها، والفتاة صرخت قائلة: «لن أتمرن ولا شيء يهمني!» رآهما بوضوح من مكانه.

لم تتوقف آدا لتستمع إلى شكوى إبنتها. توجهت فلورا إلى البيت وهي تضرب الأرض برجليها وتلوّح بيديها بغضب وتتمتم: «اللعنة، اللعنة! إنها سيئة، سيئة جداً! ليتها تقع على وجهها في وحل [illegible]لي! ليت الكلاب البرية تعضها حتى تنزف منها الدماء! لعينة! لعينة!...»

خرج ستيوارت من بين الأشجار ووقف أمامها فأخافها. نظرت إليه بعينين. اتسعتا من وقع المفاجأة، فسألها: «أين أمك؟ إلى أين ذهبت؟»

صرخت فلورا في وجهه غاضبة: «إلى جهنم!» واندفعت تعدو بسرعة كأنها توقعّت إنها ستلاحق وتعاقب على نزوتها.

مشى ستيوارت على الدرب الذي سلكته آدا وكان يستطيع أن يلمحها من بعيد ويرى أطراف ثوبها تعلو عن الأرض من سرعتها. كانت الرياح تزعج الأشجار وتجعلها تصمد وتحتك بأغصانها. تبع ستيورات زوجته التي كانت غافلة عن ملاحقته لها.

دفعت آدا باب الكوخ لاهثة دون أن تدق عليه. كان باينز مستلقياً على سريره غارقاً في سباته. نهض. وقفت آدا عند الباب غير قادرة على التحرك أبعد من ذلك. أقبل باينز نحوها وعيناه تطرفان من الخمول وبدا متحفظاً ومرتاباً إلى حدّ ما. سألها بلا مبالاة: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟» لم تأت آدا بأية حركة ولم تتغير معالم وجهها. «هل تركت شيئاً هنا؟» وتابع وهو يدخل قميصه تحت سرواله: «لم أجد شيئاً».

لم تتحرك آدا. نظرتها التي عكست تجاوباً غير مألوف ورحابة جديدة أيقظت باينز. «هل يعرف شيئاً؟»

هزّت آدا رأسها ومشت إلى حيث كان البيانو. وقفت هناك في

www.9ofy.com

المكان الفارغ ونظرت حولها كأنها تبحث عن مفتاح لأزمتها. جو الغرفة كان ثقيلاً ورائحة الأشجار الرطبة والمكسوة بالطحلب كانت نافذة.

«لم يتضرّر البيانو؟ وصل سالماً؟» أحنت آدا رأسها. لم يكن أيّ منهما يعرف ماذا يريد.

سألها: «هل ترغبين في الجلوس؟ أنا سأجلس» وجلس وهو يشرب من كأس وضعها على طاولة أمامه.

آدا لم تجلس ظلت واقفة بلا حراك. تحسّست حضوراً لباينز. في أعماقها خفق له قلبها. نظر إليها يبحث عن كلمات يقولها وقد فاجأه حضورها غير المتوقع وكذلك ما بدا عليها من رقة غير مألوفة.

قال كأنه يعاتبها: «آدا. آدا أنا تعيس». وسكت ثم أضاف: «لأنني أريدك. لأنني منشغل بك ولا أستطيع التفكير بشيء آخر. إنني أتألم». وفتح ذراعيه وهو يبتسم فجأة بانكسار: «أنا مريض من الشوق، لا آكل ولا أنام». نظر إليها وكان من الواضح لها أنه يعاني. «إذا كنت قد جئتِ وأنت لا تحملين أية مشاعر لي، فلتذهبي». بذل جورج باينز جهداً كبيراً ليقول ذلك، وحين لم يلمح أية استجابة على وجه آدا، قست ملامحه وقال لها: «اذهبي!» وأشار إلى الباب برأسه «اذهبي! اذهبي!» ثم وقف وتوجه نحو الباب ليفتحه لها.

لكن آدا لم تتحرك لأن اعتراف باينز اخترق قلبها وشلّ حركتها. لم تسمع من قبل مثل هذه الكلمات. كان جسمها يرتعش وصدرها يشتعل. أحست أنها يجب أن تتنفس ببطء شديد كي لا تشعل بألسنة اللهيب. لماذا لا يرى ما يصيبها؟ لماذا يطلب

منها الذهاب. إنها تكرهه لأنه أعمى، وتكرهه لما فعل بها، ولأنه تملك جسمها مرة تلو المرة. لقّن جسدها أحاسيس جديدة، ورغبات جديدة، حتى باتت لا تعرفه. وهو اليوم الذي جرّها إلى الكوخ على الرغم من كل ما تمسّكت به حتى الآن من كبرياء وإرادة، وعلى الرغم من رجاء ابنتها أيضاً.

لكن باينز لم ير ما تعانيه آدا. كان مقتنعاً أنها تعبث به بلا مبالاة أو شعور مما أثار غضبه. «هيّا، إذهبي!» قال ذلك بصوت مثقل بالانفعال وأضاف يصرخ: «إنصرفي!»

لسعتها كلماته فاقتربت منه بعينين امتلأتا بدموع الغضب. وصفعته بقسوة على خده. نظر إليها باينز مصدوماً. انهالت عليه آدا تضربه على كتفيه وتصفع وجهه. رفع ذراعيه ليحمي نفسه وبدا الارتياح والإشراق على وجهه وكأنها تبوح له بحبها. ذهلت آدا وتورد خداها؛ كانا في تلك اللحظة يقفان وجهاً لوجه، متماثلين، وكل واحد منهما تملكه شعور عارم بوجود الآخر. تلاقت نظراتهما وتوحدت لتعقد بينهما مودة؛ أحاط جورج آدا بذراعيه وهو شبه مخدّر كالذي يسير في نومه ويفتح عينيه ليجد نفسه في مكان لا يعرف كيف وصل إليه. كانت ترتعش والدموع انهمرت من عينيها. قبّل عنقها ثم حرّك رأسه لتلتقي شفاهما، وأخذا يتبادلان القبلات ويتلمس أحدهما الآخر بشفتيه وخديه وأنفه وعينيه وشعره. لم يكن هناك أي افتعال في رقتهما، كانت مشاعرهما تقود غرائزهما. ملامح وجه باينز كانت مشبعة بالتوق واللذة؛ وآدا تمسكت به كأنها تخاف أن يختفي. أخذ كل منهما ينزع ملابس الآخر يري أن يتحسس المزيد من جسمه؛ وتلاشى العالم من حولهما.

وقف أليسدير في الخارج يتأمل كوخ جورج باينز بارتياب؛ ألقى الكيس الذي يحمله معه إلى عمله على السلم، ولم ينتبه لنباح فلين. اقترب أكثر وسمع تنهيدة من الداخل. لم يكن يفكر في طرق الباب. توجه خلسة إلى جانب الكوخ وخلع قبعته. استرق النظر وهو يرتجف من فتحة بين لوحين خشبيين. رأى في الداخل جورج باينز وزوجته آدا ماك غرات.

كان جورج وآدا يعملان على فك الأشرطة والأربطة في ملابس آدا، وبدأت الأزرار تتطاير وحُرّرت قطع الثياب الموثوقة بإحكام. تبادلا قبلة، زادت حدة الرغبة فيهما؛ تملكهما شوق عارم واهتياج لم يعرفاه من قبل. تحسّس جورج سترة آدا ووقع على ركبتيه ليرفع تنورتها وطوقها ويدفن رأسه في رائحة جسمها. أغمضت آدا عينيها وتنهدت وتأوهت برقة. شدّ جورج جوربها إلى الأسفل؛ وترك يديه الكبيرتين الدافئتين على رجليها. مع كل لمسة كانت حمّى الرغبة تزداد فيهما.

أحسّ سيتوارت بثقل في حنجرته وتشوّش في ذهنه. ابتعد عن الفتحة وهو لا يزال يسمع تنهداتهما. كان مسحوقاً وممتلئاً بالغضب. ولم يعرف ماذا يفعل، فاقترب من الفتحة ثانية بدلاً من أن يدفع الباب ويضع حداً لما يدور في الداخل. تلك النظرة الثانية، نظرة الفضول، سلبته إرادته: مكث هناك مشلولاً ومقيداً ووحيداً.

رفعت آدا تنورتها لتخلعها. كانت وهي تنزع كل قطعة ثياب تشعر أن جلدها العاري يتكهرب من ملامسة الهواء الناعمة واللطيفة. وضعت يديها على رأس جورج تعبث بشعره وهو راكع أمامها. ابتسمت وهو يتحسس بوجهه بشرة ساقيها، وشفتاه ولسانه يبحثان عن حلاوتها. شدّته ليقترب أكثر؛ كل تلك الأحاسيس

الغريبة اجتاحت كيانها دفعة واحدة. تألق وجهها وهي تهز بنشوة قوية كادت توقعها.

أسند سيتوارت نفسه إلى الحائط أسير فضوله. لم ينتبه للكلب فلين الذي بدأ يلعق يده. رأى باينز يشدّ سروال آدا الداخلي ورأى رجليها عاريتين. فجأة أبعد يده عن الكلب ونظر إليه كأنه لا يفهم ما حدث؛ كانت رطبة باللعاب. مسحها على الألواح الخشبية وتابع مراقبته وهو عاجز عن التحرك من مكانه أو القيام بأية مبادرة.

داخل الغرفة الصغيرة كشفت ألواح الأرض والجدران القاتمة والخشنة حسن ورقة بياض جسمي آدا وجورج. حملها على ذراعيه ومشى بها ليضعها على سريره. كان الكوخ معتماً، لكنه رأى طريقه بواسطة الأشعة التي يتسرب عبر الشقوق والفتحات بين الألواح وتقاطعت أنفاسهما، وكل منهما مفتون بسحر شهوانيته. آدا أحست بجسمها في الخارج والداخل في الوقت نفسه وكأنها تهذي؛ غمرتها نشوة كانت ترتفع مع تدفق مشاعرها في كل عناق خصلات شعرها الأسود الطويل انسابت على خديها والتفّت حول رقبتها. تدفقت الدماء إلى خديها وتألقت عيناها حين لامس جورج بوجهه نهديها برقة وبطء وهو يستمتع برائحة جسمها المعسولة. مرت بيديها على ظهره العريض لتشد جسمه إلى جسمها، واستمرا كأنهما سكرا من السعادة يهتزان معاً كأن أمواجاً تتدافعهما. كان حين يقبلها يتحوّل نفسها إلى همسات منخفضة وأصوات رقيقة مما يضاعف إثارته فيقترب منها أكثر كي يتلاشى في نشوة مشاعره. كان يسألها بعذوبة: «ماذا؟ ماذا؟ ... إهمسي».

أليسدير سيتوارت لم يستطع التحرك، كان مأخوذاً بجمال

www.9ofy.com

زوجته المتألق وبفعل الحبّ الذي لم يعرفه أو يشهده من قبل.

وهو فوقها أحست بثقل جسمه المثير. كانا يتحركان معاً في انسجام كأن روحاً واحدة تسري في جسميهما ويجمعهما حب عميق وسعادة عارمة. أشعة الضوء النحيلة كشفت ضخامة جسم جورج مقابل ضآلة جسم آدا، وامتلأ عضلاته مقابل رقتها ونعومتها؛ وهو كان خائفاً من أن يسحقها لكنها شدّته إليها تعانقه بمنتهى الشغف والرغبة. وهكذا استمرا مسلتصقين، متقاربين أكثر فأكثر، غارقين معاً في عالمهما. مارسا الحب مراراً، في المرة الأولى دون وعي وباندفاع تبادلا الحبّ بإلحاح. تملكتهما أحاسيسهما الجنسية وحملتهما من أقصى درجات الإثارة إلى الهدوء الكلي، حتى تعبا وصار فعل الحب بطيئاً كأنه قبلة طويلة لا متناهية. فتح باينز أبواب قلبه وهو يبكي ويضحك، ممتلئاً حباً ورهبة أمام هذه الأنثى الرقيقة التي استطاعت أن تفتنه وتستنفذ قواه إلى هذا الحدّ.

جلس جورج على السرير يراقبها وهي ترتدي ملابسها. كان تعيساً يفكر في برودة الواقع مقابل حرارة تعاطفهما، وتمنى لو أن أنشودتهما تكون بلا نهاية. «ستذهبين الآن وأنا أشعر بالتعاسة. لماذا يحدث ذلك؟» اقتربت منه آدا ليساعدها في تزرير كُمّيها، تلك الحركة البسيطة والأليفة وسعت قلبه أكثر. «آدا، يجب أن أعرف، ماذا ستفعلين؟ هل ستأتين مرة ثانية؟»

آدا حملت سترتها وبدأت تجمع الأزرار التي وقعت على الأرض. كانت مشغولة البال تفكر في الوقت الذي مرّ وتريد أن تنتهي من ارتداء ملابسها لتعود إلى فلورا. لم تكن ترغب في الاستماع إلى أسئلة جورج؛ لأنها لا تملك الإجابة عليها. مدّت يدها لتلتقط الزر الأخير لكنه أفلت منها وضاع في أحد الشقوق.

أليسدير ستيوارت حشر نفسه تحت كوخ باينز في الزاوية المعتمة والمتعفنة التي اختبأ فيها فلين من معذبته فلورا. وقع الزرّ على رقبة ستيوارت وانحدر من قبة قميصه إلى ظهره. تنهد بصوت مكتوم كي لا يكتشف أحد مكانه.

قال لها جورج: «إنتظري، لم أعرف بماذا تفكرين». رتبت آدا شعرها بسرعة وشبكت بالدبابيس الخصلات التي أفلتت، وكانت بذلك تشد نفسها أكثر إلى أرض الواقع. سألها جورج برقة: «ألا يعني لك هذا شيئاً؟ آدا، أشعر الآن أنني مشتاق إليك». ومدّ ذراعه ليلف به خصرها: «هل تحبينني؟»

تريثت آدا وهي تفكر في سؤاله ونظرت إلى المرآة لتتأمل وجهها، لم تجد أي تغيّر أو علامة، مع أنها كانت تتوقع ذلك. بماذا شعرت عدا تلك السعادة العميقة وذلك التنبّه الداخلي والغامض؟ التفتت إليه آدا ببطء ثم رفعت قميصه وأخذت تقبل صدره كأنها تريد أن تمتلىء به بدلاً من الردّ عليه. حيّرته فتساءل ما إذا كان ذلك جواباً أم لا ـ انشغاله حال دون استمتاعه بقبلاتها. أبعدها قليلاً حتى يستطيع تبين ملامحها. قال لها بإلحاح: «تعالي غداً. إذا كان جوابك «نعم» تعالي غداً». غمرته بقبلاتها كأنها لم تكتفِ منه، وكأنها لم تذق جسد رجل من قبل.

- ٩ -

ظنت آدا أن أحداً لم يعرف سرّها، لذلك أمضت ليلتها مرتاحة ومبتهجة. سمحت لفلورا أن تسرح لها شعرها قبل أن تأويا إلى فراشهما. لكنها بدلاً من أن تجلس بهدوء كما تفعل عادة، قفزت آدا وبدأت تدور في الغرفة جذلة، تبتسم وتضحك بصمت، ووقفت فلورا على السرير وضحكت وهي تصرخ: «أمي! كفى! اهدئي!»

سمع ستيورات الضجة والقهقهة من الغرفة المجاورة، فشدّ على فكّيه وتصلبت رقبته. سرّح شعره المبلل بعناية بعد الاغتسال، وجلس يفكر بين الأوراق، لكنه لم يكن ينظر إليها. بعد قليل نهض وتوجه إلى باب غرفة نوم فلورا وآدا، اللتين كانتا تتقلبان على السرير وكان من الصعب التمييز بينهما وهما تمرحان معاً وقد أرخت كل منهما شعرها الأسود الطويل وارتدت قميص نوم أبيض اللون. لم يكن ستيوارت قادراً على التحكّم بغضبه، وهذا أثار خوفه؛ ماذا عساه يقول لزوجته الآن؟ صمت آدا حمله هو أيضاً على الصمت. تركهما تلعبان وخرج ليقطع الأخشاب في الظلام، حتى انطفأ نور المصباح في غرفتهما.

في اليوم التالي عندما رأت آدا ستيوارت يتوجه إلى أرضه لمواصلة مهمته التي لن تنتهي في وضع سياج على حدودها، أسرعت بطورها لمغادرة البيت دون أن تلفت انتباه فلورا التي كانت تلعب. أسرعت الخطى وهي تسلك الطريق إلى بيت جورج باينز وقلبها مترع بالشوق. كانت السماء داكنة والأشجار تتمايل بقوة. بدت لها الغابة فجأة حاقدة ولا نهاية لها.

توقفت آدا لاهثة لتلقي نظرة خلفها لتتأكد أن أحد لم يكن يتبعها ـ كانت تفكر في فلورا ـ وفي تلك اللحظة رأت أليسدير ستيورات ماثلاً أمامها. تراجعت آدا قليلاً. لم ترَ تلك النظرة على وجهه من قبل. عيناه لم تنظرا إليها مباشرة بل أحاطتا بها بانفعال وحشي انفعال يشوبه الغضب والنقمة والعناد. إنه يعرف وجهتها، وآدا فهمت من تعابيره أنه عرف أيضاً ماحدث هناك في الأمس. أخفضت عينيها ومشت بثبات حتى تجاوزته وتابعت سيرها كأنها لم تلتق به، وأخذت تسرع بتكبر وإصرار. لكنه تبعها ولحق بها وأوقفها بذراع واحدة وشدّها إليها يقبّلها بنهم وقد ضمّها إليها بقوة. قاومته ودفعته وانسلت من قبضته إلى الأسفل وأفلتت منه. ركضت، لكنها لم تستطع الهرب منه لم يساعدها الغاب القديم على ذلك. أمسك بها ستيوارت ثانية وجرّها بعيداً عن الشجرة التي تعلقت بها يائسة، شدّها بلا رحمة بكل قوته، وتشبثت هي بالغصن حتى عجزت عن الاستمرار مدة أطول. رماها على الأوراق والوحل وارتمى فوقها بوجهه المحتقن والغليظ الذي راح يضغط على وجهها البارد والشاحب. التقت نظراتهما، وفي هذه اللحظة من التردّد تمكنت آدا من دفع ستيوارت بعيداً عنها. حاولت أن تجلس لكنه رفع ثوبها وأدخل يده بالقوة بين رجليها وأخذ يمزق ثيابها الداخلية. تأوهت آدا وهي تلتفت إلى هذه الجهة وتلك

www.9ofy.com

وتقاوم زوجها وترفسه وتشد تنورتها إلى الأسفل وتحاول إبعاد يديه عنها لتمنعه من لمسها. زحفت تحاول الابتعاد لكنه أمسك بتنورتها وشدّها إليها كأنه بحار يسحب المرساة. أغصان النبات المعترش الكثيفة بدت لها كأذرع تمتد إليها لتقيّدها. كأنها ثعابين رمادية تلتف حولها وقد نسجت شبكة رهيبة بالتواطؤ مع الرجل الذي أحضرها إلى هذه الأرض.

ارتمى فوقها ثانية ولف خصرها بيديه الكبيرتين. صرخت فلورا وهي مقبلة نحوهما: «ماما، ماما». كانت مضطربة ودموعها تغطي وجهها وجناحا الملائكة يحيطان بيديها صرخت قائلة: «إنهم يعزفون على البيانو».

عندما سمع ستيوارت صوت الطفلة أرخى قبضته وترك آدا تنهض. نفضت وألقت عليه نظرة مذلّة جعلته يشعر لبعض الوقت إنه هو الآثم فأحنى رأسه وقد تملّكه الإحساس بالخزي. هدّأت آدا نفسها ومشت للقاء ابنتها.

في بيت ستيوارت تحلّق عدد من الماوويين حول البيانو. إبنة الزعيم نيهه كانت تحاول العزف وأخذت تضرب المفاتيح بقوة وتصدر ضجيجاً مزعجاً.

مشت فلورا خلف آدا التي كانت تسوي وضع قلنسوتها وتملّس تنورتها على الطريق إلى البيت. عندما وصلتا كان الماووريون يهمون بمغادرة المكان.

تبع ستيوارت زوجته لكنه لم يقل لها أو لفلورا شيئاً وتوجه مباشرة إلى كومة الحطب وبدأ يقطع ألواحاً. انزوت آدا في غرفتها ترتجف وتغطي أذنيها خائفة من الوضع الذي تسببت به. انهمك ستيوارت في تثبيت الألواح على النوافذ المقفلة مانعاً تسرّب القليل

من الضوء إلى الداخل. فلورا التي كانت لا تزال تضع جناحي الملاك التراخيين أعطت ستيوارت توجيهاتها من داخل البيت تريد مشاركته في عمله. قالت له: «بابا، هنا» ووضعت يدها حيث توجد فتحة نسيها. بدأت تناديه «بابا» بدون أن تنتبه. التفتت نحو أمها لترى ردّة فعلها، لكن آدا كدأبها في تلك الفترة لم تعرها اهتماماً.

أمضت آدا بقية ذلك اليوم مستلقية على سريرها تتفحص وجهها في مرآة صغيرة وهي ما تزال تبحث عن أي تغير أو علامة. وجه جورج تغير، لماذا لا يتغير وجهها أيضاً؟ استدارت إلى الجهة المقابلة ولمست خدّها وهي تحدق في المرآة قرّبت المرآة ببطء من فمها وقبلت صورتها مطوّلاً بحركة شهوانية غريبة.

تابع ستيوارت عمله بإصرار ووضع أخيراً مزلاجاً خشبياً على الباب من الخارج وأقفله حابساً آدا في الداخل.

بعد فترة اقتربت آدا من السرير وقالت لأمها تؤنبها: «ما كان يجب أن تذهبي إلى هناك. لقد أخطأت». واستدارت حول السرير وجلست بجانب والدتها. «أنا لا يعجبني ذلك، ولا يعجب البابا أيضاً». فتحت علبتها وتناولت مجموعة من أوراق اللعب. بدأت توزع الأوراق وتلقي بعضها على حضن آدا وأضافت: «نستطيع أن نلعب الورق معاً، إذا أردت». لكن آدا استدارت وأغمضت عينيها وضغطت جسمها ووجهها على الفراش كأنها تطلب الراحة. تأملتها فلورا، بدا وجهها الصغير فجأة أكثر نضوجاً بملامح الارتباك والاضطراب التي اعتادتها، فتساقطت الأوراق من يدها على السرير دون أن تشعر.

وهكذا أغلق عليهما ستيوارت النوافذ والباب وحوّل البيت إلى

سجن. أراد أن يعلم آدا درساً لن تنساه. رتّب الألواح، الواحد بعد الآخر، ومع كل ضربة مسمار كانت آدا تجبر نفسها على الابتعاد أكثر عن الحاضر حتى استغرقت في عالمها وانفتح أمامها ممر طويل من الذكريات.

بعد أسبوع من عناقهما لم تلتق آدا ماك غرات ديلوار هوسلر. احتاجت سبعة أيام لتستعيد ثقتها، وتتأكد أنها لن تخجل عند رؤيته. لم تكن لديها أية فكرة عن رأيه فيها، وهي من جانبها لم تكن مستعدة لتكشف له مشاعرها.

لم يحاول ديلوار هوسلر استدراج آدا لإخراجها من عزلتها؛ كان يعرف أن هذا لا يتناسب مع وضعه وخاف في الوقت نفسه أن يدفعها ذلك إلى الابتعاد عنه. عندما غادرت الغرفة في ذلك المساء، قبل أسبوع تركها تخرج دون أن يقول لها شيئاً. تلك القبلة غيّرته؛ لم تعد آدا بالنسبة له مجرد طفلة. رآها كما هي وليس كما يفترض فيها أن تكون. وجدها رائعة.

ظلت غرفة الموسيقى هادئة سبعة أيام خلال هذه المدة لم ينتبه ويستون ماك غرات لما يحصل. مرّ بعد ظهر يوم أمام الغرفة ولم يجد ديلوار وآدا في الداخل، لكنه سرعان ما نسي الأمر لأنه كان منشغلاً بأمور أخرى. كان المحامي بيرسلي قد وجّه إليه تحذيراً قاسياً في مستهل ذلك الأسبوع. قال له ينذره: «عليك تنظيم أوضاعك قبل فوات الأوان». تنهد ويستون بعمق قبل أن يردّ عليه بنبرته الساخرة المعهودة، أنه لأجل هذا يدفع أجر محام ومحاسب.

أمضت آدا معظم الوقت في غرفتها. كانت تصدّ بوقاحة كل الذين حاولوا الاطمئنان لحالها من العاملين في المنزل، تصرفها الطفولي هذا لم يكن مناسباً مع إحساسها المفاجيء بأنها صارت

شابة. بعد عدة ساعات من اليوم الأول في منفاها انتابها السأم وتناولت شغل الإبرة الذي تركته لتتسلّى. ستقدم ما تشتغله هدية لوالدها، ربما تعدّ شيئاً خصيصاً لديلوار أيضاً.

لكنها سرعان ما أبعدت الإبرة والقماش. أحست براحة أكبر وهي متمدّدة على السرير تتأمل الفضاء عبر النافذة وتحلم بديلوار هوسلر واللقاء به، وما من شيء آخر كان يعنيها.

بعد مرور أسبوع أحست أنها استعادت ثقتها بنفسها فتوجهت في الوقت المعتاد إلى غرفة الموسيقى. جلس ديلوار بجانب البيانو كما تعوّد أن يفعل لبضع ساعات كل يوم من ذلك الأسبوع. لم يعد يخرج في المساء وابتعد عن أصدقائه وحتى عن الموسيقى. كان حريصاً على تحاشي اللقاء بجوديت ماك دوغال التي صارت صورتها شاحبة وذابلة بالنسبة له.

وقف ديلوار بارتباك عندما انتبه لدخول آدا. ابتسمت له بتهذيب وبشيء من البرودة. اضطرب وتقدم ليمسك بيدها لكنه تريث وفضّل ألا يفعل ذلك. أحنت رأسها بتحفظ وأشارت إليه بأنها ترغب في الاستماع لعزفه.

كان عزفه سيئاً، أصابعه تعثرت وتداخلت الأنغام واختلطت. لم تسمعه آدا يعزف على هذا النحو من قبل، كان دائماً يعزف بإتقان، لكنها لم تظهر له استغرابها. كانت في أعماقها مسرورة بارتباكه، ولاحظت تورّد عنقه وخديه. مدت يدها لتلمس خدها فوجدته ما زال بارداً.

طلب منها ديلوار أن تعزف لكنها رفضت. كان يتوق للتحدث إليها، ليعرف شعورها، ويعتذر عن جرأته ويمر بيده على خدها. لكنه اكتفى بعزفه الحاد لشوبان. بعد حوالي ساعة لم يعد قادراً

www.9ofy.com

على الاحتمال. كان لا بدّ من المبادرة. إما أن يأخذها إليه أو يغادر الغرفة. وقف يضرب مقعد البيانو بقدمه، ثم غادر الغرفة دون أن يقول شيئاً.

تأملته آدا من نافذة الغرفة وهو يمشي في الحديقة ويتوجه إلى الجدول. جلست لتعزف بعد أن تأكدت أنه لن يسمع صدى أنغامها. عزفت لحناً ارتجالياً مستندة إلى ما تعلمته من ديلوار وجعلت البيانو يغني، حاملاً صوت أفكارها ومشاعرها.

التقى ديلوار وآدا بعد ظهر كل يوم في الموعد نفسه. مضى شهر وديلوار يعزف وآدا تستمع. عزفه لم يتحسن، لأنه كان منشغل البال بالتغير الحاصل في حياته، لم يعد ينعم بالهدوء وهو يعزف ولم يعد يعرف طعم الراحة. كان ينتقل من اليأس إلى البهجة ومن العمل إلى الركود ومن التوق إلى الوحدة في الجملة الموسيقية الواحدة. كانت النوتة المطبوعة تتراقص أمام عينيه أحياناً؛ لم يعد يعرف كيف يقرأ الموسيقى، كأن الموسيقى لم تعد تسمح له بقراءتها. حاول أن يعزف من الذاكرة، لكنه لم يكن مثل آدا يستطيع أن يرتجل الألحان.

أخيراً وافقت آدا أن تعزف بنفسها. جلست وبدأت تعزف لحناً لم يسمعه ديلوار من قبل. سألها عندما انتهت: «ما هذا؟ من هو مؤلف هذا اللحن؟» أربكه جهله لكنه أراد أن يعرف. هل كانت آدا تتمرن في غيابه؟

لكن آدا بالطبع لم ترد. لم تلمس علبة الأوراق الفضّية التي تدلت حول عنقها وواصلت العزف. ذلك اللحن كان من تأليفها. خطر لها في أثناء الليل وهي اليوم تعزفه دون تغيير أو تعديل. كانت خجولة لدرجة أنها لا تستطيع الاعتراف بذلك لديلوار.

فرحت باهتمامه وإحساسه بتقصيره الثقافي. كانت تعزف وهو جالس يستمع إليها بتمعّن.

عادت فترات لقائهما إلى نمطها السابق. ديلوار يعطي التعليمات ويعزف النماذج وآدا تراقب. تحذو حذوه. صارت علاقتهما رسمية للغاية يتعاملان بتهذيب وتحفظ وانتباه كأنهما رجعا إلى أيام لقائهما الأولى. كان ديلوار يتوق لكسر الحاجز الآخذ في الارتفاع بينهما. فهمت آدا ذهوله وارتباكه، لكنها لا تستطيع إعطاءه ما يريد.

لم تفكر آدا في الزواج من ديلوار هوسلر، وقبل عناقهما لم تكن تفكر في الزواج أصلاً. لم تكن قلقة بسبب رأي والدها في ديلوار، أو حتى فيها؛ لم يكن يهمها رأي أيّ كان. لكنها لم ترغب في التمادي في وضع يصعب عليها بعد ذلك استرجاع السيطرة على حياتها. أرادت أن تستمر الأمور كما كانت، قبل الآنسة ماك دوغال، قبل تلك الليلة، عندما كان العالم يعني بالنسبة لها نفسها وديلوار والبيانو فقط.

كانت مقتنعة أن اهتماماتها لا تتعدى هذا النطاق، لكنها بالطبع كانت ترغب في أمور أخرى. كانت تحلم بذراعي ديلوار تحيطان بها وبشفتيه الدافئتين تلامسان شفتيها؛ تلك الخيالات لم تكن قادرة على التحكّم بها.

كان ديلوار يظن أحياناً أنه ربما يكون مصاباً بالجنون. هل عناقه لها مجرد وهم، أو خيال، أو رغبة من ابتكار مخيلته؟ أتى رفاقه لزيارته وحاولوا إثارة حماسه لتنظيم الحفلات الموسيقية ثانية، لكنه لم يتجاوب مع إصرارهم. كان يمشي لساعات طويلة في الصباح ينتظر موعد لقائه بها بعد الظهر. كتب لها رسائل لم يرسلها؛ وحضّر كلمات لم تسمعها منه أبداً.

ديلوار لم يكن رجلاً عملياً، بل كان على العكس من ذلك رومنطيقياً. لم يكن يفكر ويخطط كيف يجعل آدا ملكاً له بالزواج. ولم يكن يتدرب على تمثيل أدوار أمام ويستون ماك غرات فهو لم يطلب منه مثلاً الحصول على مال من أختيه لتأسيس منزل له ولابنته. لم يكن يفكر بالزواج مثل آدا. هي تلميذته وهو أستاذها. هذه الهوة لا يمكن ردمها. علاقتهما غير قابلة للتغيير.

خطرت له فكرة، أخيراً. أرسل إلى لندن يطلب مقطوعات موسيقية جديدة وأعطى الفاتورة إلى ويستون. وصلت أوراق النوتة المطبوعة في صباح أحد الأيام. حملها إلى غرفة الموسيقى وأخذ يروح ويجيء منتظراً حضور آدا.

حيّاها عند دخولها وكان هادئاً ومتحفظاً كالعادة. «عندي لك موسيقى جديدة. إنها تدعى فانتازيا لشوبيرت». نظرت إليه آدا باستغراب. كان ديلوار يطلب غالباً مقطوعات موسيقية جديدة لكنه لم يكن يعطي الأمر هذه الأهمية من قبل. جلست على المقعد مقابل البيانو وهو عرض الأوراق أمامها متباهياً. حدّقت آدا في الخطوط الأفقية التي دوّنت عليها الموسيقى؛ كانت العلامات الموسيقية مدوّنة بطريقة غير مألوفة. اعتقدت آدا في الفترة السابقة أنها تعلمت قراءة الموسيقى، وشعرت باعتزاز لما أحرزته من تقدم في مجال الدراسة النظرية. لكن ما تراه أمامها الآن مختلف تماماً عما تعرف.

قال لها ديلوار مبتهجاً بانتصاره: «هذا لحن ثنائي!» نظرت إليه آدا وقد تغيرت ملامحها واتسعت عيناها. «إنه موضوع لأربع أيد. أربع أيدٍ تعزف معاً». أعادت النظر إلى العلامات الموسيقية فوجدتها أكثر وضوحاً. تابع يقول وهو سعيد بفكرته: «رائع أليس كذلك؟ ستتعلمين كيف تعزفينه معي. هذا تحدّ يخوضه معظم العازفين، إنه يساعد على التوصل إلى عزف أفضل وأكثر غنى».

توجه ديلوار إلى المقعد وجلس بجانبها. كان المقعد بالكاد يتسع لهما معاً. ابتعدت عنه آدا قدر الإمكان، لكنها انتبهت أنها عندما أفسحت مجالاً يفصل بينهما اقترب ديلوار والتصق بها، وأخذ يضغط بجنبه الأيمن على جنبها الأيسر. لم تعد قادرة على الابتعاد أكثر لأن هذا سيمنعها من العزف بحرية. وقفت لتحضر كرسياً، لكن ديلوار الذي فكّر بهذا الاحتمال قال لها: «الكرسي منخفض بشكل غير مناسب». وأضاف وهو يربت على المكان بجانبه: «سنكون بعيدين جداً ـ ولا تعود المفاتيح في متناول يدك».

وهكذا جلست آدا بجانبه ورضخت لرغبته في فرض وصايته، ولم تكن تفكر بأكثر من ساقه الملتصقة بساقها. عندما حرّك قدمه تحركت رجله على رجلها. أحسّت بالدماء تحتقن في خديها؛ بذلت جهدها لتحافظ على هدوئها.

كان اللحن الأول مرضياً، وهو كمعظم الألحان الثنائية يميل إلى الحزن وإلى الخيال الرومنسي، وهو موضوع ليصل بالصوت إلى معدّل لا يستطيع الوصول إليه العازف المنفرد. عزفا ببطء في البداية، لأن الواحد منهما لم يكن متآلفاً مع إيقاع الآخر. وكان استخدام بندول الإيقاع ضرورياً لضبط الإيقاع. مضى أسبوع وديلوار يأتي بلحن ثنائي جديد كل يوم؛ ألحان عسكرية وفالس وسيمفونيات لبيتهوفن وموزارت كلها موضوعة لأربع أيدٍ، ولم يعد يعزف مع آدا ألحاناً أخرى. انتبه العاملون في المنزل لما يجري وأخذوا يعلقون ويضحكون ويسترقون النظر إليهما وهما يعزفان.

www.9ofy.com

لكن وقع الموسيقى كان مكتملاً وعذباً وويستون ماك غرات عبّر عن إعجابه بالأستاذ والتلميذة وبكفاءتهما الموسيقية.

اغتاظت آدا في البداية مم اعتبرته حيلة من ديلوار هوسلر. البيانو ليس آلة يعزف عليها اثنان، هذا أمر سخيف. كانت دائماً تجد متعة كبيرة في الإحساس بالأنا الذي يعطيها إياه البيانو. لكنها تحب الموسيقى وهذا تحدّ جديد في العزف، وبدون القيام بمحاولة فعلية أدركت أنها لن تستطيع مقاومته. بعض الألحان كانت جميلة للغاية. بعد فترة من التمرين بدأت تستغرق في العزف مجدداً. والإحساس بالعزف، والعطاء الكلي المتآلف مع عطاء الآخر، كانا بمثابة تجربة رائعة. أربع أيد تتوصل بالفعل إلى تكوين صوتي منسجم لا تستطيع التوصل إليه يدان فقط، كما قال ديلوار. شعرت آدا بأن تحفظها يتلاشى ويذوب كالأملاح التي تضاف إلى مياه الإستحمام الساخنة لتتحول إلى نعيم. شعرت أنها قريبة من ديلوار هوسلر، قرّبتها إليه الموسيقى وازدادت الآن اقتراباً بسبب تلامس جسديهما. شعرت أن عالماً جديداً بدأ يتكشف لها؛ انتابها فضول غريب ونادر، ولم تكن خائفة. إنها فتاة متميزة، مختلفة عن الصورة المألوفة في عصرها، لكن ديلوار لم يرَ ذلك فيها. رآها شابة صغيرة ناعمة، عيناها داكنتان معبّرتان وعندها شغف غير اعتيادي بالبيانو.

تسللت آدا ذات ليلة إلى غرفة الموسيقى بعدما أوى الجميع إلى غرف نومهم. رفعت غطاء البيانو وانتزعت مفتاحاً من لوحة المفاتيح ثم وضعت الشمعة بجانبها وجلست تحمل التي جلبتها من غرفتها وأخذت تحفر على جانب المفتاح ما تصورته تعبيراً عن مشاعرها، وعندما انتهت أعادت المفتاح إلى مكانه بعناية. شعرت

آدا أنها منسجمة مع ديلوار؛ وقد خطر في بالها أحياناً أنه يستطيع قراءة أفكارها. إنه بمعنى ما كان يستطيع قراءة أفكار آدا ولكن فيما يتعلق بالموسيقى ولم يكن ذلك على نحو استثنائي وفي جميع الأمور تصوّرت آدا.

بعد بضعة أشهر، في ليلة عيد الميلاد، تلقى ديلوار هوسلر وعائلة ماك غرات دعوة لحضور حفلة موسيقية خاصة في أبردين. بعد فترة من التردّد قرّر ديلوار حضور الحفلة وعرض الأمر على آدا ووالدها. لم تتحمس آدا للذهاب لأنها لا تريد رؤية ديلوار بين رفاقه مجدداً بعدما استطاعت الاحتفاظ به لنفسها فترة طويلة، لكن ويستون وافق وآدا أحست أنها مجبرة على المشاركة. والدها لم يكن في حالة جيدة في الفترة الأخيرة فتصورت أن الأمسية سترفع من معنوياته. وهي بالطبع لا تريد أن يحضر ديلوار الحفلة بدونها.

لكن ويستون آثر عدم الخروج ليلة الميلاد وأوى إلى غرفته كي يستطيع حضور العشاء التقليدي. وهكذا خرجت آدا مع ديلوار بدون مرافقة الأب الذي منحهما الموافقة.

غصت القاعة بالحضور كأن معظم سكان أبردين كانوا هناك، وكان العزف رائعاً. خرجت آدا وديلوار بعد نهاية العزف مباشرة. لم يقل ديلوار شيئاً لآدا لكنه فضّل التهرب من أصدقائه والاستمتاع بهواء الليل البارد والمنعش وذراع آدا في ذراعه. إنسحبا بعيداً إلى الشوارع المرصوفة بالحصى قبل أن يعترض أحد طريقهما.

في البيت كان كل شيء هادئاً. ويستون نائم في غرفته في الجهة المقابلة، والعاملون في إجازة يمضون تلك الليلة مع عائلاتهم. وقف ديلوار في المدخل كأنه سينهي اللقاء بأن يتمنى لآدا ليلة طيبة، لكنها شدته بذراعه قبل أن يتكلم وقادته إلى غرفة الموسيقى.

فتشت بين الأوراق وأعطت ديلوار لحناً يعرف أنها تحبه، وأشارت إليه بأنها تريده أن يعزفه لها.

جلست آدا على مقعد بجوار البيانو وأغمضت عينيها. بدت جميلة في ضوء المصباح، وجهها هادىء وبشرتها الشاحبة تألقت من الضوء الذي انعكس عليها من زجاج النوافذ ومن بين بريق زينة الميلاد ومن التماع خشب الورد الذي صنع منه البيانو. تأملها ديلوار مطوّلاً ثم بدأ يعزف.

حملت الموسيقى آدا إلى عالم آخر حيث كل شيء له نعومة الحرير وحيث تنعم الغرف الصغيرة بالدفء ليلاً. الموسيقى جعلت قلبها يغني، وأنفاسها تتسارع وامتلأت بالشوق لشيء ما لم تعرف التعبير عنه.

كان ديلوار يراقبها وهو يعزف. عندما انتهى فتحت عينيها وابتسمت. قال لها: «الآن دوري لأختار». أختار اللحن الثنائي الأطول والأكثر إثارة للمشاعر بين الألحان التي تعلماها في المدة الأخيرة.

جلست آدا بجانبه، وعندما أحسّ بها بقربه تنفس بعمق وامتلأ كيانه برائحتها. عزفا اللحن مرة واحدة، وكان العزف مكتملاً بإيقاعه وقوته وإثارته لأحاسيس لم يكتشفاها من قبل. ثم جلسا صامتين وصوت الموسيقى مازال يتردّد في أرجاء الغرفة. ثم استدار الواحد منهما نحو الآخر، وارتمى بين ذراعيه. نهضا متعانقين وديلوار دفع مقعد البيانو بعيداً.

في بيت أليسدير ستيوارت مشت آدا في نومها. انتبهت فلورا لأمها فتبعتها. توجهت آدا إلى البيانو، وجلست وبدأت تعزف. خصلات شعرها انسابت بحرية على ظهرها، وقميص نومها كان

رقيقاً. كانت الموسيقى ملحّة وعالية وقوية، وراحت آدا تعيد النغمات نفسها مرة تلو الأخرى في منظومة متوترة وصاخبة ليست لحناً بالمعنى الفعلي للكلمة.

انكبت على العزف وقد أحنت رأسها وكتفيها وكانت بالكاد تلتقط أنفاسها، ويداها تتماوجان بثقة على لوحة المفاتيح كأنها في حالة اليقظة.

أيقظت الموسيقى ستيوارت، الذي نهض في الحال وحمل المصباح إلى غرفة الجلوس حيث وجد آدا تعزف وفلورا تقف بجانبها.

قالت له فلورا: «انظر، إنها نائمة» ومرّت بيدها أمام وجه أمها كأن أمها عمياء. واصلت آدا العزف بهدوء نسبي وكأنها في نومها سمعت صوت فلورا فأحست بالطمأنينة. قالت فلورا لستيوارت: «ذات ليلة» وتابعت بصوت منخفض ومشبع بسحر التأليف: «وجدوها في ثياب النوم على الطريق إلى لندن. قال جدي أن قدميها أصيبتا بجروح كثيرة لدرجة أنها لم تستطع المشي لمدة أسبوع».

وضع ستيوارت المصباح على ظهر البيانو وانحنى ليتأمل وجه زوجته المغلق، وخطر في باله أن حالتها هذه ربما تفسر سلوكها وهي مستيقظة. وقف ستيورات وفلورا يراقبان آدا مأخوذين بعزفها الذي لم تستطع مقاومته، إلى أن توقفت أصابعها ونهضت وحدّقت كأنها رأت شبحاً ثم تركت ابنتها ترافقها إلى السرير.

نامت آدا في سريرها ورأت جورج في نومها. رأته يحيط بها بذراعيه وقبلاته وعناقه. اقتربت منه في النوم وضعت يدها على ظهره وألقت برأسها على صدره. سمعت جورج يئن وأحست به يتحرك نحوها.

www.9ofy.com

استيقظت آدا فجأة، وصدمت عندما تبين لها أن الجسم الذي داعبته بحنان كان جسم ابنتها. تملكتها رغبة قوية جعلتها تنهض من سريرها وتتوجه إلى غرفة نوم زوجها.

جلست قربه وهو مستلق على ظهره دون أن توقظه. نام قبل أن يطفىء المصباح الذي غمر الغرفة بضوء أصفر هادىء وخافت. لم تره نائماً من قبل، بدا لها مسالماً وهو ينام بارتياح، أكثر منه عندما يكون مستيقظاً. رفعت يدها فوق وجهه بتردّد ثم لمست بشرته الناعمة، ومرت على جلده الخشن بسبب شعر ذقنه ثم عادت إلى بشرته الناعمة ثانية. فتح ستيوارت عينيه. نظر إلى زوجته بلهفة مستغرباً وجودها بجانبه؛ وحين تابعت آدا تحريك يدها إلى أسفل عنقه ومرت بلطف على حنجرته، ورفعت يدها ببطء تحت قميصه، همس اسمها «آدا»، وأغمض عينيه.

ماذا كانت تفعل هناك في تلك الليلة بعد كل الذي رآه في كوخ جورج باينز؟ آدا ماك غرات ما زالت تشكل لغزاً كبيراً بالنسبة لأليسدير ستيوارت؛ إنها لا تبدي تجاوباً أو حتى تفكر كالنساء القليلات اللواتي عرفهن. إنها مختلفة، تكاد لا تكون من البشر كما خطر في باله أحياناً. عندما لمسته زوجته أحس بمشاعر متناقضة تتجاذبه. كان يريدها أن تستمر، ويريد ما حصل عليه جورج باينز، لكنه كان مشدوداً إليها ومُبعداً عنها في الوقت نفسه.

لم تعرف آدا ماك غرات ما الذي دفعها إلى سرير زوجها في تلك الليلة. لأنها سجينة في البيت ـ حيث لا أحد يدخل أو يخرج إلاّ بإذن ستيوارت ـ وجدت أنها مضطرة لتهدئة ذلك التوق الداخلي وتلك الرغبة اللذين تحركا مع جورج باينز والتقاء جسدين.

أغمض ستيوارت عينيه كي لا يفقد اللحظة سحرها، أزاحت آدا الغطاء عن جسمه ثم رفعت قميصه بهدوء وكشفت عن صدره وبطنه، تنفس ستيوارت بعمق. مرّت بيديها على صدره متحاشية عينيه كي لا يرى النشوة على وجهها، كأن رغبتها أفاقت ولن تعود إلى هدوئها قبل أن تبلغ غايتها.

اغرورقت عيناه بالدموع وهو ينظر إلى وجهها كطفل تعلّق بها بعد حلم مزعج بخوف وثقة. استمرت آدا في تلمس جسده كأنها طبيب يعالج جراحه بالبلسم الشافي؛ وبكثير من الرقة والإنتباه أنزلت يدها إلى بطنه. اقشعر جسمه وارتعش. لم يعد قادراً على التحمل، مدّ ذراعيه نحو زوجته وهو يجلس في السرير. لكنها انتفضت وابتعدت عابسة كأنما خاب أملها. تركت الغرفة وعادت إلى سريرها بدون أن تعطي أي تفسير لأفكارها أو مشاعرها.

عندما أتت العمة موراغ ونيسي لزيارة العائلة، ومعهما هني وماري، فوجئتا بتحصين البيت على هذا النحو. كانت آدا وفلورا تجلسان إلى طاولة المطبخ تلعبان بالورق، وكانتا شاحبتين كالنبات الذي حرم أشعة الشمس. أليسدير ستيوارت لم يسمح لهما بمغادرة البيت ذلك الصباح.

سألته موراغ باهتمام: «أليسدير هل هذا بسبب المسرحية؟ هل ضايقك أحد من السكان المحليين؟» كان ستيوارت يحمل بعض الحطب إلى الموقد متابعاً عمله الاعتيادي. توجهت موراغ إلى الباب وتابعت تقول: «أعتقد أنك أخطأت هنا». وأشارت مضيفة: «أنت وضعت المزلاج في الخارج، وعندما تغلق الباب...» وأغلقته «الماووريون هم الذين يحبسونك في الداخل؛ حين وضعت المزلاج في الخارج أوقعت نفسك في الفخ».

أحنت نيسي رأسها بجدية وقالت: «... أوقعت نفسك في الفخ». هيني وماري جلستا في زاوية تتفحصان لعبة لفلورا. كانتا منهمكتين ولم تنتبها لحديث الباكيها. وقف ستيوارت خلف آدا وفلورا بصمت وترك موراغ تتابع حديثها.

تقدمت موراغ إلى الطاولة وأزاحت الغطاء عن السلة المليئة بالملابس وأنواع الأطعمة التي حملتها كهدية لأفراد الأسرة. قالت موراغ: «كنا في زيارة لجورج باينز، يبدو أنه سيرحل في وقت قريب». رفعت آدا عينيها عندما سمعت ذلك وأصغت لما ستقوله موراغ. لم يكن شعرها مجدولاً وحتى ثوبها لم يكن مرتباً، وموراغ رأت قلّة اكتراثها بمظهرها. «رحيله ليس أمراً غريباً، صلته بالمحليين عميقة جداً. إنهم يجلسون في بيته كالملوك لكنهم لا يعرفون الحد الأدنى من اللباقة».

ردّدت نيسي: «... الحدّ الأدنى من اللباقة».

قالت موراغ: «يبدو متغيّراً، كأنه تعرّض لسحر ما. سيرحل اليوم أو غداً» أخرجت موراغ البسكوت وقطع الحلوى الصغيرة وبدأت بوضعها في أطباق على الطاولة.

ظلت ملامح آدا خالية من أي تعبير لكنها ازدادت شحوباً. وقفت ومشت إلى البيانو.

قال ستيوارت بصوت أجش: «باينز يحزم أغراضه إذاً»، كلماته حملت الكثير من المعاني لآدا التي كانت تجتاز الغرفة. قالت موراغ: «ليس عنده ما يحزمه، لكنه سيرحل». تناولت نيسي محرمة لتجفف عينيها وأنفها. تابعت موراغ قائلة: «وهذا أفضل لأن نيسي بدأت تتعلق به بغباء... بكت عدة مرات لأجله». تغضّن وجه نيسي وأخذت تبكي وتتنهّد. قالت لها موراغ بإصرار:

«كفى!» ونيسي استمرت في البكاء. «كفى! كفى!» أطاعت نيسي الأمر واستعادت السيطرة على مشاعرها.

توجهت آدا بصمت وثبات إلى البيانو وهي تأمل في تهدئة مشاعرها وإخفاء اضطرابها. حين بدأت تعزف قالت موراغ لستيوارت: «أعتقد أنني خائفة قليلاً من طريق العودة، يجب أن نعود قبل الظلام. هل تعتقد أننا سنكون في أمان؟»

كان عزف آدا مضطرباً في البداية لكنها سرعان ما استغرقت فيه. حملها البيانو بعيداً عن الغرفة المغلقة، إلى جورج باينز.

طمأن ستيوارت عمته آملاً في حثّها على الذهاب مع رفيقاتها، قال لها : «أجل، إذا ذهبتن الآن أنا واثق من ذلك».

تريثت موراغ ونيسي قليلاً للاستماع إلى عزف آدا التي انحنت فوق البيانو مأخوذة بالموسيقى وبعيدة عن كل شيء حولها. كانت آدا محط أنظارهما وقد أثارت انتباههما باللحن الذي تعزفه وباندماجها المتميز. على الرغم من أنهما تعرّفتا إلى آدا وإلى تصرفاتها غير المناسبة برأيهما، لكنهما لا تزالان تجدان ما يدهشهما في سلوكها. تأمل ستيوارت زوجته وهو يفكر فيما حدث أثناء الليل فاضطرب وتملكه الشوق إليها.

في الطريق إلى البيت لم تستطع العمة موراغ الكفّ عن الحديث عن المشهد الغريب الذي رأته في بيت ابن أخيها. «أليسدير تغير كثيراً منذ وصولهما، تغيّر كثيراً». وهزّت رأسها وهي تفكر في حالته. آدا ماك غرات لا تشبه سائر الزوجات الشابات اللواتي يصلن إلى هذه البلاد. إنها غريبة الأطوار، هذا أمر واقع. إنها خرساء، وتعزف البيانو بطريقة مميزة ولها طفلة. كانت العمة موراغ على الرغم من إنسانيتها المسيحية لا تزال حائرة بشأن ابن

www.9ofy.com

أخيها الذي رضي أن يتزوج امرأة لها طفلة ليست منه، وهي أيضاً بدون أب معروف. ومع ذلك توقعت أن تنعكس بالخير عليه، لكن العائلة كلها كانت تعيسة على ما يبدو.

في منتصف الطريق قررت موراغ أنها بحاجة للتوقف قليلاً. نيسي وهيني وماري وقفن يراقبن الطريق ويحملن بطانية يحطن بها موراغ ليساعدنها على تأمين خلوتها. كانت الرياح قوية والبطانية تطايرت من كل جانب. انخفضت إلى الأرض وتنورتها انتفخت من حولها؛ قالت موراغ: «أنا أفكر بالبيانو. إنها لا تعزف كما نعزف يا نيسي».

أخذت البطانية تهبط عندما بدأت الفتاتان بمتابعة الحديث. صرخت فيهما موراغ «ارفعا البطانية!» وتابعت تقول: «إنها مخلوقة غريبة وعزفها غريب، كالمزاج الذي يتملك المرء». مرة ثانية هبطت البطانية. «ارفعا البطانية! أنتِ يانيسي تعزفين بأسلوب بسيط ومباشر وهذا ما يعجبني». أحنت نيسي رأسها وابتسمت. «وجود مثل هذا الصوت الداخلي ليس مريحاً».

علا صوت رفرفة في الجوار. سألت موراغ هامسة: «ما هذا؟».

نيسي نظرت إلى الأمام وصرخت. لم تنتظر حتى تنتهي العمة موراغ من تدبير أمرها، فجمعت البطانية وأسرعت تبتعد.

قالت هيني بنبرة واثقة: «إنها مجرد حمامة يا عمتي». «آه» قالت العمة موراغ وهي تسرع خلف نيسي باسيتاء: «كان يجب أن أنتظر قليلاً».

لم يكن ستيوارت نائماً عندما دخلت آدا ماك غرات إلى غرفته تلك الليلة. قال لها هامساً «كنت أنتظر». أشعة الضوء المتسربة من

مصباح أعطت وهجاً دافئاً. بدأت آدا تداعب رقبة زوجها وتبعد خصلات شعره عن جبينه وهو مستلق على السرير. كان وجهه لطيفاً. لامسته بلطف كأن وعيها لم يكن يتعدّى الإحساس الذي تنقله رؤوس أصابعها. ضغط ستيوارت على نفسه وهو يحاول المحافظة على سكونه، فهو لا يريد إجفالها ولا يريدها أن تذهب. رفعت آدا قميصه إلى الأعلى ولمست ظهره، رقتها المباشرة كانت مؤلمة ومغرية في الوقت نفسه. بعد قليل أحس بأنها تدفع برفق ثيابه الداخلية إلى الأسفل وتكشف عن ردفيه. حبس أنفاسه وقد أذهلته وأثارته بتصرفها، وراحت تمر بيدها بحركات دائرية كأنها تداعب طفلاً. شدّ ستيوارت بعصبية ملابسه ورفعها ليغطي ردفيه. ابتعدت آدا قليلاً لتتركه يرتاح ومن ثم عاودت القيام بتجربتها، أرخت قبضته التي شدّ بها على ملابسه، ودفعت الملابس بطريقة منظمة وبدت منهمكة بذلك. وكان هذا سبب انزعاج زوجها؛ أحس أنها تلمسه إرضاء لرغبتها هي.

بدأت تمتد ردفيه مجدداً، وتمر بيدها بلطف حولهما. حركتها هذه شوّشته؛ شعر أنه ضعيف، لا حول له، ولا أمل أيضاً. ومرة ثانية تملكه إحساس تمازج فيه الغضب والحرج والشبق. رفع ملابسه وابتعد عن آدا وجلس عند الجهة المقابلة من السرير يدير لها ظهره. راقبت آدا تراجعه بهدوء.

«أريد أن ألمسك» قال لها بصوت منخفض وتنفس متسارع: «لماذا لا أستطيع أن ألمسك؟ ألا أعجبك؟»

نظرت إليه آدا من الطرف المقابل وكأنها تنظر إليه من مسافة لا يمكن تجاوزها. أشفقت على حالته البائسة، حتى أنه حرّك مشاعرها، لكنها أحست أنه لا صلة لها به.

إنتابته موجة من الخيبة والإذلال المحموم حين نهضت آدا غرات وتوجهت إلى غرفتها.

- ١٠ -

أيقظت أشعة الشمس آدا وفلورا، وكذلك صوت ستيوارت في الخارج وهو ينتزع الألواح عن نافذتهما. عندما أفاق من نومه المضطرب قرّر أنه لم يعد قادراً على سجن امرأة وطفلة مهما كان زواجه تعيساً. وضعت فلورا جناحي الملاك وأسرعت إلى الخارج في قميص النوم وهي تنتعل جزمتها الولنغتونية الطويلة، وأخذت تطارد الدجاج فرحة بضوء الشمس. تعالى صياح الديكة فيما ارتدت آدا ملابسها وجدّلت شعرها وثبتت ضفائرها بالدبابيس.

دخل ستيوارت بعدما أنهى تفكيك تحصيناته. قال لآدا وهو يخفض رأسه: «يجب أن نتابع حياتنا كالمعتاد. قررت أن أثق بك وبأنك لن تغادري البيت، ولن تقابلي باينز». جملته الأخيرة قالها بنبرة تراوحت بين التساؤل والأمر. نظر إليها بحذر، وهو مصرّ على رؤية زياراتها الليلية من منطلق إيجابي. نظرت آدا بدورها بثبات وهزّت رأسها. «حسناً» قال وهو يجلس بالقرب منها «حسنا». واستدرك، ثم سألها: «ربما تميلين إليّ مع الوقت؟» لم تنظر إليه آدا ولم تشر له بأنها موافقة. تناولت مرآتها الصغيرة لتتأكد من ترتيب شعرها.

www.9ofy.com

غادر ستيوارت البيت وهو يحمل عدة تركيب السياج وطعاماً يكفيه طيلة اليوم. وقفت آدا عند النافذة تراقبه وهو يبتعد. عندما انعطف عن الدرب ولم تعد تراه مشت إلى البيانو. رفعت الغطاء وانتزعت أحد المفاتيح العاجية من مكانه. ثم جلست إلى الطاولة التي حفرت عليها منذ أسابيع طويلة لوحة المفاتيح، وتناولت إبرة أحمتها في لهب الشمعة وكرّرت ما حصل منذ حوالي عشر سنين، حفرت جملة على جانب المفتاح: «عزيزي جورج، أنت تملك قلبي». كلمات ساحرة موجهة إلى رجل لا يعرف القراءة من امرأة لا تتكلم. ووقفت على الكلمات المنقوشة: «آدا ماك غرات». ثم لفّت المفتاح الغالي في قطعة قماش زينتها بشريط حريري أخضر. كانت آدا مقتنعة تماماً بأن باينز سيفهم رسالتها.

حملت الرزمة وخرجت إلى حيث كانت فلورا تلعب. نصبت الطفلة حبل غسيل صغير وانكبت على غسل ثياب لعبتها في دلو من الماء البارد. كانت تتحدث مع لعبتها بصوت مرتفع وهي تعمل: «اهدأن ـ ستبقين عاريات حتى أنتهي من الغسيل وحتى تجف ملابسكن». اقتربت منها آدا وجثت بجانبها وهي تحمل أمامها بحذر الرزمة التي لفّتها بعناية.

أشارت إليها آدا: «خذي هذه إلى باينز. إنها له».

هزّت فلورا رأسها تحذر والدتها: «لا، لا يحق لنا زيارته».

ألحّت آدا: «خذيها له». إنها لا تريد أن تخلّ بوعدها لستيوارت، لكن فلورا ليست معنية بالأمر.

تجاهلت الطفلة أمها وتابعت الغسيل. شدّتها آدا من رجلها بغضب مفاجيء. وضعت الرزمة بإصرار في يدها وأمرتها بالذهاب إلى بيت باينز.

تضايقت فلورا من أمها ومشت وهي حانقة عليها وكانت تتمتم كلمات عدائية. عندما وصلت إلى حيث يتفرّع الدرب إلى اليسار نحو بيت باينز، وإلى اليمين نحو المكان الذي يعمل فيه والدها، مشت قليلاً باتجاه بيت باينز لمَ ترددت وقررت أن تسلك الدرب إلى اليمين. كانت واثقة من أنها وقعت على الخيار الصحيح. بابا قال إن زيارة جورج باينز ممنوعة. ماما سيئة. لقد أخطأت وتسببت بعقابهما معاً. الماما لا تطاق. كانت تريد أن تبقى أمها في البيت وتحبها كما كانت في السابق. شيء ما حصل عند باينز أخذ منها أمها. كان واضحاً للطفلة أنه هو سبب مشاكلهما. سلكت فلورا الممر المحاذي للسياج ورافقته إلى أعلى التلة ثم انحدرت معه وتسلقت تلة ثانية وهي تقفز وتغني: «دوق يورك الكبير... عنده عشرة آلاف رجل، يقودهم إلى أعلى التلة، ثم يقودهم إلى أسفلها».

أحست فلورا أن السياج ليس له نهاية وهي تصعد تلة أخرى، لكنها أخيراً لمحت ستيوارت وهو يعمل على إكمال السياج عند منتصف التلة المقابلة. «يصعدون إلى فوق، وينزلون إلى تحت، وفي منتصف الطريق ليسوا فوق ولا تحت...». كان ستيوارت يثبت دعامة جديدة في السياج محاطاً بهانا وتاهو ورجل ثالث. وقف الثلاثة يراقبونه ولم يمد له أحد منهم يد المساعدة، بل راحوا يوجهون له النصائح التي تجاهلها ستيوارت. قال له تاهو عن الدعامة: «عوجاء يا سيد ستيوارت، عوجاء». توقف عن دق الدعامة في الأرض عندما رأى فلورا مقبلة نحوه وهي تلهث والدماء محتقنة في وجنتيها.

«أمي تريدني أن أعطي هذه الرزمة إلى السيد باينز». لوّحت

فلورا بالرزمة وأضافت: «فكرت أن هذا ليس جيداً. هل أفتحها؟» وبدأت تفك الشريط.

قال لها ستيوارت: «لا، أعطيني إياها» وانحنى ليأخذها من الفتاة. تردّد وهو يحملها بين يديه خائفاً من محتوياتها وغير مرتاح لمراقبة فلورا، لكنه أخذ يفكها ببطء وتناول المفتاح وقرأ الرسالة المحفورة على جانبه. أحس ببرودة مفاجئة وقاسية في قلبه وبنار تكوي أحشاءه. تسارعت أنفاسه وترنّح وهو يقبض على المفتاح ويرفع نظره إلى السماء. في تلك اللحظة لم يعد يفهم ما يدور حوله. ماذا يحدث له؟ انتبه الماووريون الذين جلسوا باسترخاء على الأرض أنه ليس على مايرام؛ اعتدل تاهو في جلسته ليراه جيداً. رمى المفتاح وحمل الفأس وبدأ يركض إلى أسفل التلة. ناداه مانا لكنه لم يرد. وقف الشاب وحمل المفتاح وقال: « kaaree waiata -kaaree waiata لقد فقد صوته ـ إنه لا يغني».

ركض أليسدير ستيوارت كأنه لا يرى شيئاً أمامه، مدفوعاً بالغضب والغيرة. غابت الشمس وامتلأت السماء فجأة بالغيوم الداكنة. انهمر المطر فيما كانت عاصفة رعدية تتجمع عند الأفق. تبعته فلورا دون أن تنتبه لما أصابه. تركها خلفه وأسرع يحث الخطى تحت المطر.

رفعت آدا عينيها عن الكتاب الذي كانت تقرأه عندما اندفع ستيوارت إلى الداخل، وشعره المبلّل غطّى جبينه ووجهه فقد لونه. أدركت في الحال ماذا حدث. انتفضت تبتعد عن الطاولة فيما كان الفأس يسقط ليستقر في الخشب بعد اقتطاعه طرف الكتاب. ركضت إلى الحائط. نزع سيتوارت الفأس من مكانه وبدت ملامحه مخيفة وعروق عنقه منتفخة. سألها وهو يصرّ على أسنانه:

«لماذا؟ وثقت فيك». ولوّح بالفأس ثانية وكان في هذه المرة يصوّبه إلى البيانو. تردّد صوت عميق ومنخفض بسقوطه على الغطاء، وآدا ارتمت على زوجها تحاول إنقاذ البيانو. التفت نحوها وأمسكها بكتفيها. صرخ قائلاً: وثقت فيك». وأخذ يجرها عبر الغرفة وصوته يدوي: «وثقت فيك، أتسمعينني؟» ودفعها إلى الطاولة وهو لا يزال يهزّ جسمها الصغير، فتساقطت عن الطاولة مكبات خيطان وقطع قماش. «لماذا تحمليننني على إيذائك؟» ودفع بنفسه نحوها ضاغطاً بشفتيه على خدّها يقبلها بعنف. ثم رفعها عن الطاولة وأخذها يدفعها إلى الخلف حتى ارتطمت بالحائط. صرخ: «نستطيع أن نعيش سعداء» وضربها على الحائط مرة ثانية. ارتخت آدا بين يديه. لم تعد تقوى على احتمال قسوة قبضته الحاقدة. «لقد أثرتِ غضبي! تكلمي!»

حمل الفأس وجرّ آدا إلى الخارج، إلى العاصفة والوحل، ودفعها أمام فلورا التي وقفت تحت وابل المطر في الخارج مذعورة. كانت السماء مثقلة بالغيوم الداكنة والمدوية. «يجب أن تدفعي الثمن» صرخ ستيوارت وهو يشدّها من ذراعها وهي تعلّقت يائسة بملاءة معلقة على حبل الغسيل. «سواء تكلمت أو لم تتكلمي، سوف تدفعين الثمن!» فلورا مكثت في مكانها خائفة من التدخل، وستيوارت راح يجرّ آدا على الوحل إلى لوح التقطيع. كان المطر ينهمر بغزارة.

رأت آدا إلى أين يجرّها. حاولت التخلص منه ومقاومته لكنه كان أقوى منها بكثير. عند لوح التقطيع أفلتت من قبضته وزحفت بعيداً على قطع الأخشاب المتناثرة وعلى الوحل. رفع ستيوارت فأسه وأسرع في القبض عليها مجدداً، شدّها من قبّة ثوبها ثم من

www.9ofy.com

شعرها، ودفعها إلى الوراء وذراعه تضغط على رقبتها إلى لوح التقطيع. هناك أخذ يدها اليمنى ووضعها على اللوح.

سألها بصوت مرتفع: «هل تحبينه؟ هل تحبينه؟ أتحبينه هو؟» ورفع الفأس فصرخت فلورا «إنها تقول: لا!» لكن كلماتها لم تكن لتحمله على التريث حتى لو سمعها. انهال ستيوارت بالفأس بكل قوته. حدّقت آدا الملطّخة بالوحل وكأنها غافلة عما يحدث. لم يصدر عنها صوت أو صرخة، أمسكت فقط برجل ستيوارت وهي تنتفض وتنظر بانشداه إلى ابنتها التي كانت تصرخ. تدفق الدم حتى لطّخ مريول فلورا الأبيض، وجناحي الملاك المتّسخين بالوحل.

مرت لحظة ـ لحظة ثقيلة التزم فيها الجميع، حتى الطيور، بالصمت التام ـ وتغضّن وجه آدا من الألم، حرّرها ستيوارت من قبضته . خطت بضع خطوات مترنحة في الوحل، ثم التفتت لترى ماذا فعل، وما الذي تبقّى على لوح التقطيع. كانت يدها لا تزال تنزف مع أنها شدّت عليها محاولة منع تدفق الدماء. رأت سبّابتها على اللوح. رفعت نظرها إلى السماء تتساءل كيف أتت إلى هذا المكان، وبدون أن تفكر توجهت نحو بيت جورج باينز. مشت بجهد كأن حياتها تتوقف على الوصول إليه. واكبتها فلورا دون أن تكف عن مناداتها. حاولت آدا أن تستجمع كل ما لديها من عزم وكرامة كي تواصل المسير لكنها تعثرت، ووقعت على ركبتيها وسقطت يداها في الوحل؛ تجاهلت آلامها ونهضت ثانية. وعلى بعد خطوات تلاشت قواها فانهارت ببطء في مستنقع الوحل كسفينة غارقة، وانتفخ ثوبها من حولها وهي تحط على الأرض.

صرخت فلورا: «أمي!»

ستيوارت، الذي كان قلبه لا يزال يخفق في أذنيه، لفّ الأصبع

في محرمة بيضاء. وضع المحرمة في يد الطفلة، التي تراجعت مذعورة وقال لها: «خذيها إلى باينز» وتابع بصوت منخفض كأنه انعتق عن جسمه «قولي له إنه إذا حاول رؤيتها ثانية سأقطع أصابعها الواحد تلو الآخر».

استدارت فلورا لتقوم بمهمتها لكنها تريثت قليلاً حين رأت آدا. صرخ فيها ستيوارت: «اركضي»، فانطلقت تعدو.

منذ أيام وجورج باينز ينتظر عودة آدا ويحلم بها، لكن الساعات الطويلة مضت وأخذت معها حماسته وتركته يعاني من مرارة إحساسه بأنها لن تأتي. لم يعد يأكل ولا ينام أو يهدأ له بال، ففكر بالرحيل عن هذا المكان.

قبل رحيله أراد باينز توديع المكان الذي عاش فيه بسعادة منذ فترة طويلة، وتوديع أهله من الماووريين فتوجه على ظهر حصانه إلى قريتهم التي يسمونها «با». التقت به هيرا عند مدخل «با» المسوّرة والتي شيدت على ضفة نهر مجراه واسع وهادىء تحيط به أشجار المنغروف التي مدت جذورها في عمق التربة الخصبة، وعلى صفحته تتهادى زوارق الكَنْوَ الطويلة. قالت له هير إن الجميع يريدون توديع بايني. شيّد الماووريون قريتهم في هذا الموقع منذ زمن بعيد، لكنها كانت في حالة تجديد وإصلاح دائمة؛ وعلى الرغم من أن باينز زارها عدة مرات إلاّ أنه كان دائماً يشعر بالاعتزاز لأنه تسنّى له دخول هذا العالم الشديد الاختلاف عن عالمه. رفع قبعته عن رأسه ومشى بجانب هيرا.

بعد أن فرغ باينز من مصافحة الأيدي ـ والضغط على الأنوف كما تقتضي العادات الماووريّة، أخذت هيرا ذراعه في ذراعها.

وضع باينز قبعته على رأسها بمودّة. ثم تناول من جيب عميق علبة تبغ وقدّمها لها. ابتسمت.

قالت له: «يا بني، سوف أشتاق لك. أنت بشر مثلنا». وتنهّدت بحزن: «الباكيها، لا قلوب لهم، إنهم لا يفكرون إلاّ في أرضهم». بدا رذاذ هادىء يتساقط وباينز أحس به كهمسة تداعب وجهه. سرت رعشة في أوصاله كأنه تلقّى تحذيراً ما، ثم تغاضى عن الأمر. مشى بمرافقة هيرا، مرّا بجانب المعبد والبيوت الواطئة ووصلا إلى مدخل «با» حيث ربط حصانه وتركه يرعى.

«اليوم أعداؤنا يبيعون أرضهم ليشتروا البنادق. ونحن يجب أن نشتري البنادق أيضاً. يجب أن نبيع أرضنا دفاعاً عن أرضنا». وهزّت رأسها مستاءة من الظلم الذي وقع على شعبها.

أحنى باينز رأسه، كان يعرف أن ما تقوله صحيح، ولم يكن يختلف معها في الرأي. امتطى حصانه المحمّل والتفت إلى مجموعة أرادت توديعه. بين هؤلاء وقف مانا، الشاب الذي كان يعمل مع أليسدير سيتوارت صباح ذلك اليوم؛ تقدم مانا ليسلم على باينز لكنه لم يستطع الاقتراب منه وهو على ظهر الحصان. انتبه باينز لمانا ورأى أنه حوّل مفتاح البيانو إلى حلق علّقه في أذنه وكان لونه العاجي يتألّق مقابل شعره الأسود.

اخترق باينز الحشد الذي تفرّق في الحال مستغرباً تحرّك الحصان المفاجىء. انحنى نحو الشاب ومدّ يده إلى المفتاح، لكن مانا ابتعد عنه.

قال له مدافعاً عن حقه في امتلاك المفتاح: «إنه لي. أنا وجدته».

مدّ باينز يده إلى الحلق ثانية، وانحنى لينتزعه برفق من أذن مانا. قلّب المفتاح في يده ورأى الكتابة المنقوشة عليه. قال بإلحاح:

«Homaikiau أنا أريده». كان يعرف أن الماووريين مثله لا يعرفون القراءة.

صرخ مانا باستياء: «إنه لي. أنا وجدته». سأله باينز: «ماذا تريد مقابله؟ أطلب ما تشاء. tupeka؟»

تدخّل بعض الموجودين وتعالى صراخهم: «أطلب حزامه»، «حذاءه»، بندقيته»، وشارك الأولاد المساومة فعدّدوا كل مقتنيات باينز المرئية، وباينز بدأ يفقد صبره.

وأخيراً، ابتعد باينز عن جدارن «با» بلا قبعة أو بندقية، وقد شد بنطلونه على خصره بقطعة قماش، كان المطر يتساقط بغزارة وباينز قبض على مفتاح آدا وحمله قريباً إلى صدره. أخذ يفرك الكلام المحفور بأصبعه ويضغط على الأحرف كأنه يستطيع أن يستوعب معناها بهذه الطريقة. توجه مباشرة إلى مبنى المدرسة الذي يتألف من غرفة واحدة ويقع في الجهة المقابلة من المستوطنة. عندما وصل إلى الحقل الصغير المحيط بالمدرسة كان المطر بدأ يخف.

سمع باينز صوت الأولاد وهم يردّدون معاً جدول الضرب، وعندما اقترب لينظر من فجوة في الجدار رأى صفوفاً من الأرجل الصغيرة تتأرجح تحت الطاولات الخشبية.

بعد دقائق فتح الباب واندفع الأولاد إلى الخارج. ارتدت الفتيات مرايل طويلة مبقّعة، وكل الأحذية بدت أكبر من الأقدام الصغيرة، إلاّ بالنسبة لصبي واحد كان حذاؤه مقصوصاً لتخرج منه أصابعه. وقف باينز يراقب أربع فتيات يقفزن على غصن عريشة، واحتار من يختار منهن. في هذه الأثناء رأى فتاة صغيرة تحمل كتاباً ضخماً تبتعد عن رفيقاتها وتجلس على ضفة الجدول المتعرّج الذي

www.9ofy.com

كان يجري بمحاذاة المدرسة. جلس باينز بجانبها والماء يخرّ بالقرب منهما.

سألها: «هل تعرفين القراءة؟»

الفتاة الصغيرة بشعرها المجدول بعناية أغلقت الكتاب ونهضت وابتعدت عنه دون أن ترد عليه. وقف باينز يراقبها وهي تتابع السير حتى وصلت إلى مسافة آمنة ورآها تلتفت لتنظر إليه. نزلت من مخبئها في شجرة مجاورة فتاة أصغر من الأولى وقالت له بصوت واضح وحاد: «أنا أعرف القراءة».

سألها شاكّاً بكلامها: «تعرفين القراءة؟» بدت صغيرة جداً.

«نعم... أقرأ كلمات كثيرة». تركت الفتيات لعبة القفز وتجمعن حول الطفلة.

قالت إحداهن باستخفاف: «إنها لا تعرف القراءة، هذه أختي لو كانت تقرأ كنت سأعرف ذلك». وانتبهت إلى العلبة التي حملها باينز فسألته: «هل هذه حلوى؟»

قالت الصغيرة بسخط: «أعرف القراءة!»

ردّت أختها: «لا تعرف». رفع باينز غطاء العلبة ليقدم الحلوى للطفلة. «لا تعطها قطعة». لكن باينز ترك الطفلة تأخذ قطعة حلوى. قالت الأخت الكبرى بإصرار: «إنها لا تعرف القراءة».

وضعت الطفلة قطعة الحلوى في فمها ورمت ورقتها؛ التقطت إحدى الفتيات الورقة في الحال وقرّبتها من أنفها تريد أن تستمتع بشمّها. قالت: «إم، كاراميله»، وأعطت الورقة إلى سائر الفتيات.

سأل باينز الأخت الكبرى: «هل تعرفين القراءة؟» ومدّ يده بالمفتاح وصبره يكاد ينفد.

أخذت الفتاة المفتاح من يده باستعلاء. إلتفت رفيقاتها حولها ليرين الكلمات بوضوح أكثر. قطبت جبينها وهي تتأمل الكلمات المحفورة ثم قلبت المفتاح إلى الجهة الأخرى، وقالت: «كتابة موصولة، لم نتعلّم ذلك بعد».

قالت فتاة أخرى: «ميرتل تعرف القراءة. أمها علّمتها». وانتزع المفتاح من يد الأخت الكبرى وأعطي إلى ميرتل، وهي الفتاة التي كانت تحمل الكتاب والتي حاول باينز التقرّب منها في البداية، وقف الجميع يراقبون ميرتل وهي مستغرقة تحاول جاهدة تهجئة الأحرف.

قالت بعبوس: «عزيزي جورج...» وتطلعت الفتيات إلى باينز يريدن التأكد أن رفيقتهن لم تخطىء حتى الآن. أحنى رأسه مشجعاً. «أنت...» وانضمت واحدة أو اثنتان إلى ميرتل في متابعة قراءة «تملك قلب...» وقاطعتهن الأخت الكبرى: «هذه ياء، قلبي».

«هذه ليست ياء».

«بلى إنها ياء».

وأعادت الفتاتان قراءة الكلمات معاً: «عزيزي جورج أنت تملك قلبي».

ثم تابعت ميرتل تقرأ الإسم بارتباك: آدا ماك غرات. قالت الأخت الكبرى: «كلام غير مفهوم».

قرأت الفتيات معاً الرسالة ثانية. قلبت ميرتل المفتاح للتأكد من عدم وجود كلمات أخرى. أعطته لباينز هي تقول: «هذا كل شيء...»

قال لها باينز: «اقرئي لي الرسالة وحدك الآن».

واستمعت الفتيات إلى ميرتل وهي تقرأ: «عزيزي جورج أنت تملك قلبي، آدا ماك غرات». وهزّت كتفيها بلا مبالاة.

ثم أشار إلى الأخت الكبرى وقال: «اقرئيها أنت الآن».

قرأتها الفتاة ببطء وبصوت عميق»: «عزيزي جورج أنت تملك قلبي».

فتاة ثالثة بادرت إلى قراءة الرسالة بعفوية بدورها. وتبعتها فتاة رابعة. وفتاة أخرى. وقف باينز بينهن وهو يكاد لا يصدق ما يسمع وقد غمرته سعادة خجولة. أخذ يضحك بارتياح وبهجة. ضحكت الفتيات أيضاً ظناً منهن أن الرسالة ربما تكون نكتة. استمرين في إعادة قراءتها، وفي كل مرة كان ينتاب جورج فرح جديد. في هذه الأثناء مرت الصغرى يدها بهدوء إلى علبة الحلوى وتناولت المزيد منها.

في بيت أليسدير كان أليسدير ستيوارت والعمة موراغ ونيسي يجاهدون لحمل آدا، التي فقدت وعيها وكانت ثيابها مثقلة بالوحل والدماء، إلى البيت عبر الباحة التي حوّلتها مياه الأمطار إلى مستنقع من الوحل.

في الداخل نزعت السيدتان ثياب آدا وقصتا كمّيْها بالمقصّ، وكانتا تلطختا بدورهما بالقذارة. كانتا حزينتين للغاية. قالت موراغ: «يا إلهي، يا لها من إصابة؟» وأبعدت القماش عن ذراع آدا التي بدت نحيلة وهزيلة ولونها الأزرق الشاحب يثير القلق. «وعندها ما يكفي من الحطب... إذا لم تمت من نزف الدم فإنها ستموت من ذات الرئة. ماء حار» قالت بلهجة آمرة. «الوحل في كل مكان»، وردّدت نيسي كلمات الأخيرة بصوت غير مفهوم.

قالت نيسي: «يا للمرأة الصغيرة المسكينة...» وامتلأت عيناها بدموع العطف والشفقة. «...آه ... يا إلهي...».

دخل ستيوارت حاملاً إبريق الماء الساخن. كان متوتراً وقلقاً يتطلع بانكسار وهو لا يعرف ماذا يفعل. قالت له موراغ: «أخرج الآن» وهي تدفعه وأضافت: «وقوفك هنا لن يشفيها».

خرج ستيوارت وأغلق الباب. كان قد أخبر عمته أن آدا أصيبت وهي تقطع الخشب وأنه كان يعمل في مكان آخر ووجدها واقعة على الوحل فركض ليؤمن لها المساعدة دون أن يفكر. كانت الكذبة تشد على حنجرته وتكاد تخنقه؛ لم يعد قادراً على الاستمرار؛ لم يعد قادراً على احتمال ما يحدث.

انكبّت موراغ على تنظيف جرح آدا فيما كانت نيسي تمزّق ملاية لتأمين الضمادات الضرورية. بدأت آدا تستعيد وعيها تدريجياً، ارتجف جفناها وتحركت شفتاها كأنها تريدأن تقول شيئاً.

قالت موراغ باستغراب: «انظري إلى شفتيها... تُرى ماذا تريدان أن تقولا؟»

بدأت نيسي تمشط شعر آدا بكثير من العناية والمودة وملست عليه كما لو كانت طفلة. ارتعشت آدا فقالت نيسي: «هل أستطيع أن أغطيها ببطانية؟ إنها ترتعش من البرد».

«حسناً، حسناً».

غطّتها نيسي ووقفت مع موراغ تتأملها وهي ممدّدة ووجهها الأبيض عكس معاناتها وألمها الشديد. مدّت يدها نيسي تريد أن تلمس على شعر آدا ثانية. «آه، إنه ناعم، ناعم جداً».

www.9ofy.com

قالت موراغ: «إنها واحدة من أبناء الله الضالين. ومع ذلك نتحسس وجوده في أعماقها مخيفاً كأنه عاصفة».

توجه باينز إلى كوخه مع هبوط الليل وهو ثمل من السعادة. راح يردّد رسالة الحب التي كتبتها له آدا مرة تلو الأخرى، محوّلاً كلماتها إلى أنشودة عذبة. كان يبتسم وجواده يخبّ على الدرب الصاعد إلى أعلى التلة؛ وبعد قليل رأى هيرا تركض نحوه وقد بدت متأثرة وهي تناديه: «بايني، بايني، الفتاة الصغيرة أتت وهي تصرخ...».

نزل باينز عن السرج بسرعة وبدأ يركض. أضافت هيرا تقول: «على ثيابها دماء. إنها في حالة سيئة... سيئة جداً...» كان باب الكوخ مفتوحاً. صعد جورج الدرجات قفزاً وتبعته هيرا.

في الداخل انزوت فلورا خائفة. كان وجهها شاحباً وملطخاً بالدموع والوحل، وكانت ثيابها مبلّلة بمياه المطر. جناحا الملاك ارتدا منكسرين على ظهرها، وبقع الدماء تناثرت على مريلتها. عندما رأت جورج يدخل بدأت تصرخ بصوت مرتفع تعبيراً عن ارتياحها.

توجه إليها جورج بسرعة حيث كانت تجثم بجانب الحائط. سألها وهو يبعد شعرها عن جبينها: «ما الذي حدث؟ اهدئي، اهدئي، قولي لي ماذا حدث؟»

أعطته فلورا الرزمة المخيفة المشرّبة بالدماء. أخذها منها جورج وفكها ورأى إصبع آدا المقطوع.

صرخت فلورا: «يقول إنك إذا رأيتها فإنه سيقطعها!» وأخذت تبكي وقد أغمضت عينيها كي لا ترى ما في داخل الرزمة.

سألها جورج بحدة وهو يضع يديه على كتفيها: «ما الذي

حدث؟» حاولت فلورا الافلات منه لكنه شدّ قبضته فبدأت تصرخ، واستطاعت أن تهرب إلى الخارج وهي تعدو. صاح جورج: «قولي لي!» وهو يطاردها. أمسك بها وهزّها بعنف وهو يسألها: «أين هي الآن؟» ورفع الفتاة التي راحت تطلق صرخات عالية وحادة متتالية، وهزّها ثانية يحاول منعها من الصراخ: «اهدئي أين هي؟»

قالت وهي تنتحب: «لقد قطعه».

سألها جورج بانفعال: «ماذا قالت له؟ ماذا قالت له؟» أقبلت هيرا وخلصت الفتاة من قبضة جورج وهي تقول له: «إنها مجرد طفلة». وحملتها بعطف تحاول طمأنتها وأبعدت شعرها المبلّل عن وجهها المذعور.

قال جورج: «سوف أحطم رأسه». وكان صوته مليئاً بالنقمة ومرارة الأسى. وبدأت فلورا تصرخ مجدادً: «لا، لا، سوف يقطعه».

ضرب جورج جذع الشجرة بقبضة يده وهو يزأر من الحقد والغيظ.

في تلك الليلة كانت أشجار الغابة تتحرك بهدوء، والزيزان وسائر الحشرات الليلية تصدر أصواتاً متآلفة ومنخفضة. دخل أليسدير ستيوارت إلى غرفة نوم آدا وهو يحمل مصباحاً. وضع المصباح بجانب السرير. راح يتأمل وجهها الشاحب الذي غمرته حبيبات العرق، وشعرها الذي التصق على خديها ورقبتها وشفتيها اللتين تشقّقتا وجفّتا. كانت نائمة. تكلم بصوت رقيق كأنها تستمع إليه.

قال بهدوء: «أنت السبب. لا يجوز لك أن تبلغيه بحبك له، لا

يجوز». وهزّ أصبعه وأضاف: «إن مجرد التفكير بحبك له، لا يجوز». وبدأ يبحث عن كلمات تساعد على تخفيف انفعاله: «أنا راغب في حبك». قال أليسدير ستيوارت لزوجته النائمة وأضاف: «لقد قصصت جناحيك فقط».

انحنى فوقها وأخذ يمر بيده على جبينها وخديّها. ردّد برقة أغنية حبّ حفظها في ذاكرته: «سوف نبقى معاً، سترين كل شيء جميلاً...» وآدا تحركت في نومها وأبعدت يده عن وجهها. كان جبينها رطباً وحرارتها مرتفعة؛ تقلّبت تحت البطانية.

سألها ستيوارت: «هل تضايقك البطانية؟... يا طائري الحبيب». وأزاح عنها الغطاء كي تتنعش. كان قميصها مبللاً بالعرق وملتصقاً إلى جسمها، وذراعها الأيمن الذي أحيط بالضمادات كان ملقى على معدتها. دفع ستيوارت بالغطاء إلى الأسفل ليريحها ورأى أعلى رجلها؛ وتكشف له باطن فخذها القشدي، رفع رجلها بتأنٍ وأنزل يده تحتها وأخذ يداعب جلدها. إحساسه باللذة أخذ يتنامى ويتزايد فيما راحت يده تتحسس جسدها. قرّب وجهه من جلدها، وضغط بشفيته على بشرتها الناعمة ودفن رأسه بين رجليها وهو يتنشق بصمت رائحتها.

تحركت آدا في نومها مجدّداً. نظر إليها ويده ترتفع أكثر وأكثر تحت قميص نومها. خطرت له فكرة جديدة، فكرة مريعة حاول مقاومتها، لكنها تملّكت عقله ومشاعره. تأملها وهي لا تزال فاقدة الوعي تحت وطأة الحمّى. بدأ يفك حزامه خلسة، ثم انحنى فوقها وباعد بين رجليها برفق. وفيما كان يتحرك ليتمدّد فوقها وهو مصرّ على المضيّ في تنفيذ مأربه، نظر إلى وجهها ثانية، انتابه الهول والخجل حين رآها تنظر إليه مباشرة، وتضع عينيها في عينيه. بدون

أن يتفوه بكلمة واحدة، وبنفس لاهث ومجهد، أوقف ستيورات ما كان يهم بالقيام به وابتعد وغطّى قدميها برفق بقميصها.

سألها بمكر: «هل تشعرين بتحسّن؟»

تحركت شفتاها ببطء. وفجأة أحسّ ستيوارت أنه سمع شيئاً، فالتفت إلى آدا يتمعن في ملامحها وانحنى فوقها ليقترب أكثر من شفتيها، وعيناه تنظران إلى عينيها. «ماذا...؟» صدى صوته جعله يطرف عينيه. راقبها كأنه يسمعها تتكلم بصوت خافت وبعيد يتطلب تركيزاً ومثابرة لالتقاطه. تغيرت ملامح وجهه وهو يراقبها؛ اغرورقت عيناه، وهدأت شفتاه، وحاجباه أخذا التعبير نفسه الذي ارتسم على جبين آدا.

مصباح الكيروسين عكس ضوءه المرتعش على وجهيهما. اقترب ستيوارت من آدا. في الخارج كانت الرياح تضرب السطح وتحرك الأغصان وتصدر صوتاً متأرجحاً عالياً. اقترب منها أكثر ليسمعها.

نهض ستيوارت وارتدى معطفه وحمل المصباح والبندقية وبدأ يشق طريقه عبر فسحة الأشجار الشبحية والغابة المظلمة إلى كوخ جورج باينز. وسّع خطوته كي لا يدوس على هيرا التي كانت نائمة على الشرفة، ودخل إلى الكوخ حيث كانت النار لا تزال مشتعلة في الموقد. رأى ثياب فلورا معلقة بالقرب من الموقد وكانت مغسولة والمياه لا تزال تقطر منها. اقترب من السرير ورأى فلورا مغطاة ببطانية وباينز بالقرب منها يحمل فأساً بيده وكلاهما يغط في النوم. وكزه ستيوارت بفوهة بندقيته تحت ذقنه. فتح باينز عينيه وأجفل حين رأى سيتوارت وبندقيته.

حدّق ستيوارت في خصمه يتفحصه في ضوء النار المضطرب.

www.9ofy.com

قال له مشيراً إلى الفأس: «ضعه جانباً. على الأرض». كان صوته هادئاً وبطيئاً، ونظرته تميل من الجنون إلى صفاء الذهن. باينز أطاعه.

بدأ ستيوارت يقول بصوت منخفض: «أنا الآن أنظر إليك، إلى وجهك. كانت صورة وجهك في ذهني، وكنت أكرهها. لكنني أراك الآن... ولا أشعر بشيء». حرّك ستيوارت البندقية من ذقن باينز إلى صدغه. «إنك تنظر إليّ وعيناك تقولان إنك خائف مني. أجل أنت خائف مني». وضحك ستيوارت ضحكة تثير القشعريرة. قال له: «انظر إلى نفسك! انهض!»

جلس باينز بانتباه كي لا يزعج فلورا التي ظلت نائمة. كان هادئاً. مفتاح البيانو الذي حمل له تلك الرسالة الرائعة مازال تحت مخدته.

ـ «هل كلمتك ١,٦؟»

ـ «تقصد بالإشارات؟»

هزّ ستيوارت رأسه: «لا، بالكلمات. هل سمعتها تنطق بكلمات؟»

نظر إليه باينز بارتياب. «لا، لم أسمع منها كلاما».

ـ «هل ظننت مرة أنك سمعت منها كلاماً؟»

هزّ بانيز رأسه ينفي ذلك.

رفع ستيوارت يده إلى جبينه وقال: «لقد تكلمت معي. سمعت كلماتها هنا». وضغط براحته على جبينه واتسعت عيناه. «سمعت صوتها يتردّد في رأسي. كنت أراقب شفتيها ولم أرهما ترسمان الكلام. ومع ذلك... كنت كلما أصغيت أكثر، أسمع بوضوح أكثر، بالوضوح نفسه الذي أسمع به صوتي الآن».

سأله باينز: «سمعت كلمات؟»

«لا، لكن كلماتها تسربت إلى رأسي». وتريث ستيوارت ثم أضاف: «أعرف أنك ستظن أنني أحتال وأنني أختلق الأمر. لكنني أؤكد لك أن الكلمات كانت لها».

«ما هي؟» لم يعرف ما إذا كان ستيوارت يتخيل ذلك بسبب تأمله لما حدث أو بسبب جنونه، لكنه على أي حال قرر الاستماع إليه لأنه رأى في ستيوارت لأول مرة شخصاً لم يكن يتوقعه؛ رأى نفسه في هذا الرجل القاسي والساذج، بضعفه ويأسه وحرمانه، وفي تلك اللحظة أحسّ باينز أنه يتعاطف معه.

رفع ستيوارت عينيه إلى السقف وأخذ يردّد ما سمعه كأنه حفظه عن ظهر قلب ويتمسك بنقله بدقة: «قالت، أنا خائفة من إرادتي، ومما قد نقوم به. إنها في غاية الغرابة والقوة». واستدرك ستيوارت ثم أحنى رأسه وتابع: «يجب أن أرحل. دعني أرحل. دع باينز يأخذني بعيداً».

قاطعه باينز غاضباً: «أنت أخطأت في معاقبتها. أنا المذنب، هذه غلطتي أنا».

لم يردّ عليه ستيوارت.

تحركت فلورا في نومها وتنهّدت. تغضّن جبينها ثم ارتاح، وجفناها ارتعشا مع تحرك عينيها وهي تحلم.

تابع ستيوارت وقد اغروقت عيناه بالدموع: «افهمني، لقد جئت لأجلها، لأجلها... أكاد لا أصدق أنني في حالة يقظة وأنني موجود الآن هنا وأتحدث معك. أنا أحبها. لكن ما الفائدة؟ إنها لا تهتم بي. أريدها أن تذهب. أريدها أن تذهب. أريد أن أستيقظ وأتصور أن كل ما جرى كان حلماً، هذا ما أتمناه». وأحنى رأسه

كأنه يؤكد على صحة ما يقول وأضاف: «أريد أن أصدق بأنني لست هذا الرجل الماثل أمامك الآن. أريد أن أسترجع ذاتي؛ الذات التي أعرف».

استيقظت آدا، وعرفت أن أليسدير ستيوارت ذهب إلى جورج باينز. نزفت دماء كثيرة، وأحست بأنها ضعيفة جداً ولا تستطيع أن تفعل شيئاً. خطر لها أن ستيوارت قد يقتل جورج وسرت رعشة في أوصالها.

- ١١ -

في بيت والدها عرفت آدا ماك غرات خلال فترة قصيرة أنها تحمل طفلاً؛ تعرّفت بغريزتها إلى معنى العلامات دون أن يخبرها أحد بذلك. حين أدركت البلوغ لم تكن بجانبها أم لتشرح لها ذلك التغيّر، ولم تجد سوى خادمة حاولت تهدئة خوفها من أنها قد تنزف حتى الموت.

بعد تلك الليلة في غرفة البيانو، قرّر ديلوار هوسلر مغادرة منزل عائلة ماك غرات. بعدما قبّلته آدا في غرفة الموسيقى صبيحة يوم عيد الميلاد وتركته وهي تتمنى له نوماً هانئاً توجه إلى غرفته وأخذ يروح ويجيء إلى أن سمع حركة في البيت. انتظر حتى سمع صوت ويستون ماك غرات في المطبخ وهو يصدر أوامره ويعطي توصياته حول وجبة الغداء. ارتدى معطفه واعتمر قبعته المخملية المعطف والقبعة نفسيهما اللذين يضعهما حين وصل منذ سنتين، ونزل إلى الطابق السفلي. حمل في يده ورقة دوّن عليها رغبته في الاستقالة.

استقبله ويستون في غرفة مكتبه وسأله عن الورقة التي كان ديلوار قد ختمها بالشمع.

www.9ofy.com

قال له ديلوار: «افتحها يا سيدي، ستجد فيها إشعاراً باستقالتي».

عبس ويستون. لم يكن يفكر إلاّ في آدا الصغيرة. قد يتحطم قلبها إذا توقفت الدروس.

«ألست سعيداً بوجودك هنا؟»

«أريد أن أرجع إلى عائلتي...» ارتبك ديلوار وهو يبحث عن أعذار تبرّر رغبته فقال: «أريد أن أتزوج». اضطرب من كذبته، واستغرب تسرّعه، لكنه فكر أن الزواج غير مطروح بالنسبة لآدا، وهو في تلك اللحظة اعتقد أنه ربما لن يفكر في ذلك الاحتمال ثانية.

ردّ ويستون محرجاً: «آه، حسناً، في تلك الحالة... متى تنوي الرحيل؟»

«سأرحل اليوم يا سيدي».

«آه»، قال والد آدا وهو يبحث عن كلمات يردّ بها عليه ثم تذكر فقال: «لكن اليوم عيد الميلاد. لا توجد عربات ولا أية وسائل للنقل».

ـ «سوف أمشي مسافة يا سيدي، وسأتدبر أمري».

ـ «يوم عيد الميلاد؟ على الرغم من احتمال تساقط الثلوج؟» ويستون تصوّر أنه مجنون.

ـ «أجل».

ـ «حسناً». تهوّر هذا الشاب لا يعنيه. «قمت بواجبك جيداً عندنا إنتظر سوف أعطيك تحويل معاشك». فكر ويستون أنه من الأفضل أن يتركه يرحل؛ إذا كان مجنوناً من الأفضل أن يعيش في

مكان آخر «ربما تريد توديع آدا، سأطلب من الخادمة أن توقظها». ورفع يده ليدق جرس الخدم.

ردّ ديلوار بسرعة: «كلا، يا سيدي»، ومدّ يده ليمنع ماك غرات من دق الجرس، وتابع: «أعتقد أنها لا تزال نائمة ولا أريد إزعاجها بهذا الخبر».

وتركت لي القيام بهذه المهمة أليس كذلك؟ لقد فكرت وخططت جيداً».

احتقنت وجنتا ديلوار عندما سمع اتهام ويستون له وقال: «سوف أبدأ بجمع أغراضي. سأرسل في طلبها في أسرع فرصة ممكنة».

قال ويستون: «حسناً، حسناً. سأترك لك التحويل المصرفي على الطاولة في المدخل».

«أشكرك سيدي»، وتابع وهو يغادر الغرفة: «ابنتك لديها موهبة رائعة».

ردّ ويستون متمتماً: «بل موهبة غامضة، هذا رأيي فيها».

لكن آدا لم تكن نائمة، لم تعرف الراحة منذ عادت إلى غرفتها. كانت لا تزال غارقة في مباهج ليلة الميلاد ومتعة عناق ديلوار هوسلر. هي أيضاً أخذت تروح وتجيء في غرفتها تلفّ صدرها بذراعيها وتفكر بما حدث في تلك الأمسية. في الصباح ارتدت ثيابها بسرعة ونزلت إلى المطبخ حيث عرفت أن والدها في مكتبه. مشت بخفة في الممرّ، وانعكست معنوياتها المرتفعة في تألق العافية في خديها. مشت بأناقة بكتفين مشدودين وظهر مستقيم.

توقفت عندما سمعت أصواتاً في الداخل. انتابها هاجس بفرحة

الميلاد كما كانت تنوي. سمعت كل ما قيل عن مغادرة ديلوار هوسلر. وكما استطاعت وهي في السادسة أن تتحكم بنطقها وتمنع نفسها عن الكلام، قررت الآن أن تمنع نفسها من الصراخ ومن التدخل في هذا الحديث الرهيب. وقفت بسكون الحجر تحبس أنفاسها وتلجم خفقان قلبها. ظلت في مكانها حين صعد ديلوار هوسلر إلى غرفته ليجمع أغراضه. مكثت بلا حراك كالصنم حين خرج والدها بدوره ووضع التحويل المصرفي على الطاولة في المدخل. لم تتحرك إلاّ بعدما نزل ديلوار هوسلر وأخذ المغلف وفتح الباب وترك البيت.

حملها بدأ يظهر، وصار حجمها غير متناسب مع طولها ووزنها الاعتيادي. كانت الخادمة التي تتولى غسل ثيابها هي أول من لاحظ أن ثياب آدا صارت ضيقة جداً عليها وتتعرض للتمزّق أحياناً، ثم انتبهت إلى أن أثراً لم يظهر على ثيابها في مواعيدها الشهرية الأخيرة. كانت آدا محطمة القلب لكنها لم تدع أحداً ينتبه لذلك. كانت تمضي كل فترات بعد الظهر في غرفة الموسيقى كالمعتاد. عزفت الألحان الثنائية بمفردها لأنها وجدتها تتناسب مع مزاجها، لكنها ما لبثت أن ملّت من هذا الإيقاع اللاّمتوازن. استعادت تدريجياً طرقها القديمة في ابتكار الألحان، والعزف الارتجالي، وكان أسلوبها في العزف تطور كثيراً بعد أشهر عديدة من التدريب والتعلّم.

قررت الخادمة المسؤولة عن البيت التحدث إلى السيد عن وضع ابنته. لم يكن أحد يجرؤ على التحدث إلى آدا مباشرة؛ صارت الفتاة أكثر انطواءً وترفقاً مما كانت عليه في السابق. صرخ ويستون: «ماذا؟» وتردّد صدى صوته في أرجاء البيت. كانت آدا مستغرقة

في العزف، لكنها سمعته فتوقفت قليلاً وعرفت أنه تلقّى الخبر، ثم واصلت عزفها.

أحسّ ويستون بالحرج ولم يعرف كيف يتحدث إلى ابنته؛ ترك تلك المهمة لبيرسلي المحامي. التقى بيرسلي بآدا وكان قد أعدّ خطاباً قاسي اللهجة أراد به حثّها على كشف هوية والد الطفل كي يصار إلى حلحلة الوضع كالتوصل إلى تسوية والإعداد لعقد الزواج. لكن آدا بالطبع لم تكشف شيئاً. رفضت أن تكتب كلمة واحدة وراحت تدفع الورقة بعيداً كلما كان بيرسلي يضعها أمامها. أخيراً ترك بيرسلي الغرفة بعدما فقد الأمل وعاد إلى ماك غرات ليعلن فشله. الفتاة متمسكة بصمتها وتكتمها، ولا مجال لمواجهتها. قرّر الرجلان أن تبقى آدا في البيت في هذه الفترة. وأن لا يعلما أحداً بوضعها. الجميع سيعرفون في النهاية على أية حال. وقررا أيضاً التخلي عن محاولة معرفة هوية الوالد. كان بيرسلي متفائلاً فتصور أن المذنب قد يأتي بنفسه بعد فترة لتصحيح غلطته.

بعد هذا الحديث لزم ويستون ماك غرات الصمت في هذا الخصوص. كان يراقب كيف يزداد حجم ابنته. بعض العاملين في المنزل رآه مشوّش الذهن وأنه يخلط بين ابنته وزوجته، وأنه عاد سنوات إلى الوراء إلى الفترة التي كانت فيها سيسيليا حبلى بآدا. وآخرون في البلدة تناقلوا همسات مشينة ألمحوا فيها أن والد الطفل ربما يكون ويستون نفسه. لكن كثيرين كانوا يعرفون من هو الوالد، وخاضوا أحاديث مطوّلة عن رحيله المفاجيء. البعض اتهم ماك غرات بسوء التصرّف وتساءل لماذا لم يبحث عن الشاب ولم يضعه أمام مسؤوليته؟ وقال البعض الآخر إن ماك غرات رفض

www.9ofy.com

الاعتراف بأن ابنته كانت على علاقة مع مجرد عازف، أو معلم بيانو، ولا يتمتع بموهبة عالية حتى في هذا المجال.

لكن الأب وابنته لزما الصمت، وتعامل ويستون مع ابنته برقة متزايدة؛ لم يعد يفكر في أنها غير متزوجة، وكان يخطر له من وقت لآخر أنها ربما شاءت أن تحمل طفلاً وإرادتها قوية جداً لتنفيذ ما تشاء. وحين دخلت في المخاض أمضى الليل في غرفة مكتبه وهو يروح ويجيء من شدّة القلق. تعذبت آدا وكان من الواضح أن ولادتها لن تكون سهلة. لكن مجيء الطبيب ساعدها كثيراً وعند ولادة فلورا وصل إلى ويستون في الحال ـ تلك الطفلة أعادت إليه ذكرى سيسيليا. وخاف أن تواجه ابنته مصير أمها، لكن الطبيب، وهو صديق قديم لويستون، أكد له أن آدا تتمتع بصحة جيدة ولا خوف عليها.

لم تكن عند ويستون أية مشكلة في تقبّل وجود حفيدته الوحيدة، لكن أهل بلدة أبردين كانوا أقل تسامحاً، فوجدت آدا نفسها مجبرة على العيش المغلق، وكانت نادراً ما تترك الغرفة ـ بعد القيام ببضع زيارات للكنيسة ـ ومواجهة الهمسات العالية والنظرات المحدّقة، قال الكاهن لويستون إنه لا يستطيع تعميد الطفلة، وهكذا قطعت عائلة ماك غرات صلتها بالكنيسة. تسبب ذلك بألم كبير لويستون الذي كان يتمسك بإيمانه التقليدي، لكن آدا لم تجد مشكلة في ذلك. طفلتها الجميلة صارت كل عالمها. كانت تضعها في سلتها بجوارها وهي تعزف، فتضغط برجل على دعسات البيانو وتهزّ لها بالرجل الأخرى.

وجدت آدا سعادة عارمة في مراقبة نمو طفلتها. لم تشعر بأي نقص في حياتها، وكانت قد استردت عافيتها بسرعة. كانت تقلق

في الليل أحياناً، ولم يكن ذلك بسبب الطفلة؛ في تلك الفترة كانت لا تزال تفكر في ديلوار هوسلر وتتذكر ليلة عيد الميلاد التي أمضتها بين ذراعيه. إنه جبان، ورحيله يؤكد خوفه. لم تعد تهتم لأنه لم يطلب الزواج منها، ولم تعد تفكر في أنه لم يكتب لها أو لم يترك حتى بضعة أسطر يشرح فيها سبب رحيله. إنها فقط مشتاقة لأن تستمع إليه وتجلس بجانبه وهو يعزف.

مرت سنوات كبرت فيها فلورا، وآدا صارت شابة ناضجة. كان ويستون طوال هذه المدة يتحايل لتأجيل زيارة أختيه باتريسيا وإثيل لأنه أحسّ أنه غير قادر على مواجهة أسئلتهما وعلى تحمّل حكمهما الذي توقّع أن يكون قاسياً. وأهل البلدة استمروا في الكلام، كدأبهم عادة، وازدادت تخميناتهم بسبب النقص في المعلومات؛ كان توقهم لابتكار الأخبار كتوق النار لأوكسجين. في أحد الأيام قصدت آدا البلدة مع فلورا التي صارت في السابعة من عمرها وذلك لشراء هدية لويستون بمناسبة عيد ميلاده، تقدمت منها سيدة متزمتة وحيّتها بسخرية ثم بصقت بازدراء على الأرض أمامها.

عندما سمع ويستون بذلك فكّر بنشر إعلان في الصحف التي تصدر في المستعمرات يضمنه رغبته بتزويج ابنته من رجل يرضى أن يكون والداً لطفلتها أيضاً. هذا الإعلان لفت انتباه أليسدير ستيوارت على بعد آلاف الأميال في صحيفة «مرآة بريطانيا الاستوائية» النيوزيلندية، فأرسل في طلب آدا ماك غرات التي رضيت بمصيرها وبدأت رحلتها الطويلة للقائه.

خرجت آدا من بيت أليسدير ستيوارت في الصباح الباكر وكأنها تسير في نومها. لم تستطع أن تستوعب كل ما حصل لها

منذ وصولها. كان الماووريون يعملون على رفع أمتعتها وحقائبها ونقلها إلى الخارج. وقفت العمة موراغ ونيسي عند الباب تراقبان ما يحدث وكانتا مصدومتين وحزينتين، وأخذت موراغ تتمتم: «يا إلهي، يا إلهي» بصوت منخفض. كانتا في أعماقهما سعيدتين لرؤية تلك المرأة ترحل، لأن أليسدير لم يعد كما كان، لقد غيرته بطريقة ما، وتسببت له بالأذى، كانتا واثقتين من ذلك.

لم تكن آدا تهتم بما تفكر فيه العمة موراغ ونيسي، لقد تحملت ما يكفي من الأذى. خرجت من الباب ببطء وكانت عيناها نصف مغمضتين كأنها لم ترَ ضوء النهار منذ أسابيع. رأت فلورا تقف مع جورج، كلاهما ارتدى ثياباً مرتبة، فلورا غطّت شعرها بقلنسوتها الزرقاء، وجورج ارتدى معطفه الأزرق. وضع جورج ذراعه على كتفي فلورا، والطفلة تعلقت بطرف معطفه وأخذت ترتعش عندما رأت ذراع أمها المعلّقة بضمادة التفت حول رقبتها. أليسدير ستيوارت لم يكن هناك. ارتدت آدا فستاناً أسود كأنها في فترة حداد، وتركت شعرها ينسدل على ظهرها، لم تستطع تجديله، ولم تهتم لذلك، بدأ الماووريون يتحدثون فيما بينهم ويختلسون النظر إلى آدا، لكن الباكيها لزموا الصمت.

انسابت أشعة الشمس من بين أغصان شجر الكوري العالية وغمرت الدرب الطويل إلى الشاطىء. بدأت المجموعة تتحرك في ذلك الإتجاه، وتقدم جورج من آدا ليحيطها بذراعه ويشدها إليه. نظر بالحاح إلى عينيها السوداوين المتعبتين. وبدون أن يقول شيئاً رفع قبعته وقربها أكثر منه وقبلها بشوق عارم وكثير من الرقة، وذلك على مرأى من الجميع كأنه يضع نهاية لكل ما حدث. تلقت آدا قبلته دون أن تشعر بشيء. فظاعة الأيام الماضية شلّت مشاعرها. كانت كالمذهولة لا تفكر إلا بما أصابها.

وصلت المجموعة إلى الشاطىء، الشاطىء نفسه الذي رست عليه السفينة التي حملت آدا وفلورا إلى هذه البلاد منذ أقل من ثلاثة أشهر. جلست آدا على صندوق، فيما أخذت فلورا ترتب لها شعرها وكانت تأمل أنه عندما يصبح مرتباً قد تتحسن حالة أمها أيضاً. كان جورج قد اتفق مع الماووريين على نقله مع آدا وفلورا والأمتعة بعيداً عن المستوطنة. بدأ الماووريون بتوضيب الأمتعة في زورق كبير مزخرف كان يرسو هناك، وتركوا البيانو حتى يفرغوا من تحميل كل شيء.

وضعت فلورا قبّعة آدا بعناية على رأسها؛ رُفعت فلورا وآدا إلى الزورق الذي رسا جزء منه على الرمال. اهتزّ الزورق من ثقل البيانو، وجورج ساعد الرجال على ربط الآلة بحبال غليظة تجمعت تحت أرجل فلورا وآدا.

قال كاميرا المجذّف:-Tarmaharawa-aianei tahuri ai إنه ثقيل جداً ـ سينقلب الزورق».

ردّ باينز قائلاً: Keite pai! kaare e titahataha ma البيانو وضعه جيد الآن ـ إنه متوازن».

«باينى، المجنون فقط هو الذي يرضى بتحميل هذا البيانو»، ردّ جورج: «إنها بحاجة إليه. يجب أن نأخذه معنا».

وأخيراً بدأ الرجال يدفعون الزورق إلى المياه وهم ينشدون معاً ستة رجال من كل جانب، والزورق المثقل بحمله خلّف شقاً عميقاً في الرمال أثناء تحرّكه. وقفت هيرا صديقة جورج بمفردها على الشاطىء وغنّت لباينى أغنية وداع حزينة ودموعها تسيل على خدّيها:

He rimu teretere koe ete. Peini eecii

www.9ofy.com

Tere ki tawhiti ki Pamamao eecii

He waka teretere He waka teretre.

Ko koe ka tere ki twa wha karere eecii.

أنت كأعشاب البحر تجرفك الأمواج يا باينز،

ابتعد، ابتعد خلف الأفق.

مركب يطفو هنا، ومركب يطفو هناك

لكن أنت ستظل ترحل وفي النهاية

سترحل إلى ما وراء الستار.

تهادى المركب على صفحة المياه، والماووريون تابعوا غناءهم وهم يجذّفون بنشاط عبر الأمواج المتلاطمة. تحرك الزورق الثقيل ببطء وابتعد في عرض البحر فبدا كنقطة صغيرة وقد أحاطت به المياه بمداها الشاسع. أمسك جورج بيد آدا، أحسّ أنها ليست على ما يرام وكان واثقاً أنها ستسترجع عافيتها تدريجياً بعد فترة من الراحة والبيانو بجانبها.

بعد قليل امتلأت نظرتها بالعزم والتصميم. نزعت يدها من يد جورج وأشارت إلى فلورا، التي راقبتها ثم التفتت إلى باينز مدهوشة.

سألها جورج: «ماذا تقول؟»

«تقول: ارم البيانو في البحر».

«لكن البيانو بأمان، وهم يتدبرون أمرهم»، قال جورج ذلك ظناً منه أنها تريد أن تطمئن لوضع البيانو. أشارت آدا ثانية بمزيد من الإصرار.

قالت فلورا بحزم: «إنها لا تريده. تقول إنه معطوب».

«المفتاح معي، وسوف أصلحه». ومدّ يده إلى جيب معطفه ليتناول المفتاح العاجي. هزّت آدا رأسها وهي تومىء بحدة مباشرة إلى جورج.

سمع المجذّف كاميرا ما دار من حديث. فالتفت يقول: «معها حق. ارمه في البحر، إنه يشبه التابوت».

قال جورج: «أرجوك يا آدا»، لكن آدا حاولت الوقوف فشدّها إلى مكانها ثانية وقال: سوف تندمين إنه لكِ، وأنا أريدك أن تحتفظي به».

قالت فلورا تنقل إصرار والدتها التي وقفت وأخذت تجذب الحبال: «إنها لا تريده. ارمه في البحر!»

قال جورج بصوت عالٍ: «اجلسي! حسناً، سوف نرميه».

البيانو كُسر، وهي أيضاً كسرت، ولن يعود كما كان أبداً. إنها ترغب في التخلص منه.

بدأ الرجال يفكون الحبال ويحرّكون البيانو إلى حافة الزورق. تطلعت آدا إلى عمق المياه الفيروزية المتألقة، ومرّت بيدها على صفحتها وهي تفكر ما يكمن تحت السطح. راقبت الرجال وهم يرفعون بسرعة الألواح التي وضع عليها البيانو، وفي غضون لحظات كان البيانو يسقط في المياه، بقوة هزّت المركب بعنف. واندفعت وراءه الحبال، ورأتها آدا وهي تنساب في التفافها بجانب قدمها؛ وفجأة وبدافع من الفضول القدريّ الذي رافقها دائماً باندفاعه وفوضاه، وضعت قدمها بين العقد. أليس عليها مواجهة مصير البيانو؟ ألم تكن تشكل مع البيانو كلاً واحداً؟

اشتد الحبل حول كاحلها وحملها معه ومع البيانو إلى عمق المياه الباردة.

تجمعت الفقاقيع حول فمها وهي تسقط أكثر فأكثر وعيناها مفتوحتان وثيابها تلتف حولها، الماوورِيون الذين غطسوا في المياه لإنقاذها لم يستطيعوا الوصول إليها وهي تغوص في الأعماق. مرت لحظات طويلة جداً. نظرت آدا إلى المياه الداكنة من حولها. لا صوت تحت المياه، الصمت يطال كل شيء، في النهاية.

رفعت عينيها لترى يدها اليمنى التي لُفت بالضمادات فيما أخذ الضوء يتلاشى وقعر الزورق يكاد يختفي وسط الظلمة المترامية. شعرت بسكون كلي.

آدا اتخذت قرارها.

بدأت تناضل لتخلص قدمها من الحبل، لكنها وجدت صعوبة في ذلك بسبب ثقل البيانو الذي جذب الحبل إلى الأسفل معه. مدت يدها وهزّت رجلها بقوة ثانية. ثم استخدمت قدمها الثانية واستطاعت أن تنزع حذاءها. واصل البيانو مع فردة الحذاء سقوطهما الصامت والمخيف، وأحست آدا أنها حرة وخفيفة وجسمها يدفع بنفسه إلى السطح. أحاط بها الغطاسون من الماوورِيين وساعدوها للوصول بأمان إلى المركب، إلى الضوء، إلى جورج باينز.

يا له من موت!

يا له من حظ!

يا للمفاجأة!

إرادتي اختارت الحياة

مرة جديدة روّعتني، وروّعت الكثير معي.

الخاتمة

كانت ستائر الموسلين تتماوج مع النسيم الهادىء، فيما كانت آدا تروح وتجيء على الشرفة وهي تغطي رأسها بقطعة قماش سوداء. كانت تتمرن على نطق الأصوات الساكنة التي لم تتعوّدها حنجرتها أو شفتاها، وقد تملكها الخجل لأنها لم تتقنها بعد، في تلك الفترة كانت آدا تعطي دروساً في البيانو في بلدة نلسون. استطاع جورج أن يحصل لها على رأس أصبع معدني وهي صارت محط أنظار أهل البلدة الذين أدهشتهم بموهبتها الفذّة، وهذا جعلها تشعر بالراحة.

اشترى جورج منزلاً بما تبقى لديه من مدخّرات من صيد الحيتان، مال أتاه من باطن المحيط الحي كما أتت آدا في ذلك اليوم. أسس تجارة في المرفأ واستفاد في علاقاته القديمة مع الماوورِيين وصيادي الحيتان. فلورا بدأت تذهب إلى المدرسة، وكانت في اليوم الأول تنتعل حذاء جديداً من أنكلترا. عاش الثلاثة معاً في البداية كأنهم نجوا من كارثة تركت فيهم مشاعر القلق والخوف، لكنهم مع مرور الوقت بدأوا يحبون حياتهم الجديدة ويشكرون العناية التي أنقذتهم.

www.9ofy.com

كل ليلة أتخيل بالبيانو في مدفنه في المحيط، وأرى نفسي أحياناً أطفو فوقه. في تلك الأعماق كل شيء ساكن وصامت كأنه يغني لي تهويدة حتى أنام. لكنها أغنية غريبة، مع ذلك فهي أغنيتي.

www.9ofy.com

جين كامبيون وكايت بولينجر

البيانو

ترجمة:

سمية فلو عبود

٨٢٣
ب و ب ي

بولينجر، كايت، ١٩٦١ -
البيانو / رواية / كايت بولينجر، جين كامبيون ؛ ترجمة سمية فلو عبود .
أبو ظبي : المجمع الثقافي، ٢٠٠٠م.
١٠٤ص
١- القصص الكندية
أ- كامبيون، جين، مؤلف
ب- سمية فلو عبود، مترجم
ج- العنوان

جميع الحقوق محفوظة للمجمع الثقافي ٢٠٠٠م
ص.ب ٢٣٨٠ -هاتف: ٢١٥٣ أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
Email:nlibrary@cultural.org
http://www.cultural.org
دار الكتاب العربي
١٢٣/٥٧
Email:
حقوق النشر والطبع محفوظة

المقدمة

في فيلم «البيانو»، الذي حاز على جائزة مهرجان كان، تروي جاين كامبيون قصة حبّ لافتة في جدّتها استطاعت أن تجذب الملايين إلى صالات السينما في العالم بأسره. أمضت كامبيون عشر سنوات في كتابة وإعداد الفيلم، لكنها ظلت أسيرة شخصياتها حتى قررت في النهاية أن تكتب رواية تخبر فيها القصة بكاملها.

في القرن التاسع عشر غادرت آدا وطنها سكوتلندا برفقة ابنتها فلورا، وهي طفلة غير شرعية في التاسعة من عمرها، والبيانو الذي تملكه، ووصلت إلى الأدغال البعيدة في نيوزيلندا لتتزوج حسب رغبة والدها. آدا لم تنطق بكلمة واحدة منذ كانت في السادسة، والبيانو كان بالنسبة لها وسيلتها في التعبير، صوتها الخاص. زوجها ستيوارت لم يكن منزعجاً مّن خرسها، ورفض نقل الآلة الموسيقية عن الشاطىء حيث رست السفينة. تلقّت آدا قراره بكثير من الغضب والخوف على آلتها من الأذى. عندما علمت أنه أعطى البيانو إلى جاره باينز، الذي كان أمّياً، ويحمل نقوش الوشم على جلده، وذلك مقابل قطعة أرض، عقدت آدا بدورها صفقة مع باينز تستطيع بموجبها أن تستعيد آلتها إذا سمحت له القيام «بأمور معينة» أثناء عزفها ـ مفتاح أسود مقابل كل زيارة. هذه الاتفاقية تدفع بالشخصيات الثلاث إلى حالة تزداد تعقيداً، تتصاعد فيها حدة المشاعر

www.9ofy.com

عند الغوص في ماضي الشخصيات نكتشف من خلال الرواية الدوافع التي جعلت آدا تتوقف عن الكلام، وقصة البيانو، وسرّ حملها بفلورا. كما أننا نتعرّف إلى ماضي باينز الغامض ونتوصل إلى العوامل الخفية وراء وحدة ستيوارت المذهلة.

جاين كامبيون كاتبة ومخرجة سينمائية. فيلمها الأول "Sweetie" تبعه سنة ١٩٩٠ م فيلم "An Angel At My Table" الذي حاز على عدة جوائز تقدير. في ١٩٩٣ م كانت أول سيدة تنال السعفة الذهبية في مهرجان كان عن فيلمها «البيانو». وهي تعيش حالياً في سيدني في أوستراليا.

كايت بولّينجر مولودة في كندا سنة ١٩٦١، م من مؤلفاتها: «Tiny Lives» مجموعة قصص قصيرة، وروايتان: «When the Monster Dies» و «Where Does the Kissing End?».

اليوم لن أبحث عن المنطقة التي يُخيم عليها الظل،
اتساعها الذي لا يُحتمل يعزّز الوحشة،
والأطياف التي تظهر، فيلقاً إثر فيلق
تجعل العالم اللاحقيقي قريباً للغاية.

إميلي برونتي (١٨١٨ - ١٨٤٨م)

هذا الكتاب

قصة آدا والـ «بيانو» رويت وأعيدت روايتها من أولئك المقيمين في مستوطنة ـ صغيرة في نيوزلنداد ومن أولئك المقيمين في اسكوتلندا الذين عرفوا آدا وابنتها، وحفيداتها لابنتها. لم تكن النساء وحدهن اللواتي روين القصة، فالرجال تحدثوا عنها في الحانات والبيوت، بعضهم مرتعداً، وبعضهم مندهشاً من المدى الذي يمكن أن يذهب إليه البعض من أجل الحب والعاطفة. كان هناك شيء لا يقاوم في القصة جعلها رائجة للجميع. كثيرون تظاهروا بالاستياء ولكنهم لم يكونوا قادرين على تمالك صبرهم إذا توقفت القصة حتى من أجل الصلاة. إحدى النساء ادّعت أنها سمعت وتعلمت المقطوعات التي عزفتها آدا بنفسها وأنها قدّمت حفلات خاصة موسيقية لم يتمكن من سماعها كل الذين رغبوا في ذلك. وحتى أولئك الذين ذهبوا أصيبوا بالخيبة لأن الموسيقى لم تكن مصحوبة برواية القصة، ولم يعتقد البعض أن الموسيقى كانت أصلية.

معظم الذي رُوي كان حقيقياً في بعض النقاط: أن آدا لم تكن تتكلم، وأن لها ابنة غير شرعية، وأنها تزوجت من اسكتلندي لم تكن قد التقت به أبداً وأنه أخذها بمهر صغير، إلى أبعد بلدٍ في العالم. ولكن حتى هذه الحقائق لم تكن كلها صحيحة. آليسدير ستيوارت كان مقيماً في نيوزيلندا حين سافرت آدا وابنتها للقائه. وفي الغالب كل الحكايات تداعت مجزأة

www.9ofy.com

لأنها رويت عن مراقبين رأوا القليل من القصة الكاملة. ولكن آدا ماك ـ غرات عرفت القصة وروتها لابنتها فلورا، حين كانت فلورا نفسها أماً لعدة أطفال وآدا ترقد مريضة على فراش الموت في مدينة نلسون الصغيرة والهانئة. آدا كانت في التاسعة والستين وقالت إنها سعيدة.

ما يلي هو نسخة للقصة التي جمعت من شهادة فلورا نفسها ومن آخرين عرفوا العائلة. ومع ذلك على القارىء أن يعرف أن مؤلف هذه الرواية الغريبة قد أتاح لنفسه أن يجمّل تصوير الوقائع كما يفعل جميع الرواة.

الصوت الذي تسمعه ليس صوتَ كلامي، ولكنه صوت ذاكرتي.

لم أتكلم منذ كنت في السادسة من عمري. لا أحد يعرف لماذا، حتى أنا. يقول أبي إنها موهبة سوداء، واليوم الذي سأتركها فيه تؤثر على حياتي سيكون نهايتي.

اليوم زوّجني لرجل لم ألتقِ به من قبل. ابنتي وأنا سوف نلتقي به قريباً في بلده. زوجي قال إن خرسي لم يضايقه لقد كتب هذا: الله يحب الكائنات الخرساء، فلماذا هو لا.

كان جميلاً إنه حظي بنعمة، ذلك لأن الصمت يترك تأثيره على كل واحد في النهاية.

الغريب أنني أنا لم أظن نفسي صامتة بسبب البيانو (الذي أملكه).

سوف أفتقده في رحلتي.

- ١ -

بمحاذاة شاطىء مهجور، على طرف بلد ناءٍ، في أرض نبات الخنشار الضخم والطيور التي لا تطير، ظهر قارب يخترق الموج والرذاذ. وسط البحر الهائج، آدا ماك غرات وابنتها فلورا كانتا تتحركان محمولتين كالضحايا البشرية على أكتاف البحارة. تنورة آدا السوداء، والفضفاضة نشرت على أذرع الرجال وظهورهم؛ لقد جهدت لتبقي شيئاً من مظهر الوقار، وقررت أن لا تصرخ. البحارة تعثروا وتكاتفوا في مواجهة الأمواج؛ اثنان منهما كانا من أصل أفريقي، كلهم كانوا مهاجين، وموشومين، وخشنين، بعضهم كان ثملاً. أخيراً آدا وفلورا نزلتا على الرمال السوداء الفارغة بصورة تخلو من اللياقة. «محطة بادينغتون» قال أحدهم، ولكن آدا لم تبتسم أو حتى تسمع، وكانت مستغرقة كما عند وصولها. صوت تكسر أمواج البحر خلفهم كان صاخباً وهائلاً.

نظرت آدا إلى حذائها، كان مغطى بالرمال الرطبة الفضية، والبحر يتدافع من حولها، ثم عالياً على الأشجار الهائلة وغير المألوفة والنباتات المعرّشة على مسافة قريبة. آدا بحثت عن

www.9ofy.com

المنحدرات ـ الشاهقة والوعرة والمغطاة بأكثف الأوراق النباتية، على نحو لم تره من قبل ـ لأنها وجدت عندها أملاً ضئيلاً في الحياة. كانت خائفة منها ولكنها كانت ممتلئة بالفضول في الوقت نفسه. كانت شاحبة وداكنة كـ «فلورا» التي كانت بوجهها الكئيب وملابسها القاتمة تعكس حالة أمها تماماً. فلورا كانت تنحني على ركبتيها، لا تزال تعاني من دوار البحر كما كانت غالباً في كل أيام الرحلة. لم تقع عينا آدا على بلاد كهذه، كهذه التجاويف الصخرية التي لا مثيل لها وهذه المصبّات البطيئة لـ سكوتلندا. شاشة سميكة وخضراء من الغابة تلتقي بالبحر والسماء. ولم يكن هناك شيء، لا ناس، لا أبنية، لا آثار، لا أثر ليد إنسان فوقها. لقد جاءت إلى نهاية الأرض، كما يبدو، لتقابل زوجاً.

آدا ماك ـ غرات وابنتها فلورا سافرتا لأشهر عبر المحيط العاصف، ليلة بعد ليلة من الهدهدة والتنقّل والتأرجح بقسوة على سريريهما في السفينة التي كانت تبتعد أكثر فأكثر عن سكوتلندا. أحياناً كانت آدا تستلقي مستيقظة في الليل، تشعر بحركة السفينة، وتتساءل إذا كانت هي وفلورا مسافرتين إلى الجحيم أو إلى مكانٍ أكثر ظلمة. بالنسبة لهذا الزواج بالوكالة وهذا الابتعاد عن الوطن أحست آدا أنهما ليسا أقل من عقاب على ذنوبها.

في أثناء رحلتها حلمت آدا غالباً بزوجها آليسدير ستيوارت الذي لم تلتق به بعد، وبأستاذها لتعليم البيانو ديلور هوسلر الذي لم تره منذ فترة، وفي أحلامها أصبح الرجلان واحداً. في أحلامها كانت في قاع السفينة في عنبر البضائع تعزف البيانو الذي كان مُزاحاً في علبته إلى جانب من السفينة كحيوان لا يتاح له الهرب. الموسيقى ملأت رأس آدا، هدّأتها وجعلتها قادرة على تهدئة الطفلة

التي كان حماسها للسفينة وبحّارتها يشع بوضوح حين لا تكون في حالة غثيان تتقيأ في الدلو الصدىء على أرض «الكابين». الظروف كانت سيئة، ولم يأكلوا طعاماً طازجاً لأسابيع، سمك فقط، سمك مجفف وسمك طازج، مقلي ومسلوق ومطبوخ، وآدا كانت مريضة من رائحة الملح والحراشف.

من شاطىء الوطن تمتعوا بإبحار هادىء وشعور بحدود المغامرة، ولكن فجأة، بعد خليج بيسكاي بدأوا الإبحار في عاصفة هائلة. البحر صار بعلو الجبال. مسجونتين في غرفتهما تحت ظهر السفينة والضيقة حتى لاثنتين كآدا وفلورا، قُذِفتا من الأرض إلى السقف؛ أربع ساعات لم تصل خلالها أخبار ولم يطرق بابهم أحد، وصلتهم الوحيدة بالعالم كانت في السفينة التي تصرّ تحت العاصفة والتي يضربها البحر. آدا كانت تحس بالرعب، خائفة أكثر من أي وقت، وهما تواجهان خطراً حقيقياً وداهماً أكثر من أي خطر يُتصور في مجتمع متمدن. ولكن القارب القديم كان ثابتاً ونجا. الركاب تجمعوا على ظهر الباخرة ليجدوا هاتين الوسيلتين للنجاة، قارب طويل، وأحد البحارة الذيْ كان قد دفعته إحدى الأمواج، ولكن الشعائر الأخيرة قيلت والتصليحات الضرورية أجريت. الشمس أشرقت على البحر اللازوردي الهادىء، وكانت كما لو أن الأمواج لم ترفع بالقارب وتقذفه، وكما لو أن العاصفة لم تكن سوى كابوس حدث بسبب وجبات فقيرة.

في البيت، تركت فلورا حصاناً صغيراً (بوني) شتلندي أسود يسمى غبرييل، غير الملاك، وكان هناك جدّها الذي يعتني به. أثناء انتقالهما، كانت آدا تتساءل عمّا يمكن أن تحمله هذه الحياة الجديدة لابنتها. الحمولة شملت جهاز عرس آدا، على الرغم من أنها لم

تكن تفكّر فيه لذاته. لقد نامت كل ليلة مع حقيبة مطرّزة تحتوي على مهرها ـ مجوهرات، بعض الذهب، وحوالة مصرفية ـ تحت مخدتها. آليسدير ستيوارت كان ينتظرهم ولكن كانت هناك بعض الحقائق الأخرى. آدا روت حكايتها لفلورا بلغتهما القائمة على إشارات اليد، ولكنها لم تكن تملك أجوبة حقيقية على أسئلة فلورا المتواصلة عن المكان الذي يمكن أن تنتهي إليه هذه الرحلة، ولذلك اخترعت فلورا جوابها: «نحن ذاهبتان لنقابل رجلاً، وسوف يقبلنا، هو أمير ونحن أميرتان. وسوف نعيش معاً في قصرٍ كبير وسوف أفعل كل ما يجلب لي السعادة». آدا لم تتكلم وفلورا كانت تشرح لها ولكن لحكايات الطفل حياتها الخاصة.

خمسة شهور مضت ورحلتهما قاربت النهاية. لقد رأتا أشياء كثيرة، ولمستا المحيط الأبعد لأراضٍ كثيرة؛ لقد عبرتا فوق خط الاستواء حيث الهواء الحار، ولأسابيع ظلتا فوق بصحبة الأسماك الطائرة، وخنازير البحر وعصافير البحر ذات الأحجام الهائلة. إنهما تسافران الآن بمحاذاة البحر لبضع مئات من الأميال. آدا حدّقت من على ظهر السفينة. كل ما استطاعت رؤيته كان أشياء بحرية داكنة، وأحياناً الجبال وراءها؛ في صباحات عديدة كان الشاطىء يختفي غارقاً في الضباب. ذات أصيل تباطأت السفينة على نحو ظاهر، أوضح الربان لـ آدا، وهو في طريقه العاصف، أنه المكان الذي عليهما، هي وفلورا، أن تغادرا فيه السفينة. مركب صغير أُنزل من جانب السفينة، كان محملاً بممتلكاتهم، كل أنواع الصناديق والحقائب على الرأس لتوازن البيانو في صندوقه. والذي كان قلب آدا مبتهجاً لرؤيته. تقدمهما كان يتعثر بثيابهما المزركشة بالدانتيلا، أو بحذائيهما الجلديين، آدا وفلورا تسلقتا بحذر السلم

المصنوع من الحبال، إلى النهاية التي بقيت آثارها في زرقة البحر، والقارب أخذهما إلى الأرض المتلألئة.

آدا أدارت وجهها بعيداً عن الغابة الزمردية وراقبت عن بعد الصناديق والأغراض التي وقعت عن القارب على الشاطىء. عدد من البحارة كانوا يقفون في تجمّع، يتبولون في العراء، ولكن آدا لم تنظر إلى ناحيتهم. انتباهها كان متحولاً إلى البحّارة الذين يترنحون عبر الأمواج مع البيانو. وقفت على أصابع قدميها وتعلقت بحذر واهتمام بينما كان ينقل بطريقة غير ثابتة؛ أومأت إلى الطاقم القذر وإلى الرجال لكي يرفعوه ويأتوا به بطريقة أسلم إلى البر.

مساحة الرمل بين الماء والسفوح الصخرية كانت عريضة جداً مع الجزر. متسع كالبت تقريباً بين البحر الفولاذي والأرض المخضوضرة. آدا وقفت على الشاطىء بين الأرض والمحيط وشعرت فجأة أنها غير قادرة على النظر إلى تلك الصخور ثانية لخوفها من أن تجعلها ألوانها «الجاديه» تشعر بأنها غير مرغوبة، وأنها زائرة غريبة من أقاصي الأرض. هبت الريح، قوية ومالحة، وأحست آدا بأن السفينة لا تزال تهتز تحت قدميها. وسوف تمضي أيام عديدة قبل أن يزول هذا الشعور.

آذا ركضت باتجاه البيانو الذي كان موضوعاً على الشاطىء، وكما لو أنها على رصيف ميناء، تفحصته في علبته ولمسته بإحدى يديها بينما كانت تجد فراغاً مفاجئاً. البحارة تكلموا، والريح حملت كلماتهم ثم أخذت أصواتهم تبتعد. لم يكن هناك أحد لتقابله. وربما لم يكن هناك أحد في هذه الأرض.

«إنه شاطىء مقفر، شاطىء مقفر» سمعت آدا أحد البحارة.

«دعها لشأنها، هذا ما طُلب منا القيام به».

www.9ofy.com

«ليحلّ عليك (مرض) السفلس!»

«جميل جداً، اتركها ولتقتل نفسك من أجل اللذة».

أحد الرجال الكبار، قائد هذه العصابة الصغيرة تقدم منها. كان يرتدي قبعة قش محنية إلى الخلف ومربوطة تحت ذقنه في أعلى قبة سترته ووشاحه الصوفي الذي بدا لآدا أنه محاط بطبقة من الوسخ. الآخرون خلفه ظلت عيونهم على البحر أو فوق الرمال؛ لم يرغبوا في التورط.

«يبدو الأمر على قدر من الصعوبة، ألا تستطيعان أن تعبرا نحوك في هذا الطقس. ألا يمكن الوصول إلى البر».

آدا نكست رأسها، الشرائط العريضة لقبعتها تتطاير في الريح.

«هل نجد لديكم مكاناً نأوي إليه؟

أشارت آدا إلى فلورا، التي شرحت إيماءات أمها، بصوت واضح ومرتفع «إنها تقول شكراً».

تظاهر البحّار بأنه يسير عائداً إلى قاربه، ثم أدار ظهره غير متأكد أن هذا هو الشاطىء المقصود وقلقاً من فكرة أن يترك امرأة وطفلتها وحيدتين هناك «هل ترغب أمك في المجيء معنا إلى نلسون؟» آدا أشارت معترضة لفلورا وبدت عليها علامة عدم الرضى. أدارت ظهرها. «تقول لا» أعلنت فلورا وعلامات الاشمئزاز تظهر على وجهها. «تقول إنها تفضّل أن توضع حيّة في قدر يغلي على أن تعود إلى هذه السفينة النتنة».

البحّار الكبير أحسّ بحزن مرير. كان معتاداً على الممازحات الشنيعة مع البحارة ولكن ليس من فم فتيات ونساء. آدا على الرغم من أنها لم تظهر ذلك، أحسّت بالغبطة لما نقلته كلمات فلورا.

فالطفل ينقل غالباً ما لا يجرؤ الكبار على قوله. البحّار تقدم خطوة من الفتاة ولكن آدا وقفت سريعاً مقطبة ومتخذة وضعاً ملائماً لحمايتها. «من سوء حظك أنني لم أصفع بحّارتك المصابين بالغرور». قال البحّار لفلورا «حظ ملعون».

بهذا ترك البحّار وهو يدفع القارب عبر الرمل إلى أن أصبح قابلاً للطفو ثانية، تاركاً فلورا وآدا وحيدتين تماماً فوق مساحة الشاطىء الهائلة الإتساع. شعّت الشمس فوق الأمواج تاركة الظلال الفضيّة والرمادية والزرقاء. خلفهما ضباب تسلّق فوق الصخور التي كانت معلّقة بأقواس قزح تنصب مع تبدل الضوء.

الساعات البطيئة مرّت. فلورا ساعدت آدا على جمع ممتلكاتها المبعثرة على الرمال حول البيانو؛ ترتيب الصناديق والعلب والبيانو رسم ما يشبه غرفة جلوس. وجلستا معاً على أحد صناديق الشحن، آدا تمسك بشراريب مظلّة حمراء داكنة تحاول أن تكسر شيئاً من قوة الريح التي لم تتوقف. وبعد فترة غرقت فلورا في النوم.

صوت المكان أدهش آدا، العصافير المتحلقة فوق رأسيهما، الغابة التي خلفهما حيث الأشجار تتمايل في الريح، تحطّم الأمواج على الشاطىء. عيناها نظرتا إلى الصخور مراراً؛ الغابة بدت كثيفة ومغلقة، ربما لن يظهر أحد. سوف ينتظران على الشاطىء إلى الأبد، قد تموتان هنا؛ آدا تساءلت للحظات إذا كان رفضها لطلب البحار حكيماً. ولكن سرعان ما تركت الشكوك وراءها، بعد رحلتهما كانت مهيّأة لكل ما يمكن أن يحدث، لا شيء سيفاجئها. بينما كانت آدا تمسّد وجه ابنتها فكرت بتلك الرحلة الطويلة، وكيف أن الأشياء الكثيرة التي افتقدتاها جعلتهما أكثر

صلابة. على الرغم من دوار البحر ومن الحنين إلى الوطن ـ باختلاف طبيعتهما، شعرت آدا بالقوة. دائماً كانت تحتفظ بهذا الشعور. الطبع الجيد الذي لم يكن ينقصها في حالة صممها. «لك إرادة عنيدة كالبغل، آدا ماك ـ غرات!» تعودت أن تقول عمّاتها باستنكار. آدا لم تكن حزينة لأنها تركت وراءها ناساً كعماتها؛ الرجل الوحيد الذي ستفقده هو والدها.

لم تسمح لنفسها بالتفكير فيه الآن، فلقد كان شوقها كبيراً ومع ذلك كان هو الذي أرسل ابنته وطفلتهما بعيداً.

وهي تمسك برأس فلورا في حضنها، سحبت آدا لوحاً خشبياً من صندوق البيانو الذي تزعزعت ألواحه. وحين زلقت يدها بين أضلاعه دهشت لشعورها ببرودة المفاتيح العاجية تحت أناملها. الشعور الذي افتقدته منذ شهور عديدة. استلقت إلى الأمام ووضعت رأسها في قلنسوتها السوداء على الصندوق كما لو أنها تصلي وعزفت بعض المقطوعات. كان الصوت يثير الهدوء والراحة، ولكن بعد لحظات كان هذا الهدوء وهذه الراحة يزيدان من الوحدة والقلق في هذا المكان الموحش.

فجأة، ودون إنذار من ماء البحر اندفعت مباشرة إلى تحت صندوق البيانو المرتفع وحملته بعيداً عن مكانهما، وغمرت أحذيتهما وأسفل قمصانهما بالزبد والملح والطحالب البحرية. مستيقظة من أحلامها، وقفت آدا مذعورة لتكتشف أن المدّ زحف دون أن تنتبه ـ بينما قفزت فلورا التي أوقظت بخشونة تصرخ فوق البيانو. وأخذتا تراقبان بلا جدوى الصناديق الثلاثة التي طفت فوق الماء بعيداً في البحر. ثم وبحركة مجفلة تقدمت آدا مع الأمواج المتراجعة، منقذةً قفص الدجاج، كما لو أن إحدى الدجاجات

ولدت زاعقة مع المد. آدا بدأت تركض في الماء باتجاه الصناديق التي كانت تطفو بعيداً في البحر، ولكنها توقفت وقد شعرت باليأس والخوف، وتثاقلت ثوبها الذي تشرّب بالماء. وثانية عادت آدا لتتأمل الصخور، فإذا لم يكن ثمة من يستقبلهم لدى وصولهم لا بد أن يكون هناك من يقوم على إنقاذ حاجاتهم.

سرعان ما أخذت الشمس تغرب، وتزايد اهتمام آدا بنجاتهما. في الضوء الرمادي المشرب بالخضرة ركضت مع فلورا بمحاذاة الشريط العريض من الرمال. المد أخذ يتراجع مرة ثانية. والرمل بدا ناعماً وطرياً كظهر فقمة البحر. حين عادتا إلى مكانهما، كان هناك خيط وردي منعزل في السماء. آدا شغلت نفسها في تصميم خيمة مغتبطة بالمهمة التي جعلتها أكثر يقظة. شكلت تصميم بناء من أطر الصناديق وغطته بالتنانير ووضعت حجارة لتثبيته في الأطراف، وكانت سعيدة باستخدامها هذه الثياب التي لم تعد صالحة. كانت أقل تأكداً من الطريقة الممكنة للسكن. داخل الخيمة أشعلت شمعة، محوّلة الخيمة إلى مكان شاسع.

«انظري. أنا كبيرة يا أمي». قالت فلورا وهي تصنع دمى ظلال بالضوء. «هل ستحترق». سألت عن الخيمة، وهي أقل خوفاً من أمها من الليل في الخارج. آدا صدقت أن كل شيء على ما يرام وأن ليلتهما على الشاطىء هي جزء طبيعي من الرحلة. متقوقعتان في الداخل، آدا روت حكاية لفلورا لتصرفها عن الورطة التي يعيشانها، يداها تتحركان برشاقة وتحفر في الهواء، وجهها مضاء بالتعابير بدا الآن رقيقاً، حزيناً، ساخراً، هادئاً. «والشمس» قالت «تذكري كيف تعودنا اللعب؟» ثم أخذت الريح يدها وقالت «تعالي، تعالي، معي». لكنها رفضت.

www.9ofy.com

«ماما، كنت أفكر» أشارت فلورا ثم تكلمت بشيء من الجدية «لن أناديه بابا، لن أناديه بشيء، لن أنظر إليه حتى».

نجحت آدا في تهدئة فلورا مربتة بيدها على شعرها ووجهها، لتنام سريعاً. آدا استلقت مستيقظة، متجمعة في المساحة الصغيرة التي أقامتها من الأطر، وراحت تسبح في الماضي.

آدا ماك ـ غرات، من آبيردين، كانت في السادسة من عمرها حين أحس والدها أنه لم يعد باستطاعته تأخير دعوة متسرّعة لعمتيه غير المتزوجتين باتريسيا وإيتيل للعيش معه. وهما بدورهما شاركتا في إعادة لمّ شمل العائلة، مصرّتين على أن مجرد السفر كل هذه المسافة سيتيح لهما رؤية ابن عمهما غير المتزوج جيليان وكذلك أخيه وزوجته وابنه. والد آدا، وستون ماك ـ غرات وافق في النهاية معتقداً أنه يمكن لأبناء العم أن يسلي بعضهم الآخر. لقد أمضى الأسابيع الثلاثة الأخيرة في اختراع مسؤوليات عاجلة لتمضية معظم الوقت خارج البيت.

وستون كان مضيفاً سيئاً، وبينما كان يقترب اليوم الموعود كان مزاجه يزداد صعوبة. حتى آدا الصغيرة (التي كان لها الموهبة في تهدئة طباعه بأغنياتها وغنت بعاطفة غريبة وجدّية) لم تفتن وستون فقط ولكن كل من في البيت، لم تستطع أن تفعل شيئاً له. أحياناً كانت تربت على يده وتداعبها بيدها الصغيرة التي كان يحبها دائماً. ولكن مثل هذه الإسعافات الرقيقة لم تعد تؤثر، وكان يسحب يده بانفعال ويشكو من وضع الطاولة الذي يبدو مزعجاً.

لفترة كان إذا تغير وضع أحد الشمعدانات الخمسة يبدو الأمر طبيعياً لماك ـ غرات. ولكنه في اليوم التالي كان ينظر من طرف

الغرفة إلى الطرف الآخر ويعلن أن أربعة هو رقم سخيف، ولأن الطاولة كانت كبيرة على ثلاثة فلا بد من الخمسة إذن.

اليوم الأول من الزيارة لم يمر جيداً ولكن باقتناع بأن الضيوف كانوا مشغولين في النظر إلى البيت، وأن حارس الطرائد كما هو مخطط استنفد «الحفلة» في العمل على رسم حدود الملكية. آدا كانت غاضبة من الضيوف. كانت صغيرة جداً لتتذكرهم في زيارتهم الأخيرة (الماضية)، ولذلك لم تشاركهم في اكتشاف المنزل، ولكنها استمتعت كثيراً بمراقبتهم دون أن يروها.

الحادث، كما جرى ليصبح معروفاً على هذا النحو، حدث في اليوم الثالث للزيارة على طاولة العشاء الطويلة التي كانت خالية من الشموع. في اللحظة الأخيرة أحس ماك ـ غرات أن أفضل حلّ للمشكلة هو في إبعادها: «الآن كما ترون ليس لدينا مشكلة بالنسبة للعدد».

آدا الصغيرة كانت تجلس بين العمتين غير المتزوجتين على كرسي عالٍ صنع خصيصاً لها. العشاء لم يكن يسير على نحو جيد. ماك ـ غرات لم يحب الشواء معلناً أنه قاس وغير صالح للأكل. وأصرّ على أن يعاد ثانية، ولكن دون أن يأخذ في الاعتبار أنه ليس هناك بديل منه. الضيوف الذين أخذت أطباقهم من بين أيديهم، أحسوا بالخيبة ولكنهم كتموا ذلك بتوجيه ملاحظات هادئة لمضيفهم وابنته. وكان الوقت بين مغادرة المائدة ووصول الحلوى حين انتبه الضيوف وماك ـ غرات إلى الصغيرة وآدا التي كانت تفرغ السكر على شكل تلة واسعة ومدهشة، ناثرة الحبيبات فوق خشبة داكنة، وغارزة أصبعها لترسم اسمها بالسكر.

العمتان القريبتان بلعتا ريقهما ونظرتا إلى أخيهما وستون، الذي

كان ينظر إلى «العمل الفني» أمام ابنته، وصرخ مبدياً ارتياحه أكثر مما أبدى غضبه «وما الذي تفعلينه؟» أرسم على الثلج يا أبي» قالت بصوتها الصغير الواضح».

«هذا ليس ثلجاً، يا عزيزتي، إنه سكر» قالت العمة إيتيل.

«لا يا عمتي، إنه ثلج. أنا جعلته يسقط عن الطاولة» «أتركي الطاولة وتعالي إلي» قال الوالد بلهجة آمرة. البنت الصغيرة لم تستطع النزول عن كرسيها دون مساعدة، فأفصحت عن ذلك. هذا الأمر أغاظ والدها وجعله يذهب في غضبه إلى درجة غير متوقعة وصرخ في وجهها بقوة حتى أن رذاذ فمه المزبد ملأ الفضاء. والعمة باتريسيا التي كانت قريبة منه سحبت يديها عن الطاولة.

«أنت، أيتها الطفلة، سوف تذهبين إلى فراشك ولن تتكلمي طوال بقية اليوم ـ مادمت تتكلمين فقط لكي تكذبي والدك وعمتكِ».

وجه الطفلة اشتعل احمراراً والعرق الذي بدأ يتصبب انفجر فوق شفتها العليا وجبينها. والدها لم يكلمها بهذه الطريقة من قبل، فلقد تعودت أن تكون دائماً مدلّلته المفضّلة. ماك ـ غرات نفسه تفاجأ بطبعه العنيف الذي أخذ يتفاقم بحضور العمتين وبهذه المقاطعة لحضوره المنتظم. على الأطفال أن يكونوا مطيعين، وآدا كانت كذلك عادة، وحين لم تكن كذلك كانت تؤخذ بالتدليل والملاطفة. هذا المساء بعد أن واجهت كلاماً على هذا النحو، أحست بخجل تام، ووضعت يديها على وجهها لكي لا ينظر إليها أحد. والدها أنزلها عن الكرسي، ويديها اللتين كانتا لا تزالان على وجهها ودموعها التي انسابت على خديها خرجت من غرفة الطعام ثم من القاعة إلى السلم نحو غرفة نومها. وستون أعاد ترتيب سترته

وناداها وهي تصعد «ولا تتكلمي. لا تنسي ذلك يا صغيرتي». عاد إلى غرفة الطعام ليحاول أن ينقذ ما تبقى من وجبة المساء، لا يفكر بشيء إلا بابنته الصغيرة أكثر من أنها ستهدأ وستكون أفضل حالاً عند الصباح.

في غرفة نومها ألقت البنت الصغيرة بنفسها على سريرها الصغير، ووضعت قطعة من مخدّتها على فمها لتخفي صراخها وقد شارفت على البكاء. وكانت المفاجأة أن صوتها لم يأتِ. وبينما أعادت الطفلة جلستها على السرير، كان الظلام في عينيها اللتين أخذتا ترتجفان وتنذران بأمر ما. لوقت طويل جلست الطفلة ويداها مطويتان بإحكام على حجرها (في حضنها) بينما كانت عيناها، الواسعتان السوداوان والباردتان تحدّقان إلى جهة الحائط البعيد. ظلّت الطفلة هكذا، تحدّق ولا تتحرك بينما كان كل شيء في الغرفة يغرق في الظلال المعتمة ثم في الليل.

مرّ يومان قبل أن يُلاحظ أن الطفلة لم تتكلم، ولدهشة الجميع لم تفعل ذلك حتى حين كان يطلب إليها أن تقول «إلى اللقاء». بعد أسبوع حين كانت لا تزال متوقفة عن الكلام. أحس والدها بالقلق ودعاها إلى غرفة مكتبه. ووقفت ابنته ذات الشعر الأسود والعينين السوداوين أمامه برصانة. نظر إليها وتحرك بشيء من الارتباك على كرسيه. كان هناك شيء مخيف ومثير للقلق في عينيها. التعبيرات كانت تحمل شيئاً من الاتهام وشيئاً من العزلة. قدماها امتدتا برشاقة وترتيب إلى طرف سجادته التركية. «آدا» قال «لقد عاقبتك، وأنت الآن في هذا الأسبوع الأخير تعاقبينني». نظر إليها وأعادت هي النظر إليه مظهرة نوعاً من التسامح والهدوء. «في حسابي نحن متعادلان». وأضاف «ألا تظنين ذلك» وانحنى إلى

www.9ofy.com

الأمام بحيث أصبح وجهه، بملامحه البارزة في مستوى الوضع الذي كانت عليه. «هل نحن متعادلان؟»

سمعت آدا صوت والدها اللطيف ونظرت إلى الوجه الذي كانت تكنّ له حباً بالغاً، الوجه الذي كانت تدعوه بـ «الوحش»، وعلى الرغم من حبّها الذي لا يضاهى له وولعه بها؛ لم تكن قادرة على مخالفة قراراتها وإرادتها الحديدية. هي، كنافذة ثابتة بقضبانها، لن تتكلم.

الوحش كان في وضع بين حالتين متساويتين، الإعجاب والغضب من هذه الصورة الصغيرة لابنته الوحيدة. غير راغب في أن يقوم بعمل ضد الطفلة، وجد طريقه للقيام بتهديدات ساخرة وحكم مختارة من قبيل «الكلب الذي لا ينبح هو أول من يعض». سوف يعيد هذا دائماً، وعاجلاً سيصبح الأب والابنة أكثر تلازماً، هو بتسامحه الساخر الذي يثير الإعجاب، وهي بثبات الطفلة الصارم. بعد ثلاث سنوات ورحلتين إلى أخصائيين في آدنبرغ: كان مفهوماً حتى للخادمات اللواتي كن يحاولن إثارتها لتقول كلمة، أن آدا لم تتكلم. وكلمات أبيها صارت قصة مأثورة في البيت: «إنها موهبة سوداء» سيقول «واليوم الذي ستتركينها فيه تؤثر على حياتك سيكون نهايتك».

بعد زمن وجدت نفسها مطروحة على شاطىء يبعد آلاف الأميال عن آيردين، وقد تعودت آدا منذ زمن على صممها، وهي ترفض أن تتذكر الحادث، ولكنها تعرف كالطائر الذي يطير جنوباً أن السبب كان ممتازاً، ولا يقبل المناقشة، وهو جزء من نسيج وجودها الذي بني عليه كل شيء آخر.

- ٢ -

في الصباح الباكر كانت مجموعة من أربعة عشر رجلاً وامرأة من الماووري واثنين من الباكيها ـ من الأوروبيين ـ تجتاز الغابة. كان الدغل شبيهاً بقاع البحر، شديد الرطوبة والكثافة والظلمة، حتى الهواء نفسه بدا مخضراً، وأصوات الطيور والحشرات كانت تتردد صاخبة في الأعلى. اليسدير ستيوارت كان يشق طريقه بعناد وهو يدفع بالشجرات إلى الخلف وقد تملكه إحساس بأن الأغصان تمتد نحوه لتمنعه بإصرار عن متابعة سيره.

لقد مضت عدة سنوات وهو مستقر في نيوزيلندا، ويشعر اليوم أنه كان طوال تلك السنوات يتحدى الدغل.

في البداية كانت أرضه تعطي نتاجاً جيداً من أشجار الكوري ـ تلك الأشجار العالية، المستقيمة الفروع، والخالية تقريباً من العقد، التي تصنع منها صواري المراكب. ومنذ تلك الفترة وستيوارت يكافح النمو المفرط والمستمر لكل أنواع النباتات المعترشة والسرخس. كان يفكر أحياناً أنه لو توقف يوماً واحداً للراحة فسوف يقضي الدغل على كل الجهد الذي بذله فيغرق فسحة

الأرض التي كسبها بمشقة بأمواج خضراء من النبات الوافر النمو. حين كان يرغب الابتعاد عن أرضه كان من عادته أن يحمل معه فأساً يشق بها ممراً معقولاً. الدغل كشعب الماووري الذي يسكنه، يحتاج لأن يخضع للنظام. لكن ستيوارت كان في طريقه لاستقبال زوجته الجديدة ولم يرَ أن حمل الفأس كأي عامل كان مناسباً، لذلك قرر أن يستغني عنها اليوم.

كان أليسدير ستيوارت طويل القامة، هادىء الملامح، وكانت معظم النساء اللاتي عرفنه في شبابه، وحتى اليوم بعد تجاوزه تلك المرحلة وبينهن عماته وأخواته، يرون أنه وسيم، وعندما أخذ يفكر في مظهره لم يكن بعيداً عن الغرور، تقدم بخطوات مرتبة ثم تباطأ حتى توقف، ورفع قبعته المبقّعة بالوحل. شعره الأشقر ووجهه كانا مبللين بالعرق والرطوبة. تناول مشطاً فضيّاً من جيبه وسرّح به شعره، وأخذ يشدّ بذلته الضيّقة ـ التي لم يلبسها سوى مرتين في مسيرته الطويلة للقاء زوجته. مرة ثانية، وربما كانت المئة، مدّ يده إلى جيبه ليتناول صورة صغيرة بيضوية الإطار للمرأة التي سيلتقي بها بعد قليل. قال لنفسه إنها تبدو هادئة وقوية، ولم تكن تلك المرة الوحيدة التي حاول فيها أن يطمئن لذلك.

لفظ اسمها بصمت، آدا، وكرّره في ذهنه. آدا، زوجتي، جورج باينز، الرجل الأبيض الثاني في تلك المجموعة، توقف ليراقب أليسدير ستيوارت وهو يتأمل الصورة. بدا باينز وكأنه نقيض ستيوارت: كان قصيراً وممتلىء العضلات بقدر ما كان الآخر طويلاً ونحيلاً؛ يرتدي ثياباً فضفاضة وملوّنة فيما كان الآخر يبدو رسمياً بشكل غير مناسب؛ كان هادئاً وخجولاً فيما كان الآخر مستعجلاً وعصبياً. سأل باينز: «هل نتوقف قليلاً؟» لكن ستيوارت

لم يجبه لانشغاله. أخذ باينز يتأمله؟ إنه رجل يصعب فهمه، بصورته وزوجته المجهولة وقسوته المنيعة. سأله ثانية: «هل نتوقف قليلاً؟» وستيوارت لم يجب. أسرع باينز خلف الماووريين يصيح: «انتظروا! سوف نتوقف... سوف نتوقف». وعندما التفت إلى الوراء رأى أليسدير ستيوارت يلقي نظرة خاطفة أخيرة على الصورة وكان يغطي الإطار البيضوي من الضوء حتى يستطيع أن يرى وجهه. وبشكل مفاجىء وواثق واصل ستيوارت السير باستعجال متجاوزاً قلعة وهو يشق طريقه عبر الأشجار، وقال بثقة: «يجب أن نتابع المسير».

التفت الماووريون إلى باينز بارتباك. أحدهم بدأ يحث الخطى خلف ستيوارت الذي كان يتقدم بسرعة وقال: «رجال شقر، ماذا تنتظرون؟»

عندما اجتازت المجموعة الدغل ووصلت إلى الشاطىء الرملي أخذ أفرادها يتقدمون بسرعة ملحوظة وبشيء من المرح. كانوا يشكلون حشداً متنوعاً؛ الماووريون لهم طريقتهم الخاصة والمميزة في اختيار ملابسهم فهم يجمعون ما بين الزي التقليدي والثياب الأوروبية بأية طريقة ممكنة. كان اثنان منهم، مثل أليسدير ستيوارت يضعان قبعتين، لكن هاتين القبعتين كانتا مزينتين بالريش والخرز. رجلان آخران تشاركا في انتقاء زوج من الأحذية.

رأى ستيوارت عن بعد مجموعة من الصناديق والأقفاص. أخذ خوفه يزداد وهو يفكر أن الأقفاص متروكة هناك وليس من يهتم بها. لم تكن هناك سفينة راسية في الخليج الواسع. لكنه عندما اقترب أكثر تراءى له ظل ساتر أبيض. فيما أخذ الماووريون يحركون الصناديق بفضول ويرفسونها، اقترب ستيوارت من الساتر

www.9ofy.com

الصغير. أخذ يهدىء نفسه عندما انتبه أن الساتر لم يكن سوى تنورة نسائية؟ من تحت القماش الأبيض برزت قدم صغيرة ترتدي جورباً.

ضجيج المجموعة أيقظ آدا وابنتها فلورا. وقفت آدا بسرعة عندما سمعت أصوات الرجال وهم يتحدثون بلغة غريبة. رتبت شعر فلورا وشعرها، الضفائر المشدودة لم ترتخ أثناء الليل الطويل. رُفع الغطاء فجأة عن وجه أسمر البشرة بشعر مجعد أسود طويل أخذ يسترق النظر إليها، فتمسكت فلورا بوالدتها. لكنهما ارتاحا حين سمعتا صوتاً مميزاً وسط ذلك الضجيج يقول: «آنسة ماك غرات أنا أليسدير ستيوارت».

خارج الخيمة الصغيرة رفع ستيوارت قبعته وبشكل آلي بدأ يمشط شعره ثانية ويملّسه على جبهته التي غطتها الخصلات الكثيفة والرطبة، كان طوال الوقت يفكر أن تلك كانت بداية ميمونة لزواج خطط له كثيراً وعقد عليه الآمال. «يجب أن تستيقظي. معي رجال سيحملون أغراضك».

تنفست آدا عدة مرات بصمت لتهدىء اضطراب قلبها والتفتت نحو فلورا لتطمئنها. لقد اجتازت كل تلك المسافة لتوجد محتمية داخل تنورتها الداخلية؛ لكن آدا لم تشعر بأي حرج، ولم يتملكها إحساس مخادع بالتواضع، كانت فقط خائفة ومتلهفة لحياتها الجديدة. دفعت نفسها بشكل عكسي لتخرج من تحت ثنايا التنورة، وأخذت تشد أطراف سترتها الضيقة وأسرعت في وضع القلنسوة على رأسها. كان هناك عدد كبير من الناس؛ رجال سمر البشرة وقفوا يحدقون، ونساء أيضاً تجمعن هناك ليضعن أيديهن على ملابسها. سمعت آدا على متن السفينة حكايات كثيرة عن

سكان نيوزيلندا المتوحشين، وأنهم محاربون أشداء، وملاحون، وأنهم يأكلون لحوم البشر.

وهاهم الآن يحيطون بها. معظم الوجوه كانت مزينة بإشارات معقدة؛ حتى الرجل الأبيض الثاني الذي كان موجوداً يحمل رسومات صغيرة مشابهة على جبهته وأنفه، شعره الأشقر المجعد أحاط بقبعة قش كان يعتمرها وكأنه في نزهة. بعض رجال الماووري كانوا عراة الأذرع والأرجل، يعرضون صدورهم التي خلت من الشعر للهواء. خفضت آدا عينيها لأنها لم تعد تعرف أين تنظر وما الذي يمكن أن تراه بعد ذلك. لم يسبق لها أن رأت أجساداً لا تغطيها الثياب، عدا جسمها وجسم طفلتها. كان الرجال والنساء يضعون عقوداً من الصدف، وأقراطاً محفورة مزينة بالخرز، وشرائط ملونة في شعرهم، وكانوا يتمشون بحرية على الشاطىء لا تزعجهم الأحذية أو التنانير المطوّقة، أو أي شكل آخر من قيود الموضة الأوروبية، حين رفعت رأسها ببطء لتنظر إليهم، حدّقوا فيها جميعاً وهم ينطقون بأصوات عالية عبارات لم تفهمها آدا. واحدة منهم، امرأة ضخمة وقوية ترتدي تنورة وقميصاً من الخيش الخام، اقتربت منها ومدت يدها. حدّقت آدا في الأرض وهي تتحسّس بارتباك شريط قلنسوتها فيما كانت المرأة تمسد خدها بلطف وتقول بلغتها المحلية: «انظروا كم هي شاحبة ـ كالملائكة». يبدو أن الماووريين كانوا مدهوشين بهاتين السيدتين، كما كانتا بدورهما مدهوشتين بهم. سيطر الخجل على فلورا فاختبأت خلف أمها.

كانت تلك المرة الأولى التي تلتقي فيها آدا ماك غرات بزوجها، فتملكها الإحساس بوطأة الموقف ولم تستطع أن تستجمع قواها

لتنظر إلى أليسدير ستيوارت، الذي كان بدوره عاجزاً أيضاً عن النظر إليها. قال وهو يشيح برأسه محاولاً إخفاء ارتباكه: «حسناً، أرى أنه لديك عدد لابأس به من الصناديق. أريد أن أعرف ماذا يوجد في كل واحد منها؟» فيما كان يتكلم شعرت آدا أن تنورتها ترتفع فجأة. كان هناك شابان يستلقيان على الرمل يحركان طرف تنورتها الداخلية بعودين وكأن آدا كانت حيواناً غريباً. واحد منهما أشار إلى قدمها وكوّر يده كأنه يحمل حذاءها وقال: «إنه صغير جداً». أطلقت آدا لهاثاً وأبعدت قدمها، فهي لم تتعود مثل هذا التفحص الجريء.

نظر إليها ستيوارت حائراً وقال بصوت عال: «هل تسمعينني؟» أومأت آدا برأسها ونظرت إليه مباشرة بعينين باردتين وقد أهانها بتباطئه ونبرته التي تعمد رفعها. نساء الماووري بعد تفكيك الخيمة كن يقفزن بمرح، وإحداهن ارتدت القفص المثبت بأسلاك فوق تنورتها الممزقة.

«حسناً، هذا جيد، أجل إنه جيد جيد»، قال ستيوارت مبتسماً وهو يبحث في ملامح وجه آدا ماك غرات عن إشارة تدل على فهمها. شعر أليسدير ستيوارت بالإحباط بسبب عدم تجاوب زوجته. كان يتوقع وحتى يتمنى بعض الخجل والتواضع لكنه لم يتصور مثل تلك الرزانة الرسمية. أقلع عن التبسّم ومسّد شعره ثانية وهو يمشي نحو أقرب صندوق. بعض الماووري مشوا خلفه فيما كان أحدهم يقلّد كل حركة يقوم بها. سأل ستيوارت: «ماذا يوجد هنا؟» وهو يشير إلى صندوق كبير. أشارت آدا إلى الكلام المدوّن على الصندوق: أوانٍ وقدور فخارية. كانت قد وضبت أغراضها تحت إشراف عمتيها الحريصتين؛ كل الصناديق مصنفة بدقة، وفي حقيبتها قائمة مفصّلة بالموجودات.

«آه أجل، هذا ما يوجد في الداخل». قال ستيوارت وهو ينحني ليقرأ الكلمات المكتوبة التي كان أحد الماووري يلمسها برفق بأصابعه كأنها تستطيع النطق. «أوان...» واختلس ستيوارت نظرة إلى آدا بطرف عينه وقال دون أن يفكر: «أنت صغيرة. لم يخطر في بالي أنك صغيرة لهذا الحد». حين سمعته بدت آدا وكأنها تتقلص لتتضاءل أكثر.

«وهذا؟» سألها ستيوارت وهو يتوجه نحو أكبر قفص على الشاطىء. «إنه ضخم جداً. ماذا يوجد في داخله، هيكل سرير؟»

احتشد الجميع حول القفص وعندما دقّ أحدهم عليه أصدر البيانو صدى ترجيعياً. تناولت آدا من ثنايا سترتها إضمامة الورق الفضية الإطار والقلم اللذين علقتهما في رقبتها، ولكن قبل أن تبدأ بكتابة ردّ كانت فلورا تفرد ذراعيها بحرص على الشرائح الخشبية وتوجه الحديث إلى زوج أمها للمرة الأولى قائلة: «هذا بيانو والدتي»، وشدّت أحد الحبال فيما تحركت والدتها القلقة لتقف بجانبها.

التفت ستيوارت بعيداً دون تعليق كأن فلورا لم تقل شيئاً. مشى نحو الأوروبي الآخر وهو يخاطبه قائلاً: «باينز، قل لهم أن يحملوا كل صندوقين معاً. يجب أن يأخذوا كل الصناديق والطاولة والحقائب». ولوّح بيده نحو الصناديق إيذاناً ببدء العمل. وقفت آدا تراقب عن بعد فيما كان الرجلان يقتربان منها. لم تستطع سماع حديثهما.

«ما رأيك؟» سأل ستيوارت بصوت منخفض وهو يومىء برأسه نحو آدا. فكّر جورج باينز قليلاً ونسيم البحر المالح كان يدغدغ وجهه وشعره وهو يحدّق في المرأة.

www.9ofy.com

قال أخيراً: «تبدو متعبة».

ردّ ستيوارت على نحو مفاجيء: «إنها معوّقة النمو، هذا واضح»، وابتعد لكن باينز ظلّ يراقب آدا وهي تشير إلى ابنتها بحيرة وإصرار. بدت الطفلة مرتبكة ففتحت آدا إضمامة الورق ثانية وكتبت عليها.

حملت فلورا الورقة البيضاء إلى ستيوارت، وكانت الملاحظة المدونة: «والبيانو؟»

قال ستيوارت بشكل حاسم: «آه، لا، لا نستطيع نقله الآن». قالت فلورا بإصرار: «يجب أن تفعلوا ذلك. إنها تريد نقله».

«أجل، وأنا كذلك». قال ستيوارت للطفلة ببساطة وهما يتوجهان إلى حيث كانت آدا والبيانو. وأضاف يشرح بصوت عالٍ حتى تسمعه آدا: «لا يوجد عدد كاف من الرجال ليحملوه الآن، إنه ثقيل جداً».

آدا، التي بدأ الخوف يتملكها، كتبت بسرعة ملاحظة أخرى وأعطتها إلى زوجها: «أنا بحاجة إلى البيانو».

سألها ستيوارت مستنكراً: «أتعنين أنك لا تريدين أواني المطبخ أو الثياب؟ هل هذا ما تعنينه؟»

أشارت آدا إلى فلورا التي ترجمت ذلك بقولها: «نحن لا نستطيع ترك البيانو».

«دعونا نتوقف عن مناقشة هذا الأمر أكثر من ذلك. إنني سعيد جداً لوصولكما بالسلامة». قال ستيوارت ذلك بأسلوب رسمي إلى حد ما متأملاً أن يعبر صوته عن ترحيبه بهما وأن يضع في الوقت نفسه حداً للمناقشة في هذا الموضوع.

«والدتي تريد أن تعرف ما إذا كانوا يستطيعون الرجوع لنقله مباشرة...»

ستيوارت، الذي كان لا يصدق أن طفلة تقاطعه، تجاهل سؤال فلورا وخاطب زوجته قائلاً: «هل أستطيع أن أعتذر عن التأخير الذي حصل...»

كان يتكلم وآدا تدوّن ملاحظاتها بسرعة، وفلورا كانت تراقب والدتها وما لبثت أن قاطعت ستيوارت ثانية بصوت ملحّ وعال قائلة: «... بعد أن ينقلوا سائر أغراضها؟» بدا ستيوارت مغتاظاً وظل فمه مفتوحاً قليلاً. أشاع بوجهه كأنه يحاول السيطرة على انفعاله.

بدأ الماووريون يستمتعون بالموقف فتفاقم انزعاجه الآخذ في التزايد. قال كاميدا أحد الكبار في السن: (kia tupato... kuu pukurihia... a te raho maroke) «انتبهوا، صاحب العينين الحامدتين بدأ يغضب». ضحك الماووريون فيما رسم ستيوارت على وجهه ابتسامة متوترة دون أن يفهم ما قاله الرجل.

مسألة البيانو صارت الآن منتهية. شعر ستيوارت أنه أهين بتحدّي هاتين السيدتين الصغيرتين له، واللتين كان يُفترض منهما الإذعان لحكمه. البيانو لا يشكّل حاجة وهو ثقيل، وإضافة إلى ذلك فإنه لو رضي اليوم بتنفيذ طلباتها فستكون تلك سابقة سيئة. يجب الخضوع لسلطته.

تلك الحادثة أثارت قلق ستيوارت وزعزعت مشاعره، لم يتم اللقاء كما كان يحلم به منذ فترة طويلة؛ كان تخيل لقاء مختلفاً تماماً. خطر له أنه في مرحلة معينة سوف يقبّل يدها، لكن ذلك يبدو الآن مستغرباً ومستحيلاً. قال لآدا بنبرة جافة وهو ينظر حوله:

«اسمحي لي أن أنبهك لضرورة الاستعداد لرحلة طويلة. الغابة تمزق الثياب والوحل عميق في بعض الأمكنة».

قال ستيوارت ذلك وابتعد عن آدا التي كانت لا تزال واقفة بجوار البيانو. اقتربت فلورا من والدتها وهي تلامس يدها برفق علّها تهدئها. راقبت آدا ستيوارت وهو يمشي باتجاه الماوورين الذين شغلوا أنفسهم بجمع أصداف البحر التي يسمونها PiPis. إنها لا تستطيع أن تقبل هذا التحوّل في مجرى الأحداث. لقد جلبت البيانو معها من أرض بعيدة واجتازت معه كل تلك الأميال البحرية لشهور وأيام. كان جزءاً منها؛ فيه يتجسد ماضيها؛ إنها لا تستطيع أن تتركه على الشاطىء.

«ماذا يفعلون؟» صرخ ستيوارت ملتفتاً إلى باينز وهو يشير إلى بعض الشبان الذين كانوا يتسابقون إلى البحر. «ليس لدينا وقت لذلك».

بعد دقائق جُمع كلّ ما أمكن حمله وبدأت المجموعة تتحرك نحو المنحدرات الصخرية، ونحو الغابة التي بدت منيعة، بعيداً عن البحر المشرق والمتقلّب. لم يرغب أليسدير ستيوارت بتوجيه الحديث إلى آدا ماك غرات فطلب من باينز أن يعطي تعليماته للسيدتين كي تتبعا المجموعة. آدا التي وجدت نفسها محاصرة بالأمواج المتدافعة والغابة المترامية أدركت أنه لا خيار لديها. أشار باينز إلى الاتجاه وبدأ يتضح أمامهم ممر ضيق فيما كانوا يقتربون من طرف الغابة. بعينين مغرورقتين بالدموع ووجه أبيض صغير غطته سحابة من الغضب والاستياء، أمسكت آدا يد فلورا وأسرعت الخطى تاركة باينز متأثراً بصمت بانفعالها.

بعد صعود الممر الطويل إلى أعلى التلة وصلت المجموعة إلى

موقع مطلّ على الشاطىء بشكل غير متوقع، فألقت آدا نظرة على البيانو المتروك وحيداً وخلفه البحر المضطرب. تأملته من ذلك الموقع المرتفع وهو وحيد في قفصه على الشاطىء الواسع وغير المريح، والمياه تقترب منه ثانية. بدون البيانو تشعر أنها بعيدة عن موطنها، حتى أبعد مما كانت عليه في الليلة الماضية. شعرت أنها بلا صوت، وأنها أُسكتت بطريقة لا علاقة لها بعدم قدرتها على النطق. مضت بضع دقائق وآدا تحدّق في الشاطىء، ومشاعرها تتدفق وتستحوذ على تفكيرها وهي تناضل للسيطرة على رغبتها في تحدّي زوجها في الدقائق الأولى من زواجهما. شدّت على يد فلورا كأنها تتمسك بآخر ما تبقى لها من هذا العالم. قالت لنفسها إنها ستعود وستجد طريقة لنقل البيانو من على الشاطىء.

www.9ofy.com

- ٣ -

كانت آدا ماك غرات تكبر، والهالة الخيالية لإرادتها العنيدة تكبر معها، وقد حملت عبئها على كتفيها كأنها شال متألق رغم ما فيه من الوخز. انها هي في الثامنة عشرة من عمرها كانت لا تزال صغيرة وصافية ومكتملة ـ لم تكن جميلة بل فاتنة. جرأة نظرة عينيها السوداوين كانت مثيرة، كانت غالباً ما تخيف الفتيات الأكثر خجلاً بتحديقها المستمر.

أحبت آدا ابنة الاثني عشر سنة ثلاثة أمور: القراءة وتجميل الأشياء والعزف على البيانو. وكان البيانو المفضل لديها، ووالدها شجعها على ذلك. كان قد اشتراه كهدية لزوجته الشابة سيسيليا بمناسبة عيد زواجهما؛ التي كانت بدورها تحب تلك الآلة بشغف ربما يبدو غير لائق في ظروف أخرى. ويستون وسيسيليا احتفلا مرتين فقط بعيد زواجهما، وفي المرة الثانية تميز الاحتفال بفرحة خاصة. كانت سيسيليا تعزف على البيانو كل يوم من الأشهر الستة الأخيرة لحملها وويستون يداعبها مازحاً أن الطفل سيولد وهو يغني.

ولدت الطفلة، ولكن أحداً لم يغنِ، لأن فترة المخاض كانت طويلة ومخيفة، وسيسيليا بدت ضعيفة جداً. ويستون شغل بنفسه بالتجول في أرضه وإثارة الصخب حول المنزل بتوزيع أوامره على العمال القلقين وهو يعرف أنه من المفروض أن يكون دمثاً وهادئاً. سميت الطفلة آدا على اسم والدة سيسيليا ـ وبدت بصحة جيدة بوجهها المتورّد وبكائها، لكن الأم استمرت في الذبول. بعد ثلاثة أسابيع ماتت. وجد ويستون نفسه وحيداً مع ابنته، والبيانو الذي يحمل ذكرى زوجته.

إنه البيانو من ماركة برودوُد، له صندوق فخم، مصنوع من خشب الورد. الألواح العليا عليها نقوش دقيقة ومعقدة الأزهار ونباتات مختلفة ويغطيها من الأسفل قماش ساتان أحمر غامق. أرجله محزّزة وملتفة على شكل قبضة اليد، أو كما كانت تقول آدا، على شكل كف الأسد. كان صوت البيانو أفضل عندما توضع الألواح العليا جانباً كي تستطيع الأوتاد الشبيهة بأوتار القيثارة تأدية النغم بحرية. تحت الأوتاد تبدو زخرفة ناعمة بالخشب الأشقر اللون ونقوش صغيرة استخدمها صانع البيانو لترشده في عمله غطاء اللباد أسود اللون وعلى إحدى الحواشي طبقة إضافية من اللباد الأحمر الرقيق. كانت آدا تستمتع بمراقبة ماك غريغور، المدوزن، وهو يعمل على آلتها، لترى كم من القطع يمكن انتزاعها ـ الغطاء، الألواح العليا، وكل مفتاح يحركه بعناية في حيّزه الضيق. كان ماك غريغور يثني على البيانو، وآدا الصغيرة يحمرّ وجهها من الفرح كأن البيانو يعني والدتها وأنها هي المقصودة بالإطراء للإتقان في شكلها وتصميمها وأنغامها. لم تسمع آدا من أحد أن البيانو كان لوالدتها، لكنها تعرف ذلك، ولأنها لا تحتفظ بأية ذكرى عن والدتها رسمت في ذهنها وهي تعزف صورة ناعمة ودافئة تتألف

من الموسيقى والخشب المصقول وسمتها «سيسيليا».

«النغم واضح كأنه صوت»، قال ماك غريغور ذات يوم وهو يعمل على البيانو. كان يزور بيت ماك غرات بشكل منتظم لدوزنة البيانو، بسبب المناخ الرطب والقاسي والعزف المستمر على الآلة. التفت نحو آدا وهي تحرس بعناية القطع المفكّكة، وأضاف: «أنت صغيرة جداً وتصبحين أصغر بسبب هذا الفخ الذي تطوقين. أليس كذلك؟ ما هذا الذي تمسكينه ـ فأر؟ هل هو فأر؟ هيّا افتحيه وسوف تسمعين صريره».

أكفهرّ وجه آدا واكتأبت عيناها، وأحنت رأسها كي توجّه نظرتها بشكل خاص نحوه. عندما رأى أنه أحرجها توقف عن مضايقتها وتابع عمله بصمت. أخذت آدا تناوله الألواح الواحد تلو الآخر وتأملته بإعجاب وهو يرتبها بعناية في أماكنها المخصصة لها، ويقول: «هذه براعة واضحة، انظري». التفت نحو آدا وتناول يدها وهو ينظر في عينيها: «هل تخفين سراً يا صغيرتي، سرّاً كبيراً، هل رأيت شيئاً مخيفاً؟» شعرت آدا بجلالة وكآبة تلك اللحظة الجدية وامتلأت عيناها بالدموع كما يحدث لها عندما تستمع إلى ترنيمة، وعندما حرّكت رأسها علامة النفي نظر إليها المدوزن شزراً وتركها تسحب يدها من يده. لكنه ظلّ واثقاً من قدراته وقال للخادمات في المطبخ: «صمتها يصل إلى أبعد مما يستطيع الكلام التعبير عنه».

قالت له الصغرى: «لا تكن غبياً. لقد خدعتك بحيلها الغامضة. إنها لم تعرف سوى الدلال منذ ولادتها».

قبل مباشرة العزف كانت الطفلة تغلق الباب الذي يفصل بين غرفة الطعام والمطبخ، والباب المؤدي إلى قاعة الاستقبال. تغلق باب القاعة وباب غرفة الجلوس والباب الذي يفصل غرفة الجلوس عن

الردهة الكبيرة ذات النوافذ الزجاجية العالية والتي كانت غرفة عمل والدتها، وتجلس هناك ساعتين أو أكثر وفي بعض الأحيان أربع أو خمس ساعات. لم تتلق تدريباً جدياً ولكنها مع ذلك تستطيع أن تحفظ وتعزف أي لحن تسمعه.

في وقت لاحق من ذلك الشهر استدعيت خياطة إلى المنزل لتعدّ لآدا أول تنورة طويلة وأول مشدّ وطوق للتنورة. في ذلك اليوم قدم لها والدها البيانو هدية. وقامت بدورها بعزف ألحانه المفضلة له.

عندما رأى ويستون ماك غرات ابنته الصغيرة تعتلي المقعد الذي وضع عليه كتابان ضخمان وتنحني فوق لوحة المفاتيح بجدية وإصرار امتلأ قلبه رهبة. كان عزفها بسيطاً لكنه مذهل في جاذبيته وتوقده وبراعة أدائه. تأثر وأحس بالحرج وهو يراها تتمايل وحتى تغمض عينيها أحياناً أثناء العزف. كان حساساً للغاية ولم يشأ إفساد هذه المتعة بأن يطلب منها أن تعزف أمام ضيوف أو مجموعة من السيدات أو في أية مناسبة. لكنه بدأ يفكر جدياً بأنها تستحق أن تتلقى تدريباً. إنها تحتاج لمدرس في الموسيقى وربما يكون مدرساً عاماً أيضاً.

بدت الرحلة عبر الغابة وكأنها لن تنتهي. اشتدت حرارة النهار وارتفعت الرطوبة والثياب ضاقت وصارت لزجة بالعرق وثقيلة بالوحل. تعجبت آدا من كثافة الغابة والمجموعة تتقدم ببطء عبرها؛ هناك أنواع عديدة من السرخس والطحالب، وأشجار جديدة تنبت من أشجار متعفّنة وميّتة، والكلّ متشابك مع خليط من الأوراق والجذور والنباتات المتعرشة الكثيفة والمتدلية. وجه الغابة الأخضر المسطح كان يتغير أحياناً بتسرب أشعة الشمس التي تنعكس عليه

www.9ofy.com

في مجموعة من الألوان تبدو باهتة على أوراق السرخس الجديدة وتتدرج إلى البريق الأرجواني على أشجار البلح العملاقة. رأت أقداماً سمراء عارية تخوض في الوحل على مسافة منها؛ عرفت آدا أن الماووريين هم الذين يقودون المجموعة، وأن المدعو جورج باينز يعرف الطريق أيضاً كما أنه يترجم لستيوارت باللغة المحلية. لم يكن التقدم سهلاً، وآدا وفلورا كانتا تبذلان المزيد من الجهد بسبب حذائيهما الأنيقين وثيابهما الثقيلة.

أليسدير ستيوارت مشى أمام زوجته الجديدة وابنتها ولم يجرؤ على الالتفات إليهما. كانت أفكاره مشوّشة. لقد وصلت أخيراً، لكنها تختلف عن الصورة التي رسمها لها في خياله. وبدأ يوبّخ نفسه؛ عندما عرف أنها بكماء أنعم عليها صفات الراهبة الصامتة، المطيعة الجميلة، التي تكنّ له أقصى درجات الاحترام والامتنان. من الواضح أنها ليست كذلك أبداً. كانت عروساً مطلوبة بالمراسلة وهو غبي لأنه توقع قديسة هادئة.

وأليسدير ستيوارت بدوره لم يكن يتطابق مع توقعات آدا ماك غرات، مع أن تلك التوقعات كانت بالتأكيد أقل مثالية. المرأة التي ترسل ما وراء البحر لن تجد نفسها زوجة لسيد يشبه الأمراء؟ هذه أرض لا أمراء فيها، كانت آدا تعرف ذلك جيداً رغم القصص التي روتها لفلورا. غرست آدا حذاءها بقوة في الوحل لأنها صمّمت أن لا تنزلق ولم تعد تهتم لمصير ثوبها. رجال الماووري رفعوا سراويلهم إلى ما فوق الركبة والنساء ثنين ملابسهن بشكل مريح أيضاً. رأت آدا فلورا وهي تتقدم بجهد أمامها، رجلاها الصغيرتان ليستا طويلتين بما فيه الكفاية، ونفسها كان سريعاً ومرهقاً، وتنورتها من قماش الطرطان الأزرق كانت تنسحب على الوحل باستمرار.

قالت آدا في نفسها إن ابنتها ارتاحت على الأقل من الملل الذي عانت منه على الباخرة، هذا العالم وهؤلاء الناس في غاية الغرابة والاختلاف.

تسلقت فلورا صخرة أخرى أمام هذا العالم الجديد والأب الجديد والحياة الجديدة لم تفكر فلورا إلاّ بالوحل: الوحل يغطي رجليها وحذاءها وقدميها. لم يكن يسمح لها أبداً باللعب بالطين الرمادي الناعم في بيتها، والآن تجد نفسها مجبرة على الخوض فيه وهي ترتدي أفضل ثوب عندها. وجدت فلورا في ذلك متعة كبيرة. كانت تشبه آدا بما لديها من فضولية مرهفة، وخلال الرحلة البحرية الطويلة حرّرت نفسها من الماضي ببساطة طفولية. أمها معها وهذا يكفي. توقفت المجموعة فجأة عند وصولها إلى أرض قطعت أشجارها. تقدم باينز إلى الماووريين الذين كانوا يتحدثون.

سألهم باينز بهدوء: «Eaha tenei ـ ما الأمر؟» زعيم الماووري، وهو يدعى هون ووجهه مغطى جزئياً برسوم الوشم الطقوسي، أجاب: « E hinga te koroua ra a pitama i konei ميتاما العجوز مات في هذا المكان». مدّ يده ليشير عبر الأشجار قائلاً: «Kare moa kia hikina te tapu هذه الأرض لا تزال Tapu».

وصل ستيوارت إلى المجموعة المتقدمة فتجاهل الماووريين وسأل باينز مباشرة: «ما الأمر؟»

بدأ هون يشرح لكن ستيوارت قاطعه وهو يخص باينز بسؤاله: «لماذا توقفوا؟»

قال باينز بلطف: «هناك شخص مات هنا. وهذه أرض Tapu».

«لكن نحن أتينا من هنا، أليس كذلك؟ أنا واثق أننا أتينا من هنا». قال ستيورات ذلك بإلحاح وقد أزعجه التأخير غير الضروري.

تابع الماووريون نقاشهم أرض Tapu يعني أرضاً مقدسة. اقترح هون أن يقوم واحد منهم بالبحث عن درب آخر.

قال ستيوارت متذمراً: «إنهم يريدون المزيد من المال. يحاولون أن يأخذوا أجرة يومين في هذه الرحلة؟!»

ردّ باينز: «لا، لا. إنهم يعرفون درباً آخر ـ بجانب هذا الدرب».

فيما كان الرجال يتجادلون في مسألة الطريق، بحثت آدا وفلورا عن مكان جاف لتجلسا وتلتقطا أنفاسهما. فجأة بدت الغابة مقفلة، كأنها بدأت تطبق فوق رؤوسهم لحظة توقفوا عن المسير، كالمياه المضطربة التي تعود إلى الركود ثانية. جلست آدا على الجذع المتكسر لشجرة ساقطة، وصعدت فلورا على الجذع لتجلس بجانبها. أحسّت آدا بكآبة تقطر من غناء الطيور والنسيم الذي يتسرب من ظلة الأشجار فوقهم. كآبة ثقيلة الوطأة.

جلست على جانبي فلورا وآدا امرأتان من الماووري، الكبيرة تدعى وايمارا (وهي التي لفتت انتباه آدا على الشاطىء بقميص الخيش والتنورة الواسعة) والثانية أصغر سناً. خافت آدا من وجودهما الذي فرض عليها بغموضه كوجود الغابة. بشعرهما المرخي وثيابهما الواسعة كانتا تبدوان مرتاحتين في جسميهما وهادئتين مع ثقل وزنيهما بطريقة لم تكن تألفها آدا بشعرها المرتب تحت القلنسوة والمشدّ الضيق. تناولت وايمارا مفكرة آدا الفضية بيديها العريضتين وتفحصتها من جميع الجوانب وهي تتدلى بسلسلتها، فيما كانت المرأة الشابة بدأت تسحب خلسة شال آدا من حضنها. أعطت الشال بسرعة من خلف ظهر آدا إلى وايمارا التي لفّت به كتفيها وهي تبتسم بزهو وانتصار. انتبهت آدا لما

حدث وأخذت تحدّق بتصلّب أمامها وهي عاجزة عن الردّ. شعرت أنها خدعت ولم تجرؤ على النظر إلى المرأة الكبيرة وهي تتباهى بالشال ترتبه ثم تعيد ترتيبه فوق كتفيها العريضين.

في هذه الأثناء كانت المرأة الثانية تحاول بتهذيب غير مجد أن تمسح حبيبات النمش عن وجه فلورا. تركتها فلورا تتابع محاولاتها باستياء.

كانت آدا بدأت تيأس عندما وصلوا إلى حيث يقيم أليسدير ستيوارت. كان المطر ينهمر بغزارة والسماء بدت قاتمة وأكثر اقتراباً من الأرض المشبعة بالماء. وسط فسحة موحلة فيها مجموعة من هياكل أشجار متفحمة ومسودة، بدا البيت الذي بناه ستيورات بنفسه من ألواح أخشاب شجر الكوري التي قطعها بفأسه وعرقه ـ كان يعتز به إنه منزل، وكان منزلاً بالفعل بالمقارنة مع الأشكال الأخرى المشيّدة في المنطقة. إذا كان الآخرون يرون مستنقعاً من الوحل والفحم، فإن رؤية أليسدير ستيوارت للموقع كانت مختلفة: هذه أرضه. كان ستيوارت يحلم بالحدائق المرتبة والمروج لذلك عمد إلى إزالة الغابة من حول المنزل مستخدماً طريقتي القطع والحرق. لقد نجح في تشييد بيته وسط الوحل المسيطر؛ سيتناول الشاي مع عائلته الجديدة في أكواب من الصيني بعد الظهر.

لكن البيت لم يكن بالنسبة لآدا وفلورا أكثر من كوخ بسيط وسط مقبرة مقفرة؛ تحت المطر بدا كل شيء داكناً ورمادياً. على الرغم من ارتياحهما لنهاية رحلتهما، لكن آدا وفلورا توجستا شراً من أنها انتهت في مثل هذا المكان الموحش.

كوّم الماووريون كل الصناديق والحقائب على الشرفة؛ وانصرفوا بعدما دفع لهم أليسدير ستيوارت أجرتهم. كان جورج باينز توجه

www.9ofy.com

قبل ذلك إلى أرضه التي تقع على مسافة أبعد في الوادي. بدأت آدا ترتجف.

رافق ستيوارت آدا وفلورا في جولة بين غرف البيت القليلة شملت المطبخ، وخزانة المؤونة، وقاعة الاستقبال. إنه بيت بسيط لكنه نظيف ـ عمة سيتوارت «موراغ» ساعدته في التحضير لوصول زوجته ـ على الجدران علقت بضعة رسومات عادية. احتلّ الموقد مساحة كبيرة في المطبخ، وعلى الطاولة وضعت وجبة باردة. تعب الرحلة هدأ غضب ستيوارت الذي بدا كثير الاعتزاز ببيته، عندما وصل برفقتهما إلى غرفتي النوم بلع ريقه وقال بخجل: «أرجو أن تأخذا راحتكما»، ولم يوضح لهما في أية غرفة تستطيعان توضيب أغراضهما. أشار عبر النافذة إلى منصة خشبية على بعد عدة أقدام في الفناء. «هذا البئر وعليه المضخة. وكما تريان لقد زرعت شجرة خوخ ودراق وتفاح؛ كل واحدة منها تحمل بضع ثمار في هذا الوقت، أواخر الصيف. هناك عمل كثير». والتفت نحو آدا بشيء من الأمل وقال: «أتمنى أن تجدي كل شيء مرضياً. يجب أن أقوم ببعض الأعمال قبل الليل. غداً أصحبك في جولة على أرضي...» وبلع ريقه متداركاً الخطأ وقال: «أقصد أرضنا». أحنى رأسه وقد امتلأ بالتوقعات والشكوك ثانية، وابتسم بتوتر وهو يستبدل قبعته بقبعة العمل وخرج في ضوء القمر.

جلست فلورا على حافة السرير وقد اتسعت عيناها وقالت: «لا أريد البقاء هنا».

ردّت آدا بالإشارة: «نحن مضطرتان لذلك».

«لن أبقى هنا».

سألتها آدا: «إلى أين نذهب؟»

توجهت فلورا إلى النافذة وآدا مشت خلفها، وقفتا تتأملان الليل وظلمة المكان الذي وصلتا إليه. «ماما أين المرحاض؟».

استمر تساقط المطر بغزارة في اليوم التالي. عندما استيقظت آدا وفلورا كان أليسدير ستيوارت قد خرج. نامتا مرهقتين وكانتا لا تزالان تشعران باهتزاز الباخرة. وجدتا على الطاولة خبزاً وبعض المأكولات المحفوظة. بعد تناول الطعام بدأت آدا بتفريغ الصناديق والحقائب، وتوجهت أولاً إلى الصندوق الذي يضم ألعاب فلورا وعدة دمى وملابسها. افترضت أن الغرفة التي تركهما فيها سيتوارت في الليلة الماضية هي غرفتهما. كانت الغرفة الثانية ممتلئة بأغراضه. لم يخطر ببال آدا أن ستيوارت يتوقع منها أن تعتبر غرفته هي أيضاً غرفتها.

عاد ستيوارت عند الظهر. كان الوحل يغطي حذاءه وبنطلونه بكثافة، وكانت تفوح منه رائحة العمل الشاق. توجه إلى ما وراء ستارة الركن الذي اعتبر حماماً وفيما كان يغتسل مستخدماً الطست والإبريق الأنيقين اللذين حملهما من سكوتلندا، قال يبلّغ آدا: «عمتي، ومرافقتها والكاهن سوف يصلون بعد قليل»، ولم يكن قد أنهى قوله حين التفتت آدا إلى النافذة ورأت الأشخاص الثلاثة، وهم ذوو قامات طويلة وأكتاف عريضة، يتقدمون في الوحل والسيل المنهمر محملين بالسلال.

موراغ، عمّة أليسدير ستيوارت، امرأة ضخمة وجهها يميل إلى الطول، على فمها شامة داكنة. عندما تبتسم يصبح وجهها ودوداً، لكنها لم تكن في الغالب تبتسم، ولذلك تبدو للمراقب العادي قاسية بالفعل. مرافقتها نيسّي كانت أصغر منها سناً، ولها بنية مشابهة، وكأنها مصنوعة على مقياس موراغ، لكن وجهها المستدير

كان خالياً من الغضون ولم يكتسب بعد تعبيراً محدداً. ثوباهما بسيطان، مصنوعان من قماش عادي بتفصيلة عملية، ولكل واحد قبة مخرّمة بسيطة، لا علاقة لهما بالموضة وليس فيهما قماش الطرطان السميك أو تلك الزخرفة المخملية المكلفة التي كانت آدا تحبها؛ السيدتان غطتا شعرهما بقلنسوتين مخرمتين، قلنسوة نيسي بيضاء وقلنسوة موراغ سوداء.

ابتسم الجميع وأحنوا رؤوسهم معبّرين عن سعادتهم لأنهم تمكنوا أخيراً من التعرّف إلى الزوجة الجديدة. تفحصوا جميعاً آدا وابنتها فلورا، وأعلنت العمة موراغ أنهما صغيرتان وخفيفتان، وقالت وهي تبتسم: «يجب أن نوصي أليسدير بأن يزيدك حجماً ـ الحياة هنا قاسية جداً ويجب أن نكون أقوياء لتحمّلها».

عرّفها الكاهن سبتيموس كامبل، الأخ الأصغر لموراغ، بنفسه قائلاً: «الكاهن الوحيد في هذه المنطقة حتى أوتاكي».

كان الهدف المعلن للزيارة التقاط صورة زفاف لابن أخ موراغ وزوجته. حين غادرت آدا الغرفة بدأ الكاهن يصرخ ويطارد العمة موراغ وقد أدخل ذراعيه الممتلئتين في ثوب الزفاف المزيّف ونظارته المستديرة الصغيرة انحرفت عن موضعها. موراغ وبّخته وأنّبته قائلة: «سبتيموس، اخلع هذا الثوب. اخلعه الآن». علا صراخ موراغ وهما يدوران حول الطاولة ويهزان أرجاء البيت. «انتبه لقدميك!».

صاحت نيسي بدورها: «انتبه لقدميك!» وكانت تعوّدت تكرار آخر ما تقوله موراغ، وموراغ تجاهلت الصدى.

صرخت موراغ: «سوف تمزّقه. توقف!» وصرخت موراغ: «توقف!». لكن الكاهن أصرّ واستمرت اللعبة وسط صيحات الانفعال والفرح. آدا اعتبرت المشهد مخيفاً لأنها عاشت في بيت

معروف بصمته وكانت الطفلة الوحيدة فيه بين عدد من الكبار. لجأت هي وفلورا إلى غرفة نومهما.

بعد قليل تبعت العمة موراغ ونيسي آدا وهما تحملان ثوب الزفاف الذي لا ظهر له والذي له أشرطة كرداء الجراحة ويستخدم للتصوير الفوتوغرافي. عندئذٍ فقط فهمت آدا أنهما تريدان منها وضع ذلك الثوب.

قالت لها العمة موراغ ببطء: «ارفعي ـ ذراعك ـ إلى ـ الأعلى». لأنها تصورت أنها طرشاء وتابعت: «اخفضي ذراعك». وقفت فلورا بجانب المرآة تراقبهما وهما تثبتان بدبابيس الشعر حجاباً مخرّماً طويلاً على رأس أمها. سيماء الفتاة الصغيرة المتألقة عادة صارت كئيبة؛ وجلست على السرير متجهمة. منذ وصولهما كان الجميع يهتمون بأمها؛ لا أحد يبدو مهتماً بها. لم تكن فلورا مشاكسة في الأحوال الاعتيادية، لكن هذه مناسبة خاصة.

أبدت موراغ إعجابها بالثوب قائلة: «جميل. التخريم دقيق جداً».

قالت فلورا بنحو مفاجىء: «والدي الحقيقي كان ألمانياً وكان مؤلفاً موسيقياً مشهوراً». توقفت العمة موراغ ونيسي عن متابعة عملهما والتفتتا إلى الفتاة الصغيرة التي أبدت بعض الزهو لأنها أثارت اهتمامهما.

ـ «لقد التقى بوالدتي في اللوكسمبورغ، حين كانت مغنية أوبرا هناك».

أشارت آدا إلى فلورا بحركة واحدة، لكنها كانت حادة: «هذا يكفي».

«لماذا؟» سألتها فلورا هامسة وقد تغضن وجهها المشرق بحماس متابعة الحديث. التفتت آدا بعيداً. موراغ ونيسي واصلتا عملهما في

www.9ofy.com

تثبيت الحجاب ما أثار غيظ فلورا التي عارضت ذراعيها وقالت بتبويز طفولي: «أريد أن أظهر في الصورة». من الواضح أنه لم يكن مناسباً على الإطلاق أن تظهر فلورا في صورة زفاف أليسدير ستيوارت؛ هذه الصورة للزوجين السعيدين فقط.

علاقة فلور بوالدتها كانت حميمة كانعكاس الصورة في المرآة؛ تشبه التكامل. آدا كانت غريبة في هذا المكان وفلورا هي وسيطتها، وقد تعلقت الطفلة بهذه المهمة بشغف عفوي. فلورا، مثل آدا حين كانت في سنّها، طفلة فاتنة، مبكرة النضج، اعتادت مرافقة الكبار، لكن فلورا كانت مرحة وأقل كآبة من آدا.

كانت لدى الطفلة موهبة في سرد القصص؛ كل أفراد العائلة يعرفون حكاياتها الطويلة، التي كان ويستون وآدا يرونها شطحات خيالية عند الطفلة المدلّلة، والعاملون في البيت والجيران يسمونها أكاذيب. كأن فلورا كانت تجد في مخيلتها تعويضاً عن غموض وأسرار الأهل الكبار الذين عاشت في وسطهم، وعن صمت والدتها المخيف. كانت فلورا هي السبب الرئيسي الذي جعل آدا توافق على مخططات والدها لتزويجها، لأنها رأت أنه من الأفضل أن تأخذ الفتاة بعيداً إلى حياة جديدة. ربما لا يعود للماضي تلك الأهمية في مكان مختلف، وفي بلاد جديدة مليئة بالفرص كما يُقال. أثناء الرحلة حين كانت تنتابها الشكوك، كانت آدا تقول لنفسها إنها تزوجت من أجل فلورا، على الرغم من أنها في الحقيقة كانت تغادر اسكوتلندا لأجل نفسها أيضاً.

كان المطر لا يزال ينهمر في الخارج عندما صاروا مستعدين للصورة. تساقط وابل من الرذاذ الكثيف فوق الغابة البعيدة، والوادي كله بدا غارقاً في الضباب. حملت نيسي شمسية فوق آدا

حين خرجتا إلى الممشى الخشبي لتتوجها إلى حيث وضعت الكاميرا أمام مقعدين. كلتاهما زلقت وهي تمشي. نيسي قالت لستيوارت حين وصلتا إلى المنصّة: «كدت أقع، الألواح صارت زلقة للغاية». كانت هناك مجموعة من المستوطنين الذين أتوا للمساعدة أو لرؤية العروس على الأرجح. أليسدير ستيورات نظر عبر الكاميرا بتمعّن إلى آدا التي جلست وفي يدها باقة متدلية وخلفها ستارة رسم عليها مشهد طبيعي بشمس مشرقة يشبه تسكاني أكثر من هذا المكان الكئيب. تقدم ستيوارت للجلوس بمحاذاة آدا، توقف ليرفع قبعته ويمشط شعره إلى الخلف مرة أخرى، كان كثير الاعتزاز بوصفه الجديد كزوج وكان سعيداً أيضاً لمظهر آدا الجذاب في الثوب المخرّم. التفت ليبتسم لزوجته، لكن لمعان البرق شق السماء وغمر المكان سيل غزير من المطر. تنفست آدا بعمق ونظرت إلى الكاميرا بتجهّم ولم تسمع عبارات التشجيع التي قالها المصوّر.

الشمعة المضاءة في غرفة النوم أيقظت فضولية العمّة موراغ التي لا حدود لها. كانت سعيدة لأنها كلّفت الاهتمام بالطفلة؛ لأنها وحدها معها في الغرفة، فهي قد تستطيع الحصول على بعض المعلومات المفيدة التي تتعلق بولادة فلورا والعار الذي لحق بوالدتها.

قالت موراغ لفلورا: «أعتقد أنها التقت بوالدك في اللوكسمبورغ».

ـ «أجل، في النمسا، حيث كان يتولّى قيادة الأوركسترا الملكية...» قطّبت موراغ جبينها وبدت حائرة بين التصديق والشك. الطفلة تخلط الأمور. «وأين تزوجا؟» سألتها موراغ وهي تنظر من خلال النافذة لتتأكد أن أحداً لا يقترب من الغرفة.

ردّت فلورا بصوت صار أكثر عمقاً ودرامية: «في غابة كبيرة، وجنّيات حقيقية كنّ أشبينات العروس، وكل واحدة كانت تمسك بيد قزم».

رجعت موراغ قليلاً إلى الوراء وهي تنظر إلى فلورا باستنكار لطيف. ملّست فلورا شعرها إلى الخلف.

أحسّت فلورا بشك موراغ فقالت: «لا، كنت أكذب، لقد تزوجا في كنيسة بلدة صغيرة تقع قرب الجبال».

«وأية جبال يا عزيزتي؟»

«البيرينيه».

«آه، أنا لا أعرفها». وانحنت موراغ إلى الأمام مرة جديدة وهي تتخلّى عن إنكارها.

«كانت أمي تغني باللغة الألمانية وكان صدى صوتها ينساب عبر الأودية... لكن ذلك كان قبل الحادثة».

قالت موراغ: «آه، وماذا جرى؟» كانت ترغب في سماع المزيد لأجل أليسدير ابن أخيها بالطبع. «في أحد الأيام، عندما كان والدي ووالدتي يغنيان في الغابة، هبّت عاصفة كبيرة فجأة. لكنهما كانا مستغرقين في الغناء بشغف بحيث أنهما لم يلاحظا شيئاً، ولم يتوقفا حتى عندما بدأ المطر يتساقط، وعندما ارتفع صوتاهما في تأدية المقطع الأخير من اللحن الثنائي شقت السماء صاعقة هائلة ضربت والدي فاشتعل كأنه مشعل. في اللحظة نفسها التي مات فيها والدي، صارت والدتي خرساء!» وخفضت الفتاة صوتها وهي تبوح بوحيها: «ولم تقل ـ بعد ذلك ـ كلمة واحدة».

تأوهت موراغ وقد تلقت صدمة فعلية، بعدما استسلمت لعالم

مخيلة فلورا المبهرج. «يا إلهي! ولا كلمة؟» حركت فلورا رأسها تؤكد ذلك، فوافقت موراغ قائلة: «من وقع الصدمة، هذا يحدث بالفعل».

لكن حكاية فلورا التي أجبرت على تأليفها قطعها رجوع الآخرين الذين بلّلهم المطر تماماً كالزوجين في الحكاية. وقفت العمة موراغ وملامح الأسى بادية على وجهها، وتوجهت لمساعدة نيسي في نزع ثوب الزفاف المزيف لآدا الذي كان مشبعاً بالمياه، قالت هامسة وهي تنظر إلى آدا بطريقة مختلفة: «فظيع... فظيع...» وآدا التي ابتلّت حتى العظام، والتي آلمها ذلك الزيف، بدأت تنزع الثوب عن جسمها بقوة ممزقة الشرائط والقماش. عبرت موراغ ونيسي عن استيائهما وانزعاجهما لكن ذلك لم يؤثر على آدا. كانت أفكارها في مكان آخر. مشت نحو النافذة الصغيرة وأخذت تحدّق بإصرار في المطر المتساقط، وقد تملكها الخوف على البيانو. كل أحداث ذلك النهار لم تمنعها من التفكير فيه. تخيلته على الشاطىء ومياه البحر تحيط بأرجله المحفورة، وهو هناك قابع بلا حماية في الليل الداكن الرطب. لم يذكر أليسدير سيتوارت شيئاً عن اتخاذ أية تدابير لنقله. خافت آدا من أن يكون قد قرّر تركه هناك على الرمل كتعبير عن رفضه لماضيها. يجب أن تكون هناك طريقة لإنقاذه. سوف تجد طريقة لإنقاذه.

كانت فلورا تتناول قطعة خبز محمصة في صبحية اليوم التالي عندما دخل أليسدير ستيوارت إلى غرفة النوم. رفع صرة مبلّلة من القماش المخرّم عن الطاولة ـ إنه ثوب الزفاف ـ ثم وضع الصرة منزعجاً. أخذ يراقب آدا وفلورا وهما متشابكتا الأيدي وغارقتان في تبادل الحديث. شعر أنه دخيل بينهما وهو الذي لم يكن مرتاحاً

www.9ofy.com

منذ البداية لطريقتهما الخفية في التخاطب ولا لأنوثتهما، فازداد توتره لإحساسه بالعجز عن المشاركة في عالمهما الحميمي. حين بدأ يقترب منهما انفصلتا وجلست كل واحدة منهما بشكل متصلب، كأنهما انتبهتا للتغير الملحوظ في الجو. فك ستيوارت بعض الحلقات التي تتدلى منها الستارة الفاصلة ثم أعادها إلى مكانها بارتباك.

قال بنبرة اعتذار: «سأرحل لعدة أيام. هناك قطعة أرض أعجبتني وقد أشتريها من الماووريين بسعر معقول جداً». ثم نظر إلى قدميه بحرج وقال مغيراً الموضوع: «أرجو أن تتمكني في هذه الفترة من ترتيب أمورك؛ قد نستطيع بطريقة ما أن نبدأ ثانية». والتفت نحو آدا مفعماً بالأمل: «أليس كذلك؟». أحنى رأسه مودعاً والتفت بعيداً بحياء عندما أحنت آدا رأسها بالمقابل. «إذا واجهتك أية مشكلات تستطيعين اللجوء إلى السيد باينز، جورج باينز، الذي التقيت به. بيته ليس بعيداً في الوادي ـ تركت لك خارطة للمكان».

رحل ستيوارت على ظهر حصانه. كان تعويد زوجته على حياتها الجديدة أكثر صعوبة مما توقع. قامت العمة موراغ البارحة بتعريف آدا إلى المهمات الروتينية التي اتفقا على أن تكون مجال عمل زوجته: الغسيل، جلب المياه، إشعال النار، الخياطة، إعداد الطعام، حديقة الخضار، الدجاج... بدت اللائحة طويلة فيما كانت موراغ تعدّدها بعناية، وآدا لم تظهر أي تخوّف منها. قال في نفسه إنه مضطر لأن يعطيها مزيداً من الوقت.

عندما رحل أليسدير ستيورات لم تكن آدا تفكر إلاّ في البيانو. حياتها ليس لها طعم بدونه، والساعات تمرّ بصمت بطيء. عندما بدأت القيام بمهماتها ـ أين مكان طست الغسيل الذي أشارت إليه

عمة سيتوارت؟ ـ كانت تفكر في التوجه إلى السيد باينز لتطلب منه أن يصحبها إلى الشاطىء لترى ما إذا كان الموج جرف البيانو بعيداً. بدا لها باينز لطيفاً وهادئاً وربما يوافق على طلبها. تمعنت آدا في الخارطة التي تركها ستيوارت على طاولة المطبخ. ساعدت فلورا على ارتداء معطفها الفضفاض وقلنسوتها، وارتدت بدورها معطفاً أسود مكشكشاً يساعدها على المشي براحة، وخرجتا في الحال تجتازان الألواح المتقطعة التي وضعت فوق الوحل لتكون ممراً يفضي إلى البيت، وغالباً ما كانتا تخطئان في تحديد موقع الألواح فتغوص أرجلهما في مستنقع الوحل. لم تر آدا في حياتها كمية وحل بهذه الكثافة وأكثر سواداً ونتانة من هذا المكان.

كوخ باينز كان في فسحة أكثر إشراقاً واخضراراً من الأرض القاحلة الكئيبة التي تحيط ببيت أليسدير ستيوارت. لم يجد جورج باينز مبرراً لاقتلاع الأشجار والنباتات من أرضه. كانت الطيور تشدو، وآدا لاحظت وجود طائر يشبه الببغاء ريش صدره أخضر زاه كأنه مصبوغ. توقف المطر وأشعة الشمس غمرت سطح الكوخ المنحدر والذي شيّد بالقش. هناك حصان أغبر مقيد إلى جانب الكوخ.

اقتربت آدا وفلورا من الباب الذي كان مقسوماً كباب الإسطبل، وكان القسم الأسفل مفتوحاً؛ ودقتا. انحنت فلورا لتنظر ما في الداخل فرأت رجلين يغطيهما سروال داخلي يتقدمان نحو الباب. وقفت فلورا بسرعة فيما كان باينز يفتح الباب. إنه منتصف النهار تساءلت آدا في أي وقت يعتقد هذا الرجل أن ارتداء ثيابه الكاملة يكون مناسباً. كتبت بعض الكلمات بسرعة على دفترها ذي الإطار الفضي، وأعطته الدفتر. قلّبه باينز في يده ثم قال لها بدون حرج أو تأثر: «لا أستطيع القراءة».

دهشت آدا من إقراره الصريح بجهله الذي تعتبره جديراً بالأسى، وبدأت تنقل لفلورا ما تريد بالإشارة.

ترجمت الفتاة الإشارات قائلة: «أرجوك خذنا إلى الشاطىء حيث رست السفينة».

ردّ باينز بشكل مفاجىء «آسف»، وتابع يقول وآدا وفلورا تحدقان فيه بهدوء: «لا أستطيع ليس عندي الوقت لذلك». ثم ودعهما وأغلق الباب.

طالما أنها لا تعرف شخصاً آخر تستطيع اللجوء إليه قررت آدا أنهما ستنتظران خروج باينز من بيته. كانت حاسمة في إصرارها: يجب عليه أن يساعدها. جلستا في مواجهة الباب. بدأت فلورا تقصّ على آدا حكاية عن بيت صغير يقع في فسحة بين الأشجار يعيش فيه رجل شرير. «يخرج من بيته ليبحث عن الأطفال التائهين، فيقدم لهم الحلوى كي يطمئنوا ويفرحوا، ثم يصحبهم إلى بيته. هناك يطهو الواحد منهم بعد الآخر فوق نار موقده الكبير. الأطفال يراقبونه وهو يطهو كل واحد منهم ببطء. صراخهم مرغب. ثم يبدأ بالتهامهم ورمي عظامهم على الأرض. إنه شرير». ابتسمت آدا لطفلتها وهي تفكر في البيانو وفي الوقت الذي سيخرج فيه جورج باينز من بيته.

خرج باينز أخيراً وهو يحمل سترته على ذراعه، وكانتا لا تزالان تنتظرانه بصبر. تفاجأ باينز حين رآهما جالستين بهدوء كأنهما شبحان في الغابة يريدان إيذاءه. نظرتا إليه بترقب. لم يعرف كيف يتصرف إزاء إصرارهما.

«لا ـ أستطيع ـ أن ـ آخذك ـ إلى ـ هناك» قال ذلك لآدا بالأسلوب البطيء الذي تكرهه. «لا أستطيع». رفع السرج عن

درابزون الشرفة وألقى به على ظهر الحصان، وهو يسترق النظر إليهما. وقفتا تراقبانه عن كثب، بدون محاجة، لكن بعناد، تريدان منه أن يغيّر رأيه. رآهما متشابهتين بدرجة غريبة، والفتاة بدت تصغيراً جذاباً لأمها. رافقتاه معاً عندما تحرك بوجهيهما الشاحبين اللذين كانا محدّدين بإطار القلنسوتين السوداوين المتشابهتين. أيقن في النهاية أنه لا يملك إلاّ الاستسلام والإذعان أمام إصرارهما. فكّر أنه لو تركهما تجلسان هناك فلن تغادرا مكانهما وهو لم يكن يستسيغ بقاءهما لمراقبته باستمرار. بدافع هذا الخوف وقليل من الشفقة وبعض الفضولية اتخذ باينز قراره في مساعدتهما. قادهما إلى الشاطىء وهو على ظهر حصانه، والرحلة كانت أسرع بكثير من رحلة المجموعة التي حملت أغراض ماك غرات.

بأعجوبة كان البيانو مازال في موضعه، كأنه كتلة هائلة من الخشب جرفتها المياه إلى الشاطىء وبدا محمياً في صندوقه والقماش المشمّع الذي يغطيه. أسرعت آدا قدر الإمكان وهي تنزل من المنحدر الشاهق إلى الشاطىء، وكانت تنورتها بأسلاكها المنتفخة تعيق لقاءها السعيد. حين وصلت إلى الصندوق أخذت تنزع، بيديها العاريتين الألواح الخشبية التي حملت اسمها، بتوق شديد واندفاع مفاجىء لفتا انتباه جورج باينز. ساعدها في تدبير مقعد بسيط وعندها بدأت آدا تعزف، البيانو استرجع صوته وكذلك آدا. شعرت أنها تستطيع أن تتنفّس ثانية كأنها تحررت.

كانت السماء ذات زرقة واهنة غطتها خصلات ممتدة من السحب طوال فترة بعد الظهر. انتبه باينز للتغير الكبير الذي طرأ على آدا ماك غرات. كلها تغيرت. أغمضت عينيها وأخذت تتمايل وهي تعزف، ارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة. بدت مفعمة

www.9ofy.com

بالحيوية، مبتهجة، متألقة، مختلفة عن تلك المرأة الكالحة والقلقة التي سبق له أن تعرف بها.

خلعت فلورا تنورتها وأخذت تمرح على الرمل الرطب بسروالها الداخلي؛ شعرت أنها خفيفة وحرة وابتكرت رقصة صاخبة وراحت تلوّح بأوراق الأعشاب البحرية متأثرة بسعادة والدتها. رقصت وركضت وقفزت واستدارت على وقع عزف آدا. لم يسبق لباينز أن رأى إناثاً يتصرفن بمثل هذه الحماسة العفوية. كان مأخوذاً بعزف آدا الانفعالي ووجد نفسه يقترب منها وهي منحنية بجلال وحرارة فوق المفاتيح.

عزفت أنغاماً متسارعة وألحاناً رشيقة ومرتعشة، قد تملكتها طاقة خفية تشدّ وتحرّك كالتيار العنيف. شعر جورج باينز أنه أسير سحرها. لم يسمع من قبل عزفاً مماثلاً، مشبعاً بالرغبة إلى هذا الحد؟ لم يرَ من قبل أحداً يعزف على آلة موسيقية بمثل هذا الاستغراق والشغف. لم يستطع رفع عينيه عن تلك المرأة المستلبة بصوت الموسيقى التي كانت تعزفها. كانت تلك اللحظة رائعة الجمال، هناك على الشاطىء، والأمواج تتدافع والطيور البحرية تحلّق فوق رؤوسهم. استمرت آدا في العزف، بمصاحبة فلورا أحياناً، لكنها عزفت بمفردها في معظم الوقت فيما ظل جورج باينز مسمّراً مكانه يراقبها ويستمع. بدت الموسيقى خارقة لباينز الذي رأى آدا وفلورا أيضاً بصورة ملاكين. كان شديد التأثر يكاد يصرخ من السعادة أمام هذا الجمال النادر.

فيما واصلت آدا عزفها قررت فلورا أن تصنع حصاناً بحرياً وبدأت برسم مخلوقات صغيرة بتجميع أربع أو خمس أصداف، لكن باينز قال لها إنها تستطيع أن تبتكر كائناً كبير الحجم

يستطيعون رؤيته من أعلى التلة. وترك نفسه يطيع أوامر الفتاة في جمع الأصداف ووضعها حيث تريد. مشاركته لهذه الفتاة في حلمها أمر غريب، كما أنه أمر غريب وباعث على النشوة أيضاً وجوده بمفرده على الشاطىء مع هاتين المرأتين. وجد صعوبة في التحرك بسبب الموسيقى لأنه لم يستمع إليها بأذنيه فقط بل بكل جسمه فتركها تنساب في داخله وحملته على الاستماع والصمت.

فيما كانا يعملان بدأت فلورا تقص على باينز حكايات من الرحلة الطويلة عبر الوشاح الأزرق: «وكانت هناك أسماك تطير وقد حطّت في المقلى الذي حضرناه لطبخها». ترك جورج باينز فلورا تسرد حكايتها دون أن ينتبه فعلياً لما تقول لأنه كان مأخوذاً بعزف آدا.

عندما بدأت الظلال تزداد كثافة على الرمال، جمع باينز الألواح التي نزعت في الصندوق. لم يكن قادراً على نقل البيانو بمفرده لكنه كان حريصاً على حمايته. انتبهت آدا لباينز وهو يتقدم نحوها وأدركت أن وقت الرحيل قد حان، فتغير مزاجها واستمرت في العزف بعناد لبعض الوقت ثم توقفت فجأة وأنزلت الغطاء على المفاتيح. بروح عدائية مفاجئة ارتدت معطفها وقلنسوتها، وتحرك الجميع للرجوع إلى البيت.

- ٤ -

كانت آدا في الثانية عشرة عندما قرّر ويستون ماك غرات أنها يجب أن تتلقى دروساً في العزف على البيانو، وأخبر بذلك محاسبه، ومحاميه السيد بيرسلي، ومدوزن البيانو ماك غريغور، وكل واحد كان يلتقي به في حانة البلدة؛ كان ذلك قبل أربع سنوات من وصول ديلوار هوسلر، وهو شاب في الثالثة والعشرين، إلى محطة إدينبرة، وانتقاله من هناك بالعربة إلى ملكية ماك غرات.

لم يكن ويستون ماك غرات هو الذي اتصل به وعينه، بل بيدسلي والمحاسب اللذان أخذا على عاتقهما مهمة البحث عن مدرس، وأعلنا ذلك في عدة جامعات صغيرة لأنهما أرادا العثور على شاب متواضع ولا يأخذ أجراً كبيراً. لم يتلقيا سوى رد واحد، لذا حسم الأمر دون نقاش، والسيد هوسلر وافق على تعليم الموسيقى واللغة الفرنسية بدءاً بمرحلة تجريبية تصل إلى شهرين.

لم تعد المزرعة التي وصل إليها الشاب تبعث على الاعتزاز كعهدها عند ولادة آدا. أحد جانبي البوابة وقع عن مفصله والطريق إلى البيت امتلأت بالحفر. ماك غرات، الذي كان شديد الولع

بالتفاصيل، لم ينتبه على ما يبدو للخراب؛ تقبّل وجوده برضا كما تقبل تقدمه في السنّ، معتبراً أنه من الطبيعي أن تتدهور حالة المكان كما تتدهور حالته. وبما أنه تعوّد أن يشيح بوجهه عن كل شيء لا يعجبه ويتخيل بطفولية أن المشكلة انتهت، لذلك عندما بدأت ديون المزرعة تزداد لم يعد يهتم لمراجعة الحسابات، إلى أن توصّل تدريجياً لرفض مراجعتها كلياً. بايك، المحاسب، كان رجلاً عاقلاً وحنوناً عنده ثمانية أولاد، فهم حالة ماك غرات لكنه أراد في الوقت نفسه حماية الابنة الصغيرة، لأن من يطّلع على الحسابات يدرك في الحال أن الإفلاس أمر محتوم، وبايك خاف على الطفلة التي يقال إنها لا تنطق ولن تستطيع أن تكسب رزقها. أقنع ماك غرات بفتح حساب توفير لدوطة الفتاة وتعليمها، وهذا الحال لن يتأثر بمصير الملكية. من هذا المبلغ كان سيدفع أجر ديلوار هوسلر.

وصل ديلوار في وقت متأخر لم يسمح له بلقاء تلميذته الصغيرة؛ كانت غرفته في الطابق الثالث باردة ومتسخة، وبدأ الخيال الذي نسجه حول هذه المهمة يتلاشى، إنه لم يفكر في ازدياد البرد في هذه المنطقة الشمالية ولا بانطوائية الاسكتلنديين الذين تصوّر أنهم بنفس الرحابة والودية.

كانت لغته الأولى الإنكليزية، ومع أن عائلة والده ألمانية الأصل، لكن لا هو ولا والده، القسّ اللوثري، زارا تلك البلاد. كان الابن الثالث وعنده أختان، واحدة أكبر منه والثانية أصغر منه. أراد ديلوار أن يصبح فناناً لكن أوهامه الكثيرة جعلته ينجح فقط في المظهر الخارجي. كان بقبعة مخملية على شعره الطويل، ويرتدي صدرية لها حزام أرجواني، ومعطفاً أسود يصل إلى الركبتين، كان يتحرك بشكل لافت في الهواء. هذا المعطف خاطته أخته بتفصيلة متميزة، كان ضيقاً جداً على الصدر والجانب الأيمن من القبعة كان

www.9ofy.com

أطول بإنشين من الجانب الأيسر. ديلوار قدّر الجهد الذي بذلتاه وأعلن أن مظاهر الغرابة في التفصيلة إضافات مبتكرة ومختلفة. كانتا تحبانه كثيراً، وقد تملكتهما الغيرة من الفتاة الإسكتلندية التي ستحظى بكل اهتمامه.

مضى الأسبوع الأول دون أن يلتقي ديلوار آدا، في اليوم الثالث لوصوله قال له ماك غرات إن ابنته خجولة ولم تتعود الاختلاط بالناس، لكنها أبدت موافقتها على النزول إلى غرفة الموسيقى في الأسبوع التالي. وهو في هذه الأثناء يستطيع تمضية وقته كما يشاء، يعزف على البيانو، ويرتب أموره بشكل عام.

في اليوم الأول من الأسبوع الثاني نزل ديلوار إلى غرفة الموسيقى وتفاجأ بوجود الفتاة في انتظاره؛ كانت نحيلة وأنيقة المظهر، وبدت في الثانية عشرة لكنه كان يعرف أنها في السادسة عشرة. ملامحها جدية، ولا تخلو من التجهم، وكأن ذلك انعكس أيضاً على اختيارها لثوبها المتزمت الذي كان مع ذلك مصنوعاً من قماش مكلف ومصمماً بذوق رفيع. كان التخريم الأبيض على القبعة وعلى طرفي الكمين. ناعماً، ولفت انتباهه أنها هي أيضاً بدت في غاية الرقة بيديها الصغيرتين وعنقها الطويل والنحيل. إنها صورة مصغرة ومتكاملة لامرأة ناضجة.

عندما اقترب منها ديلوار ليسلم عليها، فكّت علبة معدنية نحيلة كانت معلقة بشريط حول رقبتها، وتناولت قلماً فضياً معلّقاً بجانبها. داخل العلبة توجد مجموعة من الأوراق الصغيرة المرتبة، كتبت آدا على الورقة الأولى بسرعة وسلمتها إلى ديلوار وتراجعت بحذر إلى حيث كانت تقف بجوار الطاولة في الطرف البعيد للغرفة. كان مكتوباً على الورقة: «أنا لا أتكلم».

مضى أسبوعان لم يستطع فيهما ديلوار إقناع آدا بالتحرك من مكانها بجوار الطاولة، لكنه رأى تطوراً في موقفها في الأسبوع الثاني عندما غادرت الغرفة وعادت تحمل كرسياً من غرفة الطعام وضعته بجانب الطاولة وجلست عليه.

على الرغم من غرابة الموقف وجد نفسه مرتاحاً وميالاً للإكثار من الكلام، فكان يتكلم عن الاثنين بين وصلات العزف. لكن في كل مرة كان يطلب منها أن تعزف على البيانو كانت ترفض بخجل وتحني رأسها، وذات يوم تركته وخرجت من الغرفة. ديلوار كان عازفاً من الدرجة المتوسطة؛ مشاعره رقيقة ويحسن ضبط العزف؛ كان واسع الاطلاع لكنه لم يحفظ سوى مقدمات المقطوعات.

بعد الظهر كانت آدا توضب شعرها تحت قلنسوتها وتنتعل حذاءها العالي وترتدي معطفها، وتتنزه مع ديلوار في أرجاء المزرعة، وحتى في المزارع المجاورة أحياناً، ويرجعان بجيوب ممتلئة بأوراق وبذور وحشرات وحجارة تلفت انتباههما. كانت آدا تبتكر من هذه الأشياء جميعاً أشكالاً من الحيوانات. رسمت مرة سنجاباً مما جمعاه خلال أسبوع، وكان الرسم في غاية الدقة حتى أنها وضعت طبقات من الأغصان الصغيرة بدت كالفرو الذي يغطي جسم السنجاب.

تفاجأ ديلوار، وهما يتنزهان ذات مرة، عندما أمسكت آدا يده، لكنه فرح لذلك. لو أنها كانت ذات بنية ناضجة تتناسب وعمرها كان سيضطرب من هذه المبادرة الودية، لكن ديلوار لم يشعر إلا بالرضا وكأن رفيقته الصغيرة الصامتة تفحصت روحه من الداخل وقررت أنه جيد.

وهكذا تطورت الدروس. بدأت آدا تدريجياً تعزف بوجود ديلوار، على الرغم من أنها كانت في الشهر الأول لا تعزف إلاّ عندما تتأكد أنه في مكان بعيد ولا يستطيع سماعها. ذات يوم كانت تعزف لحناً تعلمته بالسماع، وهو لحن شعبي يردده والدها غالباً؛ عندما انتهت التفتت نحو الباب ورأت ديلوار واقفاً هناك ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة ورفع يديه يصفق عدة مرات، لكن آدا كانت أكثر تواضعاً من أن ترد على إعجابه. نزلت عن مقعدها وأرادت مغادرة الغرفة لكن ديلوار قال لها بحزم: «اليوم ستبدئين بتعليم قراءة الموسيقى».

تعلم النوتة الموسيقية كان مفاجأة لآدا. لم تتصور أن لغة البيانو المكتوبة قد تكون بهذه الدقة والتعقيد. كانت تحب قراءة الكتب لما تضمه من حكايات لأن القصة البارعة الحبكة تحملها إلى حياة أخرى، إلى عوالم بعيدة عن عالمها. وفي قراءة الموسيقى أحست بانتقال مشابه إلى عالم جديد ومختلف له لغته الخاصة والجميلة، والتي لم يكن يفهمها في البيت إلاّ هي وديلوار.

بعد تخلصها من ارتباكها، أثبتت آدا أنها تلميذة بيانو جيدة. اقتنع ديلوار هوسلر أنه ليس هناك شيء لن تستطيع استيعابه؛ وفكر بحرارة أنها قد تصبح ذات يوم بمستواه. كانت لا تزال تعزف في حضوره بتحفظ نابع من خجلها وتكتمها. لكن ديلوار لم يرَ عيباً في ذلك؛ هو نفسه كان عازفاً يفضل الالتزام والدقة على الانفعال والتباهي الدراماتيكي.

صارت دروس البيانو تتقدم عند آدا على اهتماماتها الأخرى الأكاديمية والمنزلية على حد سواء. لم يبدأ ديلوار بتعليمها الفرنسية، كما كان ينبغي؛ عندما التقى بآدا شعر الشاب بحرج أن يطرح

عليها لغة جديدة يفترض فيها أن تتعلم كيف تتحدث بها.

ويستون ماك غرات رأى إلى الآخر بشيء من القلق؛ كانت ابنته مولعة بالبيانو منذ البداية، وفكرة التدريب المدورس لم تفدها شيئاً سوى أنها أكدت على الطبيعة المتطرفة لعزفها، على الرغم من أنها أضافت النظام والدقة لأسلوبها. لكنه كان يستطيع بسهولة أن يدفع هذه الأفكار بعيداً. إن سعادة ابنته الوحيدة تأتي في مقدمة اهتماماته. ديلوار هوسلر مؤهلاته جيدة، واستطاع أن ينسجم مع العائلة، وآدا مرتاحة له.

مضت عدة أيام على ذهاب آدا مع باينز وفلورا إلى الشاطىء قبل عودة أليسدير ستيوارت من جولته. عاد عبر الغابة وكان يركب حصاناً قزماً مناسباً لفلورا. اقترب الحصان من البيت وهو يخطو بنشاط على الوحل الذي بدأ يجف. جال ستيوارت بنظره على الأرض من على ظهر حصانه؛ يجب أن يعود إلى الحرق والقطع في وقت قريب. من المؤكد أن آدا سترغب في زيادة المساحة المخصصة لزراعة الخضار، وعليه أن يجد الوقت لزراعة مرجة هذه السنة.

سمع غناء وهو يقترب من البيت. هذا صوت فلورا. كانت الفتاة تغني بصوت نحيل تناهى إلى مسمعه كأنه يحييه، والصوت أعجبه لأنه جعله يشعر بإلفة لم يتعودها في هذا المكان. ترجّل عن حصانه محاولاً ألا يحدث صوتاً. كانت تغني لحناً حزيناً لم يسمعه من قبل. عندما دخل رأى أن فلورا لم تكن بمفردها. كانت آدا تجلس إلى طاولة المطبخ تحرك يديها بخفة على الخشب كأنها تعزف على مفاتيح بيانو خفي. قال ستيوارت بهدوء: «مرحبا». توقفت آدا وفلورا في الحال عن متابعة تمثيليتهما وابتعدتا عن

www.9ofy.com

الطاولة. ردّت فلورا بمرح: «مرحبا»، وبدت كأنها مندهشة لعودة زوج أمها.

لم تعجبه نظراتهما، ولا الصمت الشاسع الذي يفصله عنهما؛ نزع ستيوارت قبعته وحك ذقنه التي لم يحلقها منذ أيام وتوجه إلى الطاولة ليرفع القماش المخرّم عن المكان الذي أعادت آدا تغطيته به. مرّ بأصابعه على شكل مرسوم بالحفر والإشارات؛ إنه شكل لوحة مفاتيح العزف في البيانو محفور على الطاولة. ذهل ستيوارت لهذا التشويه للطاولة التي صنعها بنفسه، واستنتج مباشرة أن آدا هي المسؤولة عن ذلك؛ حفرت اللوحة ثم بدأت تعزف عليها. أعاد الغطاء إلى مكانه وخرج باستياء طفولي تحول إلى غضب من قلّة اهتمام عائلته الجديدة به.

لم تكن آدا تقصد إثارة غضب زوجها. كانت فقط مشتاقة إلى البيانو، كما أنها تضايقت من مضايقة فلورا وإلحاحها بمتابعة عادتهما القديمة بالغناء كل يوم بعد الظهر، بعد الانتهاء من الأعباء المختلفة. أصرت فلورا أن الطاولة هي بيانو بالفعل، وأن لوحة المفاتيح الخشبية تصدر أنغاماً رائعة. رسمت الطفلة اللوحة على الطاولة وطلبت من آدا أن تعزف عليها عندما تعبت من ضرب الخشب بأصابعها بدون تناغم. شعرت آدا بإحباط من الرسم التقريبي الذي خطته فلورا، وتولت بنفسها حفر لوحة مفاتيح صحيحة بواسطة سكين المطبخ، وتركت فلورا تدوّن اسم كل مفتاح: وسط سي، سي، حاد دي، دي، حاد إي، إف، إف، حاد...» وهكذا حتى أعلى السلم الموسيقي. ولم يخطر في بالهما وجود أي خطأ في عملهما، حتى لفت ستيوارت انتباههما بردّة فعله.

كان ستيوارت مستاء لأنه شعر مباشرة عند رجوعه أن الجهد الذي بذله لمساعدة آدا وفلورا على الإحساس بالراحة في بيته لم يكن كافياً؛ وتضاعف قلقه بسبب اللوحة التي حفرتها آدا. بدأت الإشارات المحفورة تكبر في خياله حتى بدت له أنها دلالات مشؤومة لشيء مختلف.

توجه ستيوارت في اليوم التالي لزيارة عمته موراغ في مقر الإرسالية. كان المقر مبنياً بصلابة وثبات أكثر من سائر الأبنية في المنطقة؛ له درابزون خشبي مصقول، وأنواع خشبية سميكة، وستائر مخرّمة، والجدران مغطاة بورق الجدران، وهناك لوحات صغيرة اشتغلتها موراغ بالإبرة عليها مختارات من الإنجيل زينت بها رفّ الموقد. قاعة الاستقبال تشبه مثيلاتها في البيوت الاسكتلندية وهي أكثر امتلاء بالأثاث من أية قاعة عرفها ستيوارت. كان يجد محتوياتها مريحة.

انهمكت الفتاتان هيني وماري بالخياطة فيما راح ستيوارت يساعد عمته في صنع أجنحة للملائكة من أجل مسرحية عيد الميلاد.

لم يتعوّد أليسدير سيتوارت على الماوويين، على الرغم من أنهم ساعدوا في بناء بيته وفي كل عمل تقريباً حاول القيام به. لكن عمته موراغ ونيسي نذرتا نفسيهما لهذه الارسالية لهداية هؤلاء الوثنيين للمسيحية وكانتا تعيشان بارتياح بين الذين آمنوا منهم؛ استطاعتا التآلف مع أساليبهم وعاداتهم، التي رأى أليسدير ستيوارت أنها لا تزال همجية على الرغم من بعض التعديلات التي طرأت عليها.

هيني وماري كانتا من الشباب الراسخ الإيمان في الارسالية.

لاحظ ستيوارت أن ملابسهما مرتبة وذات طابع أوروبي. لقد تعلمتا أصول الخياطة جيداً، وهيني تعوّدت أيضاً مجاملة موراغ بتمشيط شعرها وتزيينه بتجعيدات صغيرة وكانت تلك وسيلة التجميل الوحيدة التي تلجأ إليها أحياناً. كانتا مدرّبتين على السلوك المنزلي المهذب، على الرغم من أنهما كانتا تندفعان أحياناً بإظهار المودة لبعضهما البعض، أو تدخنان بالغليون المصنوع من الصلصال الذي أدمنتا عليه.

عندما دخل ستيوارت ثانية بعد خروجه لجلب بعض الحطب دخل وراءه جورج باينز. لم يكن باينز من الذين يتردّدون باستمرار على المقرّ، فهو لا يأتي عادة إلاّ للقيام بعمل ما؛ لم يستطع التقيد بالمجاملات الاجتماعية التي تمسك بها ستيوارت وغيره من المستوطنين. لذلك كان يفضل دائماً أن ينتظر ويتناول الشاي في المطبخ.

توقفت موراغ عن الخياطة ونظرت بتمعن إلى ابن أخيها وهو يناول نيسي بعض الأعمال اليدوية. «حسناً، يبدو أنك أقلعت عن تمشيط شعرك، وهذا جيد، كنت تبالغ في ترتيبه». توردت وجنتا ستيوارت قليلاً. تابعت تقول وهي ترفع القطعة التي بين يديها: «انظر، من هذه الفتحات يدخلون رؤوسهم ـ أريه ذلك يا نيسي... في المسرحية ـ سيكونون ميتين. سيستخدم القسّ دم حيوان. لا شك أن المشهد سيكون دراماتيكياً للغاية».

ردّدت نيسي: «سيكون دراماتيكياً للغاية».

أمرت موراغ مرافقتها بتحضير الشاي. حين نهضت نيسي انحنى ستيوارت نحو عمته وبدا مهموماً ومتردداً، سألها قائلاً: «عمتي، ما رأيك بالذي يعزف على طاولة المطبخ على أنها بيانو؟»

سألته موراغ باستغراب: «على أنها بيانو؟»

«هذا غريب أليس كذلك؟ أعني الطاولة ليست بيانو؟ ولا يصدر عنها أي صوت».

التفتت موراغ إلى نيسي وهي تقدم كوباً من الشاي إلى ستيوارت وذكرتها باستهجان: «البسكويت!» وبعد قليل أكدت رأي ستيوارت قائلة: «صحيح لا يصدر عنها أي صوت».

تابع ستيوارت يقول: «كنت أعرف أنها خرساء، لكنني الآن بدأت أفكر أنها ربما تكون أكثر من ذلك. أخاف أن تكون مصابة بعقلها».

ردّدت موراغ بحيرة: «لا صوت على الإطلاق؟»

«كلا، إنها طاولة».

«كانت عنيفة جداً مع الفستان. مزّقت قطعة منه. لو لم أكن هناك ورأيت ما حدث كنت سأقسم أنها استخدمت أسنانها» ـ تدخلت نيسي لتردّد بعد موراغ باستياء شديد: «وداسته برجلها!»

قال ستيوارت بسرعة: «لم يتأكد شيء بعد، هذا أمر لفت انتباهي، ليس أكثر».

كان جورج باينز واقفاً عند باب القاعة يرشف الشاي من كوب من الصيني الفاخر لا يتناسب مع يديه الخشنتين. استمع إلى حديث ستيوارت بهدف التسلية والتمعت عيناه بشيء من الاهتمام. فتحت العمة موراغ مروحتها وبدأت تلوّح بها بسرعة. قالت وقد تغضّن جبينها: «صحيح، صحيح، إنه مجرد أمر لافت للانتباه».

تابع ستيوارت وهو يحرك الشاي في كوبه: «قد يكون لذلك علاقة بصمتها».

www.9ofy.com

أجابت موراغ: «آه، صحيح»، ثم وضعت مروحتها وقالت: «خيط!» وهي ترفع الإبرة إلى نيسي لتدخل الخيط فيها.

بدأ ستيوارت يستعيد اطمئنانه وهو يقول: «ومع الوقت أنا واثق أنها ستصبح أكثر حناناً».

قالت موراغ: «أكيد من السهل التعلّق بالحيوانات الأليفة، وكلها صامتة تقريباً».

استمع باينز بدون تعليق وهو يرشف الشاي. لم يتفاجأ عندما سمع قصة الطاولة ـ البيانو. كان شاهداً على الصلة الحميمة بين آدا والبيانو، وهو الآن يفهم إحساسها بالحرمان لأنها أجبرت على الابتعاد عما نذرت نفسها لأجله.

بعد تناول الشاي مشى ستيوارت وباينز إلى بيت ستيوارت حيث وجدا فلورا تمتطي حصاناً خيالياً تدور به حول البيت. بدأ ستيوارت في الحال مهمة تقطيع الحطب اليومية. كانت فلورا تغني «دوق يورك العجوز، عنده عشرة آلاف رجل...» وراحت تثب بمرح وهي تحمل قطع الجذوع ما بين كومة الأخشاب لوح التقطيع، وبدت بقلنسوتها البيضاء والمئزرة المنشّاة نضرة ونقية أمام هذا الوحل الداكن. كانت فلورا تتمسك بكل فرصة تتاح لها لتلعب في الخارج عندما يتوقف المطر، وكانت تحب أيضاً مساعدة ستيوارت في عمله. وجدت متعة في اقتلاعه الأخشاب من حديقة الخضار، ومطاردة الدجاج، وبدأت تستكشف جزءاً من الغابة القريبة من البيت، حيث وجدت النبات الكثيف يتناسب مع ولعها بالمغامرة. كانت تجفل في كل مرة يضرب فيها ستيوارت قطعة حطب بفأسه، لكنها مع ذلك تابعت عملها بفرح.

سأله باينز: «ما رأيك بالثمانين فداناً التي في الجانب الآخر من النهر؟».

«التابعة لأرضك؟»

«أجل»، قال باينز وهو يحمل قطعة حطب إلى ستيوارت الذي كان يتكلم دون أن يتوقف عن عمله.

سأله ستيوارت: «أرض مسطحة ومصدر مياه يمكن الاعتماد عليه ـ لكن لماذا؟ ليس معي المال الكافي، ماذا تريد؟»

ـ ردّ باينز: «أريد المقايضة».

ـ «بماذا؟»

ـ «بالبيانو». وحمل إليه قطعة أخرى.

سأله ستيوارت: «البيانو الذي تركناه على الشاطىء؟» كأن هناك بيانو غيره. وتوقف عن العمل؛ هذا الأمر يتطلب انتباهاً جدياً. أحنى باينز رأسه موافقاً. سأله ستيوارت وقد انتابه شك مفاجىء: لا تكثر فيها المستنقعات، أليس كذلك؟»

ضحك باينز: «كلا».

غرز ستيوارت الفأس في لوح التقطيع وقال وقد عارض ذراعيه بابتسامة عريضة وسرور كبير بهذه الصفقة: «حسناً، باينز الذي يحب الموسيقى. لم يخطر ذلك في بالي. هذه مواهب دفينة يا جورج».

ضحك باينز ثانية وقال مبتسماً: «يجب أن أتلقى دروساً. لن يكون له فائدة تذكر بدونها».

«صحيح، أعتقد أنك مضطر لذلك». ونظر ستيوارت إلى الأرض ثم رفع عينيه إلى باينز ثانية وقال بحذر: «حسناً، آدا تعرف العزف». هزّ باينز كتفيه بلا مبالاة دون أن يقول شيئاً. تابع ستيورات: «عندي رسالة تؤكد أنها تعزف جيداً. إنها تعزف منذ

كانت في الخامسة أو السادسة». أبدى ستيوارت بعض الاعتزاز المستغرب بموهبة زوجته، على الرغم من أنه لم يسمح لها بالحصول على البيانو. لم يقل باينز إنه يعرف جيداً براعة آدا في العزف.

«بماذا تريد مقايضته؟» سألت فلورا بناء لطلب آدا. كان ستيوارت بدأ يخبرها عن صفقة مقايضة عقدها مع باينز وكان متورد الخدّين من شدة الانفعال. كان الجميع يجلسون إلى طاولة المطبخ لتناول وجبة بسيطة حضّرتها آدا بعناية. إنها لا تجيد الطبخ وليست بارعة أيضاً في ما يختص بسائر الواجبات المنزلية التي يتوقع منها إنجازها، لكنها لا تتهرب من الاعتراف بقلة خبرتها أو بأنها تجد صعوبة معينة. صبّت فلورا الشاي في ثلاثة أكواب من طقم الشاي المصغّر الخاص بها، وأخذت تشرب الشاي مع أمها والرجل الذي لا تزال تصفه بأنه «زوج أمها»، هذا التعبير غير المفهوم بالنسبة لها كما كانت فتاة «نيوزيلندة».

قال ستيوارت لآدا: «سأعطيه البيانو. هذه هي الصفقة».

أشارت آدا إلى فلورا وقد اتسعت عيناها السوداوان بغضب مفاجىء.

سأل ستيوارت فلورا: «ماذا تقول؟» وقد شعر بالاحباط مجدداً بسبب الطريقة غير المباشرة لتبادل الحديث مع آدا، كما أنه فوجىء بردها الانفعالي.

ترجمت فلورا قائلة: «إنها تقول إن البيانو لها، ولن تسمح له بأن يلمسه»، وحاولت أن تجسّد في نبرة صوتها نقمة والدتها. وقفت آدا وأخذت تروح وتجيء في الغرفة واضطرابها وغضبها يزدادان حدة في داخلها. توقفت لتشير بسرعة.

«إنه أحمق، لا يعرف القراءة والكتابة، إنه جاهل». وراحت

ترفس قطع الأثاث وتضرب بقدميها الأرض بقوة، ولم تعد قادرة على إخفاء غيظها.

قال ستيوارت وقد بدأ يفقد صبره: «إنه يريد تحسين وضعه...» عند سماعها ذلك رمت آدا بكوب الشاي على الأرض فتناثرت أجزاؤه تحت قدمها. «... وأنت سوف تستطيعين العزف عليه».

كانت آدا تعرف أنه ليست لدى ستيوارت أدنى فكرة عن طبيعة شعورها. انتابها غضب عارم وبدأت تشد قمصانه النظيفة عن الحبل الممدود فوق الموقد وترمي بها إلى الأرض. ثم فتحت علبة الأوراق وأخذت تكتب بيد ترتجف من الغيظ.

قال ستيوارت بصوت أجش: «ستعلمينه كيف يعتني به». أعطته آدا الورقة وهي تقول: «لا، لا، البيانو ملكي أنا. إنه لي».

أخافه وأغضبه هذا العرض للانفعال والعناد، فضرب بيده على الطاولة واهتز كل ما عليها من أوان. قال وهو يقف: «لا تستطيعين الاستمرار على هذا النحو. نحن نشكل عائلة الآن، وكلنا يجب أن نضحّي، وأنت أيضاً يجب أن تضحّي». وأضاف بنبرة عالية وهو يشير إليها بحدة: «سوف تعلمينه العزف. وأنا سأتأكد من ذلك». ثم استدار ومشى إلى الخارج بثبات، تاركاً آدا وقد تملكها شحوب وسكون مفاجىء، وعيناها تعلقتا بالباب الذي أغلقه سيتوارت بقوة خلفه. منذ وصولها بدا لها سلوك ستيوارت قاسياً وغير مفهوم، لأنها أحيطت بالدلال دائماً ولم تتعود أن يخالف أحد رغبتها. إنه لا يستطيع إيذاءها أكثر مما فعل. أدركت آدا أنه لا خيار لديها وهذا ضاعف من حدة غضبها أكثر من أي شيء آخر. قررت باستياء تلبية أوامر زوجها، لكن بأدنى حدّ ممكن، وإذا استطاعت أن تجعل السيد باينز يندم على صفقته وتجعله يمقت دروسه، وقد يشفي ذلك غليلها.

www.9ofy.com

كان ستيوارت يروح ويجيء على الوحل أمام البيت وهو مازال ينبض بالغضب. حياته المنظمة انقلبت رأساً على عقب؛ لا شيء يسير كما كان يأمل.

أليسدير ستيوارت هاجر إلى نيوزيلندا وهو شاب في العشرين. أتى إلى هذه البلاد راغباً في إنشاء مزرعة ولديه خطط كبيرة لبناء بيت وتربية المواشي. لم تستطع الرحلة الطويلة المرهقة تثبيط همته ولا تمكنت من ذلك أيضاً كثافة الغاب حيث كان يأمل في اقتناء ملكية كبيرة. ترك ستيوارت في سكوتلندا أخاه الوحيد، توماس، وأمه العجوز التي كانت صحتها سيئة باستمرار.

قال له توماس ذات يوم: «الأرض لا تكفي، وهذا الانتاج لا يكفي أيضاً لرجلين يا أليسدير»؛ كان أليسدير يعرف أن أخاه الأكبر ينوي الزواج وأن المزرعة لن تكون مورد رزق لعائلتين. قرّر أليسدير هجرة البلاد؛ وسكان سكوتلندا معتادون على الهجرة، منذ عشرات السنين، وهم يهجرون أرضهم جيلاً بعد جيل. ليس أمامه سوى تحديد الوقت والشاطىء البعيد الذي سيتوجه إليه.

كان أليسدير ستيوارت يفكر في الزواج أيضاً، على الرغم من أنه لم يناقش هذا الأمر مع أي كان، ولا حتى مع توماس. كان بالتأكيد بعيداً عن التهور ويدرك جيداً أنه ينبغي على المرء أن يتصرف بوعي في مثل هذه الأمور وأن يخطط لها بحذر. لويزا دوغلاس فتاة من عائلة كريمة في الضيعة، لفتت انتباهه؛ شقراء، عيناها زرقاوان، طويلة، بطول أليسدير، حين كان في الرابعة عشرة، لكن نموه تجاوز ذلك الحد في السنوات الأخيرة. رافق أليسدير لويزا إلى بيتها بعد القداس مرتين أو ثلاث، ولم يجد وقتاً لأكثر من ذلك. إلاّ أن المشي معها كان كافياً لإثارة مشاعره، وعلى الرغم

من أنه لم يلتق بها سوى مرة واحدة في الأشهر القليلة الماضية وجد نفسه يفكر فيها باستمرار.

قرر الشاب التوجه إلى نيوزيلندا: المجال مفتوح هناك لشراء الأرض بأسعار مقبولة، والرحلة تنطلق من غلاسغو، كما أن روح المغامرة تزداد مع التفكير بالهجرة إلى أماكن بعيدة إلى هذا الحدّ. لم يكن لدى أليسدير الكثير من المعلومات حول هذه البلاد الواقعة في الجهة المقابلة من الكرة الأرضية، لكنه عرف أن الفصول تتعاقب في مسار زمني معاكس لما هي عليه في سكوتلندا، لذلك فإن عيدي الميلاد ورأس السنة يحتفل بهما هناك في فصول الصيف. أخبره القسّ أن عدداً لا بأس به من السكتلنديين التابعين للكنيسة المشيخية يعيشون في نيوزيلندا، وهذا جعل أليسدير يتخيل القرى بكنائسها ومزارعها وحقولها وبيوتها بصورة لا تختلف كثيراً عن التي ألفها في بلده. بعد فترة قصيرة من اتخاذه لهذا القرار وصلته رسالة من عمته موراغ، شقيقة أبيه، تقول له إنها مسافرة بعد أيام إلى نيوزيلندا في رحلة تبشيرية مع مرافقتها الشابة ومبلغ من المال جمع بواسطة الكنيسة. وتابعت موراغ رسالتها: «يقولون إنها أرض خيّرة وسخية، وفيها عدد كبير من الوثنيين الذين يجب تخليصهم». شعر أليسدير أن الظروف تتوافق لتزيد إمكانية نجاح رحلته.

بيعت قطعة أرض ثانية. ملأ أليسدير صندوقين كبيرين بأغراضه: ثيابه، كتبه القليلة ـ الإنجيل، شكسبير، رواية روبنسن كروزو لديغو. هذا يكفي مع المال الذي يحمله لمساعدته في بناء بيته الأول. في تلك الفترة لم يعرف أليسدير طعم النوم من شدة حماسه وخشيته.

ولويزا دوغلاس، متى تلحق به؟ مباشرة، أو بعد الوقت الكافي لبناء البيت؟ قبل شهر من سفره استطاع أليسدير تكريس يوم أحد لمرافقة لويزا إلى بيتها من الكنيسة. كان يوماً ربيعياً جميلاً، وبدت كل المخلوقات كأنها تنفض عنها وقع الشتاء الرمادي المملّ. أثناء سيرهما راح أليسدير يتكلم ويتكلم، أخبر لويزا بكل مشاريعه حتى التفاصيل الصغيرة، وشمل بحديثه كل غرض غلّفه بعناية ووضعه في صندوق أمتعته. ظن أنه بذلك يستطيع تحميسها؛ كانت لويزا تحني رأسها وتستمع إليه بانتباه. إنها لا تعرف عن نيوزيلندا أكثر مما يعرف أليسدير، لكنها أخبرته بتصوّرها: «إنها أرض متوحشين، أرض ربيعها حار وسكانها من أكلة لحوم البشر».

أكلة لحوم البشر! في نيوزيلندا وطن الأحلام التي تخيلها أليسدير مثل اسكتلندا بكنائسها ومزارعها وحقولها الوافرة، تغيرت صورتها فجأة في ذهنه ليهيمن عليها جو وحدة كروزو وآثار قدميه على الشاطىء المنعزل. ردّ عليها قائلاً: «عمتي موراغ سبقتني إلى هناك في بعثة تبشيرية. عندما يحين وقت وصولي سيكون المتوحشون قد اعتنقوا المسيحية، وبدأوا بتناول الكعك المدوّر مع الشاي». وأخذا يضحكان وقد وصلا بسرعة إلى مشارف بيت لويزا.

قالت لويزا: «رافقتك السلامة، أليسدير ستيوارت». واعتقد أليسدير أنه لمس بعض الأسف في نبرتها.

قال لها: «رافقتك السلامة، آنسة دوغلاس»، ورفع قبضته وهو يبتسم بارتباك. لم يسألها: «هل توافقين على الانضمام إليّ هناك، هل تتزوجينني، هل تصبحين زوجتي وتسافرين للقائي؟» ولم يقل لها: «انتظريني، سوف أرسل في طلبك، وسوف تسافرين إلى

الأرض الجديدة تحملين معك فساتينك وكتاب الصلاة وكل عاداتك الاسكتلندية الراقية». أفكاره هذه احتفظ بها لنفسه لأنه لا يزال شاباً خجولاً ولا يعرف أساليب الإغراء؛ واكتفى بقوله: «سأكتب لك». هذه الجملة جسدت بالنسبة إليه حالة الحب بكل تألقها.

وهكذا أبحر على سفينة حملت أغراض وأحلام مستوطنين آخرين مثله، شبان مفعمون بالأمل وعدد قليل من النساء اللواتي كن يتركن العالم القديم، وفي بعض الحالات كن يهربن منه، بحثاً عن عالم جديد. حملوا معهم شتى أنواع المتاع بما في ذلك هياكل الأسرّة الحديدية والخزائن لتوضيب الأواني الصينية والطاولات كأنهم سيجدون عند وصولهم غرفاً جاهزة مناسبة لوضع هذا الأثاث فيها.

طوال فترة الرحلة كان أليسدير ستيوارت يحلم بلويزا وبشعرها يتطاير مع النسيم الرطب. وفكر أيضاً بأكلة لحوم البشر وتخيلهم بأجسامهم الضخمة وأسنانهم الحمراء. كانوا يهددون لويزا دوغلاس وأليسدير يبادر لإنقاذها من خناجرهم وأفواههم مرة تلو الأخرى.

وصل أليسدير ستيوارت إلى نيوزيلندا، وكانت الحرارة المرتفعة المشبعة بالبخار أول ظاهرة لفتت انتباهه. نقل أمتعته إلى الداخل، إلى المنطقة التي اشترى فيها أرضه. لم يجد شيئاً هناك؛ رأى الأشجار والنباتات تنمو في البرية بكثافة ووفرة وتدرج ألوان لم يرَ مثيلاً له في حدائق سكوتلندا أو على هضابها. أعدّ ساتراً منحدر السطح حتى ينام تحته ويحمي أمتعته من المطر، لكن رطوبة الغابة تسلّلت إلى كل شيء. وانهمك أليسدير في العمل يقطع ويحرق

www.9ofy.com

ويني. لم يجد وقتاً لكتابة الرسائل مع أنه كان طوال الليل يحلم بلويزا دوغلاس.

بعد مضيّ أربعة أشهر لم يرَ فيها سوى الماوورين، سكان المنطقة، الذين بدوا غريبي الأطوار بالنسبة له على الرغم من أنهم أليفين وليست فيهم أية سمات وحشية، توجّه أليسدير ستيوارت إلى ستراتفورد على ظهر جواده لشراء المؤن. وجد هناك ثلاث رسائل في انتظاره: واحدة من أخيه توماس فيها حوالة مصرفية وبضع كلمات عن أحوال المزرعة جعلت أليسدير يمتلىء حنيناً إلى الوطن؟ والثانية من عمته موراغ تقول فيها إنها قررت التوجه إلى الجنوب لتقيم في أقرب مقر للإرسالية إليه؛ والثالثة من أخته ماري فيها خبر ولادة طفلها الأول وكل أخبار القرية التي اعتقدت أنها تهم أخاها، وذكرت له في هذا السياق أن لويزا دوغلاس ستتزوج في الربيع المقبل. التفت نحو الخارطة المعلقة على حائط مكتب البريد ورأى أن البلاد التي وصل إليها تقع في أسفل الكرة الأرضية. لويزا دوغلاس صارت بعيدة جداً عنه.

لا بدّ من إتمام صفقة البيانو. ستيوارت طلب زوجة، رفيقة تساعده، امرأة تلطّف من الوحشة التي بدأت تتملك مشاعره في خريف العمر والتي كان يعرف أنها تزداد سوءاً مع الوقت. وهو لم يرسل في طلب امرأة تجد صندوقاً من الخشب والعاج أهم من رغبات زوجها.

كان ستيوارت مقتنعاً بأن بقاءه مرهون باقتناء الأرض. الزراعة صعبة وبطيئة، والأرض هي العملة الحقيقية الوحيدة المتداولة. لا وقت للترفيه عن النفس، أو السعي وراء المتعة في حانات المدن البعيدة؛ إذا كانت ماك غرات كثيرة الولع بالموسيقى تستطيع أن

تتبرع لعزف البيانو في مقر الإرسالية. بالنسبة لأليسدير ستيوارت الأرض بالتأكيد أكثر أهمية من البيانو المتروك على الشاطىء، والذي جعله يفرح بالفعل كانت تلك الفائدة غير المتوقعة التي جناها من ذلك البيانو؛ ثمانين فداناً صفقة رابحة.

- ٥ -

وهكذا توجه جورج باينز مرة ثانية إلى الشاطىء بسبب البيانو. في هذه المرة كان برفقة ثمانية من رجال الماووري بينهم هون ابن الزعيم نيهه. تمكّن جورج باينز من اتقان لغة الماووريين كما أنه تبنى بعض عاداتهم، تلك العادات التي وجدها طبيعية ومتآلفة مع حياة الغاب في نيوزيلندا، حين كان يجد أنه بحاجة للمقايضة مقابل القيام ببعض الأعمال كان يجد دائماً الرجال الراغبين في مساعدته؛ باينز وجد هذه المفاوضات أكثر بساطة من أليسدير ستيوارت، الذي كان بقناعاته المتعالية والزائفة محط سخرية الماووريين باستمرار.

لا يزال البيانو قابعاً في مكانه كحطام سفينة قذفته الأمواج إلى الشاطىء. يبدو أن زواراً آخرين تفقدوه بعد زيارة آدا الأخيرة له. بدت على الرمال آثار أقدام تحيط بالصندوق، وبعض الألواح الخشبية التي ثبتها باينز انتزعت من مكانها. عندما فكر بالطريقة التي عزفت فيها آدا تجدّد حماس باينز لاقتناء البيانو؛ وهذا الحماس كان مفيداً لأن عملية نقل تلك الآلة عبر الممرات الضيقة بين

الأشجار المشبعة بالرذاذ، كانت في غاية الصعوبة.

شقّ الرجال طريقهم بجهد وهم يتذمرون ويلعنون.

قال هون يأمرهم: « Hiki na ake muri na! - ارفعوا المؤخرة!».

ردّ البعض بفظاظة: «Tero-Tro! - مؤخرة فعلاً!» - Hei niti - maau!" - أنت الحسها!». وتعالت الأصوات بالضحك، وترك باينز مهمته في إزاحة النباتات لشق الطريق أمامهم وأخذ يشاركهم الضحك. في هذه الأثناء تعثرت قدم أحد الرجال وسقط البيانو على الأرض بصوت مدوٍ كان له صدى عميق عبر الغابة. تفرّق الرجال كأن الوحش الذي في داخل الصندوق عاد إلى الحياة.

وصل البيانو أخيراً إلى كوخ باينز، وارتمى الرجال على أرض الغرفة والشرفة يرتاحون؛ أخذ باينز ينتزع ألواح الصندوق. بدا له البيانو لافتاً بجماله؛ على الرغم من الاهمال الذي لحق به مؤخراً لا يزال هناك لمعان يتسرب من تحت طبقة الملح التي غطت خشب الورد. انهمك باينز بتنظيف الآلة بدءاً من الأرجل التي كانت الأكثر تعرّضاً لأذى مياه البحر. ثم انتقل إلى الأعلى، ينظف ويمسح بمادة زيتية ليرد للبيانو بعض تألقه. عندما وصل إلى المفاتيح العاجية فكر في تلميعها بواسطة الشمع. وحين بدأ يفركها تصاعدت الأصوات من بين أصابعه وانتبه رغم عدم تدربه أن اهتزاز الأوتار فيه تراخ وضعف.

اعتلت آدا ماك غرات ظهر الحصان الذي قاده أليسدير ستيوارت إلى بيت جورج باينز. جلست فلورا أمامها وكانت سعيدة لأنها تركب الحصان، لكن روح آدا المعنوية لم ترتفع على الرغم من وجود ابنتها في حضنها. بدأت الطريق ترتفع تدريجياً عبر غابة غريبة من الأشجار ذات الأشواك، التي كانت في قسمها

www.9ofy.com

الأعلى مكشوفة ومتألقة؛ في كل مرة تجد آدا نفسها في هذا المشهد تراه غريباً وكأنه تجدّد بطريقة محيّرة، كأن الأرض نفسها تغيّر مظهرها كل ليلة.

قال ستيوارت ينصحها: «من الأفضل أن تبدأي بألحان أغاني الأطفال، لا داعي لأي لحن معقّد...». ورفع عينيه إلى زوجته لكن آدا لم تنظر إليه. قد تكون مطيعة لكنها لن تتراجع عن موقفها وهي لا تريد تعليم العزف على البيانو لصاحبه الجديد، جورج باينز.

«شجعيه فقط، لا أحد يتوقع منه أن يجيد العزف». قال لها ستيوارت ذلك وهو ينظر إليها مجدداً. وجه زوجته حافظ على تمنّعه وصلابته.

عند وصولهم حيّاهم باينز يتهذيب وابتسم بخجل للفتاتين اللتين لم تحاولا مبادلته التحية. في الداخل بدا البيانو في غير موضعه، إذ كان قطعة الأثاث الخشبية الوحيدة التي تلمع في الكوخ البسيط. توجه أليسدير إلى الآلة ومرّ بيده على خشب الورد المصقول ثم رفع الغطاء، مبدياً بعض الاهتمام أخيراً بالغرض الذي تاجر به. ابتسم والتفت نحو آدا قائلاً: «يبدو بحالة جيدة. إنه جميل. حسناً...»، والتفت نحو باينز الذي ابتسم بدوره متأملاً أن تكون آدا مسرورة لأنه خلّص البيانو من أذى البحر. قال له ستيوارت: «حظاً طيباً. الفتاتان متحمستان جداً لهذه الدروس».

لكن آدا وفلورا كانتا أبعد ما يكون عن الحماس؛ فلورا التي لم تكن غافلة عن حالة توتر والدتها راحت تعبث بخجل بخصلة طويلة من شعرها أفلتت من تحت القلنسوة؛ وآدا كانت تحدّق في أرض الغرفة بتجهم وبرود.

قال ستيوارت برفق: «فلورا ستشرح لك ما تقوله آدا. إنهما

تتحدثان عبر أصابعهما. لن تصدق ما الذي تستطيعان قوله فقط بواسطة أيديهما». واستأذن ستيوارت مودعاً، تاركاً زوجته وابنتها للمباشرة بدروس البيانو.

توجه جورج باينز إلى البيانو ورفع الغطاء مبدياً إعجابه بلمعان المفاتيح وكأنه يريد أن يقول لآدا إنها تستطيع البدء بدروسها. أشارت آدا إلى فلورا، وفلورا قالت لباينز: «أمي تريد منك أن تريها يديك. مدّهما».

تردّد باينز ثم مدّ يديه مفتوحتين كأنه يحمل كرة. «لا، لا، هكذا...» وجمعت فلورا أصابعها الصغيرة النظيفة معاً، ومدّت يديها تكشف ظاهرهما أولاً ثم قلبتهما. قلّدها باينز بحماس خجول، لكن يديه كانتا كبيرتين وخشنتين وتجسدان حياته.

أشارت آدا إلى فلورا: «يجب أن تغسلهما».

- «إنهما مغسولتان».

- «اغسلهما ثانية».

نظر باينز إلى يديه وكأنهما يدا رجل آخر؛ وقال ببطء: «هذه العلامات لا تزول»، وقرّب يديه لتتفحصهما آدا. التفتت آدا بعيداً. «هذه ندوب وتكتلات الجلد القاسي».

لم تتحرك آدا وفلورا، لكن الفتاة حدّقت في يدي باينز الخشنتين مذهولة. أنزل باينز على مضض دلواً من القصدير معلقاً على الحائط رمى فيه بفتور إسفنجة وقطعة من الصابون. أخذت آدا تنظر من النافذة، ورأت فلورا تقف في الخارج بجانب باينز تدلّه بجدية أين يجب أن يفرك.

توجهت آدا إلى البيانو خلسة. كانت تتوق للمسه، لكنها حائرة

بمشاعرها التي تتجاذبها، تريد تحسس المفاتيح العاجية تحت أصابعها وتعرف في الوقت نفسه أنها لم تعد لها. كأن البيانو صار ممنوعاً عليها. مسّدت الخشب اللمّاع برفق، ويدها بالكاد لامست سطحه، ثم رفعت الغطاء بهدوء. وضعت يداً على فمها كأنها تريد تقوية عزيمتها، وضغطت ببطء شديد على واحد من المفاتيح العاجية. سمعت نغمة مكتومة، وأخذت تعزف بنعومة بضع نغمات أخرى، لكنها تراجعت فجأة. الأوتار فقدت تناغمها، والنغمات تردّدت مشوّهة ومكتومة، بلا رنين. أنزلت الغطاء بسرعة وخرجت إلى حيث وقفت فلورا تشرف على عمل باينز. أشارت إليها آدا بعصبية وهي تنزل من الشرفة.

قالت فلورا: «البيانو فقد رنينه. لن تستطيع تعليمك».

كان مدوزن البيانو أعمى، وإحضاره من أوتاكي تحوّل إلى مهمة شاقة؛ كان باينز مضطراً لحمله على ظهره معظم الطريق. لكن باينز نسي تعبه وهو يراقب الرجل العجوز بشعره الأبيض يلمس البيانو ويعيد إليه عافيته.

قال المدوزن وهو يمر بيديه الفاحصتين على الخشب: «برود وود! آلة رائعة. لم أرَ مثيلاً لها هنا، ولا «في نيو ساوث وايلز» حيث دوزنت أكثر من مئتي بيانو. أجل، إنهم يحبون البيانو هناك». أخرج من جيبه شوكة رنّانة ملفوفة بعناية. رفع غطاءي الظهر ولوحة المفاتيح. وبدأ عمله بشد الأوتار المتقاطعة كما هي غالباً في الآلات الفخمة. وقف باينز يراقبه حين انحنى فوق المفاتيح يشحمها قائلاً: «رائحة ملح طبعاً».

ـ «أية مقطوعة ستعزف عندما أنتهي من ضبط الأوتار؟» ردّ باينز: «لا أعرف العزف».

ـ «لا تعزف؟» استقام الرجل الأعمى في وقفته مذهولاً ثم بدأ يضحك. في البداية اعتبر أن رحلتهما المضنية والطويلة عبر الغابة وحتى هذا الوادي البعيد مأساوية، لكن هذا الاعتراف العفوي بدا أكثر طرافة بالنسبة له، وكأن مغامرتهما أشبه ما تكون بمهزلة ألهية.

قال وهو يربّت على الغطاء: «حسناً يا عزيزتي الآنسة برود وود، أنت مدوزنة الآن لكن ستبقين صامتة». وتابع المدوزن وهو يهزّ رأسه ويضحك بصوت خافت: «ربما أفهمكِ أكثر مما تتصورين. كانت زوجتي تغني بصوت نقي وعذب. بعد زواجنا توقفت عن الغناء. قالت إنها لم تعد تشعر برغبة في ذلك، وأن الحياة تجعلها حزينة وهكذا أطبقت شفتيها لتكتم صوتاً رائعاً».

لكن جورج باينز لم يتخلّ عن أرضه وينقل البيانو إلى بيته ليكون مجرد قطعة أثاث يتأملها بصمت؛ كان يعرف أنه بعد استرجاع الأوتار لرنينها لن تستطيع آدا ماك غرات مقاومة الآلة. بدأ يفكر بدرسه التالي، وبالمتعة التي ستغمره برؤية آدا ماك غرات والاستماع إلى عزفها الرائع الذي ما زال يتردّد في أفكاره وأحلامه منذ ذلك اليوم على الشاطىء.

استلقت آدا في تلك الليلة وكانت يقظة، لم تجد سبيلاً للنوم أو للأحلام. شعرت أنها تحت وطأة مزيج غريب من المشاعر المضطربة. كانت مرتاحة لإنقاذ البيانو ونقله عن الشاطىء، لكنها لم تستطع أن تصدق أن أليسدير ستيوارت حوّله إلى صفقة وتصرّف فيه رغم تعلّقها به؛ إنه بعد ابنتها، الغرض الوحيد الذي يمنحها السعادة والاحساس بالحرية. إنها بالتأكيد لم تقطع كل هذه المسافة كي تخسره. كأن ستيوارت حرمها من صوتها، وتركها خرساء. إنها تتألم كالذي ضيّع حبّه، تشعر بالحرمان والحسرة. كان

البيانو الشيء الوحيد الذي استطاعت تشجيع نفسها على التغلب عليه، وجعله ملكاً لها؛ وقادتها أفكارها هذه إلى ديلوار هوسلر. قطعت مباشرة حبل أفكارها واستدارت في السرير الصغير الذي تشاركها فيه ابنتها.

موعد الدرس الثاني أتى بسرعة. ارتدت آدا ملابسها في صبيحة ذلك اليوم ببطء؛ طبقات وطبقات من الملابس ترهقها، السروال الداخلي والطوق والتنورة الداخلية والصدار والقميص الداخلي والمشدّ. حملت معها من اسكتلندا مجموعة كبيرة من الملابس المصنوعة من القماش الجيد والجميل، فساتين من الطرطان الداكن المقلّم بالأرجواني والأسود والأزرق، وفساتين بسيطة ذات قبات عالية للعمل، بالإضافة إلى فستانين أو أكثر من الحرير المفضّل؛ لكن على الرغم من أنه لم يمر وقت طويل على وصولها بدأ مناخ نيوزيلندا يذهب برونق تلك الثياب. الوحل والحرارة الرطبة من المستحيل غسلهما في الحوض البدائي الذي كانت تشعر أنها مقيّدة إليه. إنها ليست مضطرة لغسل ملابسها وملابس فلورا فقط، بل كان عليها ـ بالإضافة إلى إعداد الطعام وتنظيف البيت ـ أن تغسل ملابس أليسدير ستيوارت أيضاً، وهذه بشكل خاص كان تنظيفها صعباً. في كل مرة يدخل فيها ستيوارت غرفة نومها يبدو كأنه سينتزع الحلقات من أماكنها. وها هو الآن أتى ليقول لهما أن تستعدا للتوجه إلى بيت جورج باينز.

في منتصف الطريق تملكت آدا رغبة مفاجئة. جلست على الأرض المكسوة بالطحلب ونبات السرخس بعد أن مدت معطفها الأسود تحت فستانها الأحمر الداكن. تمددت فلورا وراءها مغمضة العينين وراحت تتحسس أشعة الضوء التي تسربت عبر قبعة القش

التي ارتدتها. ولأنها كانت تتواصل مع مزاج أمها، وجدت نفسها تفكر باسكتلندا وبحصانها الصغير غابرييل وبمزلجتي التزحلق اللتين تركتهما هناك. أخذت تعبث بكتلة من أوراق السرخس اقتلعتها من جوار أمها التي تملكها إحساس عارم بالحنين إلى وطنها كاد لقوته يفقدها وعيها. ماذا يفعل أبوها الآن؟ هل يفكر فيها؟ هل ستراه ثانية؟ كيف تمر الفصول في ايبردين؟ لماذا وافقت على السفر إلى هذه البلاد البعيدة؟ تمنّت آدا العودة إلى الغرف والممرات المألوفة في البيت الذي عاشت فيه منذ ولادتها. لم يخطر في بالها أن بعدها عن بيتها سيكون مؤلماً لهذا الحد، لم تكن تتخيل ذلك. وما هو هذا المكان الذي تجد نفسها فيه اليوم، وما هي الحياة التي تعيشها؟

بعد فترة جاهدت فيها آدا للتخلص من يأسها نهضت ونبّهت فلورا، وتابعتا المسير. في نهاية الدرب أرسلت آدا ابنتها لتدق باب الكوخ؛ وانتظرت كي تعيد فلورا على مسامع باينز ما طلبته منها. «تقول أمي إنها لا تستطيع تعليمك العزف والبيانو يحتاج إلى دوزنة. لذلك سأجرب السلم الموسيقي». دخلت فلورا فيما بقيت آدا تنتظر في الخارج أمام الشرفة. قال لها جورج باينز بنبرة تعليمية: «أرجو أن تكوني قد فركت يديك جيداً». بدأت تعزف وتوقفت فجأة مستغربة: «آه، إنه مدوزن». ثم عادت لتعزف السلم الموسيقي بثقة أكبر.

عندما سمعت آدا أنغام البيانو الصافية والدقيقة تقدمت ودخلت الكوخ. أسرعت إلى البيانو وأبعدت فلورا لتجلس مكانها. عزفت نغمات متآلفة وهي لا تصدق ما تسمع. الرنين جيد والنغم دقيق، حتى أنه في غاية الدقة. واصلت آدا عزف الألحان القصيرة رغم

www.9ofy.com

اعتراض فلورا التي قالت: «أنا كنت أعلمه»، رافضة التخلّي عن موقعها، لكن آدا تجاهلتها فابتعدت بتثاقل. عزفت لحناً آخر ونظرت إلى جورج باينز الذي ابتسم فرحاً لدهشتها. وقفت آدا وأشارت إلى فلورا التي قالت لباينز: «أمي تريد أن تسمع عزفك».

قال باينز بارتباك: «أفضّل ألاّ أعزف. أريد أن أسمع وأتعلم بهذه الطريقة».

فلورا وآدا عبستا معاً. قالت فلورا بلهجة آمرة: «كل واحد يجب أن يتمرّن». هي نفسها أُجبرت على التمرين مراراً.

أصرّ باينز على موقفه الصريح وقال: «أريد فقط أن أسمع».

كلامه أربك آدا. لم تكن أساساً ترغب في التعليم، وهي بالتأكيد لا ترغب في العزف أمام جمهور. لكنها أحسّت أنها ملزمة بالصفقة الباردة التي عقدها زوجها، وملزمة بقرار أبيها بتزويجها، لذلك عادت إلى مقعدها أمام البيانو. رفعت الغطاء بسرعة فأصابت يد باينز الذي كان يستند إلى الآلة بلا مبالاة. انتزع يده في الحال ـ وهي لم تبد أية محاولة للاعتذار. عزفت لحناً قصيراً وبسيطاً ونظرت إلى الرجل الذي اشترى البيانو وأخذه منها كأنها تقول له: «حسناً، لقد استمعت. هل يكفيك هذا؟»

قال باينز يريد تشجيعها: «رائع».

ببطء وبعدائية واصلت آدا العزف. إنها تنفذ التعهّد التجاري الذي قدّمه زوجها لكن على مضض. وعلى الرغم من صلابة موقفها، وقبل أن تعي ماذا يحصل، أخذ غضبها يتلاشى وازداد اندماجها في الموسيقى. وفي غضون لحظات كانت الموسيقى تحملها بعيداً عن هذا الكوخ البدائي المتسخ، بموقده المفتوح الذي يتصاعد منه الدخان، ورغيف الخبز اليابس المتروك على الطاولة،

وهذا الرجل الذي لا يعرف القراءة ولا العزف؛ بعيداً عن كل صعوبات حياتها الجديدة. وقف باينز بجانب النافذة يستمع، فيما كانت فلورا، التي لا تزال مستاءة لأنها لم تعد معلمة باينز، تلعب في الخارج. عزفت آدا حوالي ساعة متواصلة لكنها تعبت من نظرة جورج باينز التي أحست كأنها تخترق ظهرها. يظن أنه يستطيع أن يتعلّم بالنظر!

في ذلك المساء كانت آدا كئيبة. شعرت بوحدة عميقة وموحشة كالبحر. هذا المكان يحتاج إلى عمل كثير؛ عمل لن ينتهي أبداً. عندما ساءت أحوال والدها مع تقدمه في السن، وبدأت إيرادات المزرعة تتراجع، وجدت آدا نفسها مضطرة للقيام بالمزيد من الأعمال المنزلية. لكن العمل في بيت والدها لم يكن شيئاً بالمقارنة مع العمل اليومي في بيت زوجها، حيث لا مجال لكي ترفّه عن نفسها بعد القيام بواجباتها. آدا لم تكن تعترض على العمل، إنه طريقة لتمضية الوقت، طريقة لملء الساعات، ولو أنها في بيت والدها كانت ستعزف الموسيقى إلى جانب ذلك. لكن لا يبدو أن هذا الكدح له نهاية، وعند حلول الليل كانت آدا تأوي إلى فراشها مرهقة.

كان أليسدير ستيوارت يمضي غالبية وقته وهو يعمل في أرضه؛ وفي بعض الأحيان ينام في خيمة ينصبها في زاوية من الأرض المرقعة بمساحات من الدغل والتي كان يعتبرها ملكيته. وأثناء تواجده في البيت كان يحافظ على مسافة بينه وبين زوجته. بعد اختلافهما وانفعالهما بسبب البيانو صار الواحد منهما أكثر تهذيباً وعناداً في التعامل مع الآخر. ملاحظات ستيوارت كان يشوبها الإحساس بالذنب، وملامح آدا باردة وغير ودية.

في هذه الليلة كان أليسدير يقرأ في الغرفة المجاورة، وآدا تساعد فلورا على النوم. طلبت منها فلورا أن تحكي لها حكاية، حكاية والدها. أشارت لها آدا مبتسمة: «أخبرتك حكاية والدك مرات ومرات». لكن فلورا لم تكن أبداً تملّ من الاستماع إلى أخبار والدها. وآدا نفسها لم تكن تتعب من الكلام عليه، على الرغم من أنها بعد كل هذه السنوات ولأجل مجموعة معقدة من الأسباب، لم تخبر ابنتها الحكاية كلها، واكتفت ببعض جوانب الحقيقة البسيطة والمشجعة.

قالت فلورا بإلحاح: «أرجوك، أخبريني مرة أخرى»، ومدت يدها لتلامس برفق وجه أمها، وقربتها منها في ضوء الشمعة الذهبي والدافىء. «هل كان معلماً؟» أحنت آدا رأسها موافقة. «كيف كنت تتحدثين إليه؟»

أشارت آدا: «لم أكن أحتاج إلى الكلام. كنت أستطيع وضع أفكاري في ذهنه وكأنني أضعها على ورقة بيضاء». ولوحت بيديها كأنها تملس الهواء.

سألتها فلورا: «ما الذي جرى؟ لماذا لم تتزوجا؟» وتقطب جبينها كما يحدث في كل مرة عند الوصول إلى هذه المرحلة من الحكاية.

أجابت آدا: «خاف ولم يعد يسمع».

في تلك الأثناء فتح أليسدير ستيوارت باب الغرفة ووقف عنده كأن هناك حاجزاً خفياً يمنعه من الدخول. سأل فلورا: «هل أستطيع أن أقبلك وأتمنى لك ليلة سعيدة؟» أحست آدا أنه يقصدها هي بسؤاله. انزلقت آدا تحت الغطاء تعبيراً عن عدم رغبتها في اقترابه منها. آدا حافظت على برودها. أحنى أليسدير رأسه ثم استدار وغادر الغرفة بتثاقل وأغلق الباب.

في اليوم المحدد لدرس البيانو التالي قطعت فلورا وآدا المسافة إلى كوخ جورج باينز تحت وابل من المطر. كان عند باينز كلب مهجّن لطيف يدعى فلين، وفلورا وجدت متعة بتعذيبه بواسطة عصا. أذعن الكلب مستسلماً لألاعيبها في البداية لكنه ما لبث أن احتمى تحت الكوخ عندما ازداد حماسها، وفلورا حاولت إجباره على الخروج من مخبأه دافعة بسلاحها عبر شقّ في أرض الشرفة، وكان قفزها وصراخها يتجاوبان بانسجام كلي مع حدة أو هدوء الألحان التي تعزفها أمها.

كان جورج باينز في الداخل يذرع المكان جيئة وذهاباً، فيما آدا واصلت عزفها مستغرقة في موسيقاها الشجية والمميزة. تخلّت آدا عن محاولة تعليم باينز وراحت تعزف إرضاء لنفسها كأنها تسرق الوقت لمتعتها تحت وطأة نظرته الآسرة.

استمع باينز مراراً لمغنين وعازفين في حانات مختلفة من العديد من الموانىء؛ كما ردّد أغاني البحّارة أثناء السفر؛ ورقص بانسجام مع نساء يرفعن أثوابهن ويستدرن بمرح. لكنه لم يعرف من قبل حالة مماثلة. سماعه كان غير مصقول أو دقيق، ولكن عزف آدا ماك غرات شدّه واستحوذ على عقله ومشاعره. أحسّ أنه قادر على الاستماع إلى عزفها إلى ما لا نهاية. انتبه إلى أنها تعزف إيقاعاً هادئاً بيدها اليسرى، وإيقاعاً معاكساً بيدها اليمنى. وكان اللحنان ينسابان معاً بانسجام كلي. هذه الموسيقى ليست كأغاني الصالونات أو الرقصات الصاخبة أو الألحان الشعبية؛ إنها إيقاعات متآلفة من عالم مختلف. وجد باينز نفسه مشدوداً إلى آدا، وإلى صمتها المستسلم لمفاتيح البيانو؛ كأن الموسيقى تبعث الحياة في هذا الصمت.

كان باينز يحني رأسه في البداية وعندما صار عزفها أكثر

www.9ofy.com

حميمية وازداد استغراقها فيه، رفع عينيه لمراقبتها. جلس في زاوية بعيدة يستمتع بمشهد المرأة والبيانو معاً.

حمل باينز كرسيه إلى موضع أقرب في الزاوية المعاكسة. انتبهت آدا لتحركه واستغربت كيف يقنع بالاستماع ولا يبدي رغبة في العزف، كان ذلك أبعد من قدرتها على التصوّر. استغرقت آدا في موسيقاها مجدداً فيما ركّز باينز انتباهه عليها وهي تنحني فوق لوحة المفاتيح وتتمايل مقتربة منها أو مبتعدة عنها.

نقل باينزر كرسيه ثانية وحمله من وراء آدا إلى الجانب الآخر من البيانو. التفتت إليه آدا مرتبكة بنظراته الفاحصة وحرارة حضوره. من هذا الموقع يستطيع باينز أن يراها بوضوح أكثر ويستمتع بأصابعها وهي تتحرك بانسياب على المفاتيح ويتأمل التفاصيل الصغيرة والتي تعكس تبدل المشاعر في ملامح وجهها. يداها مطواعتان وأصابعها مستدقة الأطراف، وقوية، وهي في الوقت نفسه مرهفة وناعمة. أغمض عينيه مرتين وتنفس بعمق، مشبعاً بالتوق والشهوة. رأته آدا مغمض العينين فتأملته بحذر.

فكّر باينز وهو يستمتع بالبحر، وفكّر بأسفاره. وإحساسه بالمرأة يتدافق مع استماعه للموسيقى. وهذه المرأة بظهرها النحيل ويديها الصغيرتين اللتين تصلان بواسطة المفاتيح إلى أبعاد لا متناهية، كانت تعزف كأنها في حالة نشوة، وهي في كوخه الآن تبدو تائهة مع أنغامها كما كانت على الشاطىء. لاحظ باينز أنها غيّرت تسريحة شعرها، بعض الخصلات النحيلة تلتف حول أذنيها ورقبتها عارية. حدّق باينز بإصرار. رقبتها الطويلة البيضاء التي لا تزال مبلّلة بمياه المطر، لا تقاوم. بدون أن يفكر اجتاز الغرفة ووضع يده على كتفها وانحنى وقبّل مؤخر عنقها.

قفزت آدا لاهثة من مكانها وغطت فمها بيدها كأنها تحبس صرخة. توجهت نحو الباب مضطربة. قال باينز وقد أدرك أنه ارتكب خطأ فادحاً: «آدا، انتظري... انتظري». وبدأ يتكلم بسرعة وهدوء دون أن ينتبه لما يقول وهو يريد فقط منعها من الخروج: «هل تعرفين كيف تساومين؟» اقتراح خطر له في تلك اللحظة وكأنه يفكر فيه منذ مدة.

التفتت آدا ونظرت إلى جورج باينز بتوتر واستياء.

«هناك طريقة تستطيعين بواسطتها استعادة البيانو». لم يخطط باينز لهذا الاقتراح لكن وجد نفسه يخوض فيه كأنه أشبع الأمر بحثاً. سألها: «هل تريدين استعادة البيانو؟» قال ذلك بهدوء وهو يعرف مسبقاً جوابها.

لم تنظر آدا إليه.

سألها بصوت أعلى: «هل تريدينه؟»

التقت عيناها بعينيه. نظرت إليه بثبات تنتظر ماذا سيقول.

«أريد أن أعقد معك صفقة». التفت بعيداً وفكر أنه طالما وصل إلى هذا الحدّ من الأفضل أن يتابع الأمر حتى النهاية». هناك أشياء أرغب القيام بها وأنت تعزفين».

حبست آدا أنفاسها بامتعاض. إنه فظّ كما يبدو عليه من مظهره. أخذت تجمع أوراقها وحملت معطفها وقلنسوتها.

اقترح عليها قائلاً: إذا تركتني أفعل ما أريد تستطيعين الحصول عليه».

توجهت نحو الباب.

«ما رأيك؟ كل زيارة مقابل مفتاح».

تريثت آدا ونظرت إلى البيانو. إذا خرجت الآن فلن تتمكن من رؤيته ثانية. توجهت ببطء ودارت حول قطعة البرود وود التي كانت منذ البداية جزءاً من حياتها، جزءاً من روحها، ورأت انعكاس صورة وجهها على سطح خشب الورد اللماع. انتظر جورج بابنز ردّها. توقفت فترة طويلة عند طرق البيانو وكان ذهنها مشوّشاً إلى أن جلت حنجرتها أخيراً وكأنها تريد أن تتكلم. رفعت أصبعها ثم أشارت إلى كتفها.

سألها باينز: «فستانك؟» هزت آدا رأسها وأمسكت بقماش تنورتها.

«تنورتك؟» وانزعج لأنه لم يفهم قصدها، فمرت بأصابعها جيئة وذهاباً على المفاتيح السوداء في البيانو. «مقابل كل مفتاح أسود؟» سألها باينز وهو ما زال راغباً في مساومتها: «هذا أقل بكثير. النصف». توجهت آدا نحو الباب ثانية. وافق قائلاً: «حسناً» وتحرك ليمنعها من الخروج قائلاً: «كما تريدين، المفاتيح السوداء».

جمعت آدا طرف تنورتها برشاقة وعادت إلى مقعدها في مواجهة البيانو. لقد نجحت في خفض ما سيترتب عليها إلى النصف، وعلى الرغم من ظروف تلك التسوية أحسّت بالاعتزاز. ضغطت على أدنى مفتاح أسود ورفعت إصبعها في الهواء وبدأت تعزف.

قبل أن يشيّد جورج باينز كوخه في الدّغل، كان يمضي معظم أيامه في البحر. ولد باينز في قرية على الشاطىء الشمالي الشرقي لبريطانيا، في ضواحي هال، بين أناس يعيشون من صيد الأسماك. شبّ باينز بين المراكب وصار يعرف البحر هو في زورقه كما يعرف بعض الرجال الأرض وهم يجوبونها على ظهور خيلهم. في

السادسة عشرة بدأ يملّ من مواسم تجارة والده المنهكة والتي لا تنتهي؛ أراد الخوض في مجال أكبر وعرف بعد فترة غير طويلة كيف يستطيع تحقيق هذا الطموح. سمع كلاماً في إحدى الحانات التي غصّت بالبحارة السكارى الذين كانت حكايتهم تزداد تضخيماً وتبجحاً مع تقدم ساعات الليل.

الحيتان. تلك الأسماك الضخمة والقوية، التي تنفخ في الهواء. رأى جورج باينز حوتاً رمادياً مرة وهو في الثانية عشرة، وكان برفقة والده بمفرده للمرة الأولى. كان جورج يرتاح قليلاً متمدداً في الشمس يرشف قهوة والده القوية حين اضطربت المياه الهادئة فجأة على بعد حوالي خمسين قدماً في الجانب الأيمن للمركب وشق سطح الماء حوت رمادي هائل بدّد أحلام جورج. هبّ مذعوراً فوقع فنجان القهوة من يده في البحر، وأخذ يصرخ؛ أسرع إليه والده الذي كان منشغلاً في مؤخرة المركب ورأى الحوت. بعد لحظات أطلق الحوت دفقاً من المياه ارتفع في الهواء، ويذكر باينز جيداً تلك الرائحة العفنة التي رافقت تحوّل الرذاذ باتجاه المركب. شقّ الحوت سطح الماء ثانية مفرغاً المزيد من محتويات جسمه الضخم في المحيط قبل أن يغوص ويختفي.

مشهد الحوت كان بالنسبة لجورج باينز كأنه رؤيا هزّت مشاعره وكشفت له مرة أخرى قوة البحر المخيفة. معظم مواسم الصيد في ضيعته كانت لا تخلو من الكوارث التي يروح ضحيتها شبّان أقوياء، وجورج باينز لم يفكر أبداً أن المحيط الذي يشكل مورد رزق عائلته كان عطوفاً أو خيّراً. لكن رواية الحوت أدهشت الصبي وأخافته في الوقت نفسه.

صار باينز صائد حيتان، وجاب المحيطات سنوات عديدة

www.9ofy.com

ليصطاد حوت العنبر، ذلك الحوت الأبيض المنعزل، وتوجه إلى المناطق الجنوبية لمطاردة الحيتان هناك أيضاً. عاد إلى بلده مرتين، مرة بعد رحلة صيد استغرقت ستة أشهر، ومرة ثانية بعد غياب عشر سنوات، وفي هذه المرة الأخيرة تأمل والده وجهه الذي لوّحته الشمس بضع دقائق قبل أن يتعرّف إليه. تعوّد باينز حياة البحر وأحبّ الرجال الذين كانوا يرافقونه، وكان يتوق لصحبة النساء في الموانىء. أحبّ الحيتان. أحبها وهي تقتل وتسلخ في البحر من أجل الزيت والعظام والعنبر. لكنه بدأ يتعب من تلك المجزرة، وصار قلقاً من تململه، وذات يوم في مرفأ هال تزوج من فتاة كان يعرفها هناك منذ عدة سنوات. أخذها من بيت الدعارة حيث كانت تعيش واستأجر بيتاً يطل على الشارع الرئيسي، ووضع مدخراته في المصرف ووجد عملاً في المرفأ على الأرض لا في البحر. مضت سنة على زواجهما وكانا سعيدين. أليزابيت لم تكن تعرف كيف تعدّ الطعام أو تخيط الملابس أو تقوم بأية أعمال منزلية أخرى، لكنها تعرف كيف تستمتع بوقتها وهذا ما فعلته مع باينز. بدأ جورج يملّ وإليزابيت أيضاً، وأحسّا أن حياتهما أشبه ما تكون بتمثيلية. وهكذا عاد جورج إلى البحر، وإليزابيت عادت لمهنتها، وافترقا مودّة. أعطاها مبلغاً من المال لتدبر أمورها وحجز مكاناً لنفسه على باخرة تتوجه إلى البحار الجنوبية، إلى نيوزيلندا.

أبحرت السفينة ووصلت إلى القرن الأفريقي واستمرت في رحلتها الطويلة، وقد تسنى لباينز أن يرى عدة حيتان ويراقبها وهي ترتفع بأجسامها الضخمة من بين الأمواج، وكان سعيداً لأنه قرر العمل على اليابسة وتخلّى عن مهنته الدموية في البحر.

خارج كوخ جورج باينز جلست فلورا تحت الأفريز تربت على

ظهر الكلب فلين بعد أن غطته بمعطفها الأحمر. مدّت أذنيه وأنفه الطويل برفق وراحت تقول له: «يا طفلي المسكين. مَنْ المؤذي الذي تركك تحت المطر وراح يدفعك بالعصا؟ هه؟ هه؟ أنت بخير معي الآن؟ وطبعت قبلة على رأسه. في كل مرة كانت ترافق فيها أمها لإعطاء دروس البيانو، كانت الفتاة تستاء لأن أمها تجبرها على البقاء في الخارج بمفردها. فلين صديقها، صديقها الوحيد، همست تقول له بارتياح غير سويّ: نحن وحدنا هنا. لا أحد يحبك غيري».

سلكت آدا وفلورا طريق العودة بين الأشجار وفلورا تقفز بمرح بجانبها، وكان بالها مشغولاً بنوعية الصفقة التي قبلت بها وبالرجل الذي ستتعامل معه. لكن آدا بقوة عزيمتها ومناعتها اللتين أحاطتهما بإطار من التواضع، قررت عدم التفكير فترة طويلة بطبيعة الصفقة: إنها ملزمة بتنفيذها. عليها أن تستعيد البيانو.

- ٦ -

بدأت الاستعدادات لمسرحية الميلاد، التي تكتسب أهمية خاصة عند أبناء الإرسالية. القسّ سبتيموس كامبل، الذي كان سعيداً لتحرره من الأفكار الكئيبة والمحدودة في كنيسة الوطن، أراد أن يضيف إلى مسرحية الميلاد التقليدية التي يقدمها الأطفال جانباً فيه بعض الابتكار. أمضى وقتاً طويلاً في التخطيط لذلك، وخلال الأشهر القليلة الماضية كان مقر الارسالية مسرحاً للنشاط الدرامي.

بعد ظهر هذا اليوم كان ستيوارت يساعد عمته موراغ في تزيين العصيّ بالأقمار والنجوم الملونة التي تتدلّى منها، فيما انهمك القسّ في تقطيع بعض الأشكال من لوح كرتوني. «مقص» طلبت العمة موراغ بلهجة آمرة من إبن أخيها كأنها جراح يعطي أوامره لممرّض أعطاها ستيوارت سلّة أدوات الخياطة.

قال القسّ: «نيستي، اتركي ما في يدك وتعالي». كانت نيسي تحمل صينية عليها أكواب الشاي والبسكويت المحلّى والكعك وتهمّ بتوزيع الشاي.

قالت بحياء: «لا، أرجوك. أطلب ما تريد من السيد ستيوارت!

قال القسّ: «لا، لا، نيسي، أرجوكِ». لكن عندما التفتت نيسي بعيداً، قرر القسّ المتحمس لإنهاء عمله الاستعانة بماري، وهي من الماووريين. أشار إليها قائلاً: «اركعي هنا». توجهت نحوه ماري في الحال.

خافت نيسي أن تسلب فرصة الظهور فوضعت الصينية بسرعة وقالت: «حسناً، كما تريد» وهزت رأسها بشيء من الغنج وركعت حيث أشار القسّ.

قال القسّ: «مدّي يدك إذاً»، وكان يرتدي جناحي ملاك صغير. رفعت نيسي يدها محاولة جذب انتباه كل الموجودين، لكن عندما رفع القسّ الفأس الكرتوني فوق رأسه كأنه يهمّ بضربها، خافت وأبعدت يدها. قال القسّ بنفاد صبر: «لا، لا، ضعي يدك هنا». رفع القسّ فأسه وأنزله بحركة مسرحية قرب يد نيسي. «انظري، انظري، أنتِ تتعرضين لهجوم»، قال يشرح لها المشهد ويعيد يده إلى موضعها. هذه المرة رأت نيسي في انعكاس الظل على الحائط أن الفأس ينزل ويقطع يدها، وبدا القسّ مجرماً وهي ضحيته التي لا حول لها. أطلقت صرخة قصيرة عندما أنزل القسّ فأسه الكرتوني مرة ثانية. ضحك الآخرون وقال القسّ: «والدم سيعطي تأثيراً أفضل».

مرّ القسّ بيده على الناس متأملاً الموقف وبدا مستمتعاً ببراعة المؤثرات الدرامية التي ابتكرها، لكن موراغ خافت من المشهد. صورة أخيها التي انعكست على الحائط كانت لا تخلو من التهديد. الفأس بدا حقيقياً، وعبّرت موراغ بصوت عالٍ عن تخوّفها من كونهم يبالغون بعض الشي بإضافة دم الحيوان ليصبح المشهد أكثر واقعية.

www.9ofy.com

كانت دروس البيانو مرة كلّ ثلاثة أيام، وهذا أقصى ما استطاعت آدا تقديمه لانهماكها في العمل المنزلي، ولو أن البيانو في بيتها كانت بدون شك ستجد وسيلة لتمضية بضع ساعات كل يوم أمام البيانو هرباً من أسر واجباتها. في هذا اليوم صحبت فلورا والدتها إلى كوخ جورج باينز كالمعتاد وأجبرت على البقاء في الخارج. عندما أحسّ الكلب فلين باقتراب آدا وفلورا، وسمع حفيف ثوبيهما، وثرثرة فلورا، أسرع ليختبىء تحت البيت. لفّت فلورا معطفها حول جسمها وتمدّدت تحت أرض الشرفة على بطنها، وبدأت تنادي الكلب. كان الكوخ مرفوعاً على ركائز قصيرة لحماية الأرض الخشبية من الرطوبة والهوام والحشرات المختلفة. زحفت فلورا مسافة قصيرة، لكنها ما لبثت أن تراجعت خائفة بسبب الظلمة والعفونة وصدى وقع الأقدام فوقها. نادته قائلة: «فلين، فلين» وأخذ إحساسها بالخيبة يزداد. الكلب من جانبه فضل البقاء في مخبئه.

صعدت فلورا إلى الشرفة منزعجة من احتمال تمضية بعض الظهر بمفردها وراحت تدق على الباب. قالت لباينز الذي فتح الباب: «أريد أن أتحدث إلى أمي». توقفت آدا عن العزف وتقدمت إلى الشرفة وأغلقت باب الكوخ خلفها، قالت لها فلورا بإلحاح: «لا أريد البقاء في الخارج، دعيني أتفرّج».

أشارت لها آدا: «لا. إهدئي والعبي هنا».

ـ «سأظل ساكتة».

ـ «إنه خجول جداً ومبتدىء في العزف».

رجتها فلورا قائلة: «لن أنظر إليه». لكن آدا هزت رأسها لأنها قرّرت متابعة الدرس. إنها ليست واثقة من باينز، ولا من شروط

الصفقة؛ فلورا يجب أن تبقى في الخارج. دخلت آدا وأغلقت الباب في وجه ابنتها. راحت الفتاة تمشي على الشرفة ببطء وقد خاب أملها وبدا الانزعاج واضحاً على وجهها؛ واصلت أمها العزف في الداخل. رمت فلورا نفسها على المقعد القاسي. لم تتعوّد تمضية وقت طويل بمفردها، ولم تتعوّد أن توجه أمها اهتمامها لأحد غيرها؛ فلورا لم تكن سعيدة.

وقف جورج باينز يراقب آدا ماك غرات وهي تعزف. أداؤها اليوم مختلف، تبدو أكثر ثقة، كما كانت على الشاطىء. استمع بتمعّن وأحسّ بالامتلاء لكنه ظلّ يرغب في المزيد. أخذ يجوب الغرفة مضيّقاً الدائرة أكثر فأكثر حول آدا كأنه حيوان يقترب من فريسة. كانت آدا تعزف باستغراقها المعهود لكنها انتبهت مع ذلك لحركة باينز. حين وقف واستند إلى ظهر البيانو وحدّق فيها، رفعت نظرها إليه ثم أغمضت عينيها راغبة في أن تكون داخل عالم الموسيقى وليس في مكان آخر.

في تلك الليلة حلم جورج باينز بالموسيقى. رأى في حلمه آدا ماك غرات تعزف تلك الألحان الغريبة التي ملأت أرجاء منزله. شيّد باينز الكوخ منذ سنوات بعد شرائه لقطعة الأرض هذه. استخدم لبنائه أخشاب الأشجار التي قطعها لإحداث فسحة في الدغل. يتكون الكوخ من غرفة واحدة فيها ركن للنوم محجوب بستارة، والنوافذ تغلق بمصاريع خشبية بدون زجاج. كان ينوي بناء بيت أفضل في المستقبل، لكن هذا الوقت لم يحن بعد. وجد كوخه مريحاً ولا ينقصه شيء لشدة بساطته.

والآن يضم كوخه آلة موسيقية، أفخم من أية آلة رآها منذ سنوات. عندما فتح عينيه في الصباح وقع نظره عليه مباشرة. أزاح

الستارة المخرمة التي تحيط بسريره ورآه كأنه ينتظر من يعزف عليه، اقتحام رائع لحياته الخشنة، مثل آدا ماك غرات.

نهض من سريره وهو يتمطّى. أشعة شمس الصباح الباكر تسرّبت عبر النافذة وذرّات الغبار تلألأت في الهواء. انعكست الأشعة على البيانو فوجد نفسه مشدوداً إليه. رأى خشب الورد يغطيه الغبار فنزع قميصه وبدأ يمسح البيانو. استعاد الخشب الناعم تألقه حيث كان باينز يمرّ بقميصه. أحسّ بدفء الشمس على ظهره وهو ينتقل حول البيانو، وانتبه لعريه. تباطأت حركته شيئاً فشيئاً كأنه لم يعد يمسح الغبار عن البيانو بل يربت عليه برفق. شعر أن البيانو تملّكه هو أيضاً؛ تملكه توق عميق إليه، ومن خلاله للمرأة التي تعزف عليه.

وصل جورج باينز إلى نيوزيلندا منذ أكثر من تسع سنوات. كان سائر المستوطنين الأوروبيين يرون حياته بدون رفقة منعزلة وغريبة. هؤلاء «الباكيها» لم يعتبروا الماووريين أشخاصاً وباينز عاشر الماووريين. إنهم بالطبع يعرفون طبيعة هذه البلاد الخيّرة والرطبة أكثر بكثير من المستوطنين. تعلّم منهم باينز الكثير، وكانوا مثله عندما تضيق بهم سبل العيش يتوجهون إلى البحر. كان باينز يقصد مرفأ نيلسون للعمل في زوارق الصيد؛ وعندما يتعب يعود إلى كوخه ويتابع عملية الاستصلاح البطيء للأرض.

أعجب باينز بأسلوب الماووريين في العمل والتنعّم بالراحة والتعاطي مع الأرض، كما أعجب بانسجامهم الهادىء مع أنفسهم ونظرتهم المتسامحة والمرحة لتصرفاته. منذ البداية لفت انتباهه الوشم -«موكو» - الذي يحمله معظم الناس هنا. رسم «الموكو» عملية بالغة الدقة يقوم بها معلمون بارعون - to hunga

ta moko - يجوبون البلاد لحفّاري الخشب الذين أتقنوا الحفر اليدوي وتزيين الخشب بنقوش منمقة تشبه رسومات التاهونغا. في أحد أيام فصل الصيف وصل واحد من هؤلاء التهونغا، وبعد إلحاح «هون» و«مانا» وافق باينز أن يحمل وشماً. رسمت على وجهه علامات جزئية لأن الوشم الكامل كالأشكال المتناسقة التي تزين وجه الزعيم نيهه يحتاج إلى جلسات تمتد بضع سنوات، ويتسبب بانتفاخات وآلام تترافق مع عملية النقش الدقيق وصباغة الجلد. لم يكن باينز خائفاً من الألم لكنه تضجّر من الجلوس أمام التاهونغا لساعات لإنهاء «الموكو». تعوّد باينز على نقوش وشمة على الرغم من أن سائر المستوطنين الأوروبيين الآخرين في التزايد في المنطقة كانوا ينظرون إليها بازدراء.

لم يكن باينز من الماووريين، ولم يكن أيضاً من الباكيها؛ ومضى وقت طويل وهو قانع بأنه مكتّف بجزء من كل عالم. وصول آدا ماك غرات أقلق ارتياحه. وجد باينز نفسه مهتماً برأي آدا فيه؛ تمنى لو أنها لا تأتي لزيارته فقط لأنها فرصة لتعزف على البيانو. فكر بارتياح أن الدروس ستستمر.

اقتربت العمة موراغ ونيسي وماري من ستيوارت وهو منهمك بتقطيع الأخشاب، ومشين على الألواح التي تساعد على اجتياز الحوض المحيط ببيته والذي كان يعتبره حديقة. موراغ ارتدت اللون الأسود ونيسي اللون البنّي وماري اللون الأحمر، وكل واحدة منهن وضعت مئزراً وقلنسوة ومعطفاً، فشكلن ثلاثياً مرحاً مقابل الأصول المسودّة المتبقية من الأشجار التي قطعت في تلك الباحة. قالت موراغ محذرة ماري ونيسي «امشيا بحذر»، ردّدت نيسي من بعدها: «بحذر»، كأن ماري لم تفهم.

www.9ofy.com

سمعت آدا أصواتهن وهي راجعة من درس البيانو. قالت العمة موراغ لستيوارت: «لست بحاجة إلى دعوة، لكن طالما أننا هنا لا بأس». تناولت نيسي سلة بطاقات الدعوة من ماري، وعندما وجدت بطاقة ستيوارت أعطتها للعمة موراغ التي سلمتها بدورها إلى ستيوارت بطريقة غير رسمية، وقالت له بلهجة آمرة: «لا تتأخرا. هناك فترتان كما ترى» وأشارت إلى البطاقة وتابعت: «وطالما أنك سترافق إحدى المشاركات عليك أن تصل في وقت مبكر».

بدأ أليسدير ستيوارت ينظر بعيداً وعمته ما زالت تتكلم. انتبه لآدا وفلورا وهما تدوسان بحذر على ألواح الممر، ترفع طرف تنورة أمها حتى لا يتلوث بالوحل. قال لهما: «انتظرا»، فتوقفتا والتفتتا نحوه، «كيف تسير الدروس؟»

أحنت آدا رأسها بحذر. الدروس تسير على نحو جيد؛ باينز أعطاها الحرية لتعزف كما تريد. أحست بشيء من الارتياح لأن أليسدير ستيوارت لا يعرف شيئاً عن الصفقة التي عقدتها مع جورج باينز. سألها ستيوارت: «إنه يتحسن أليس كذلك؟» ابتسمت قليلاً وأحنت رأسها بالموافقة ثم تابعت طريقها.

«تبدو أكثر هدوءاً». قالت عمته وهي تقترب منه بحركة تآمرية. «هل صارت أكثر حناناً؟» التفت ستيوارت بعيداً وقد أحرجته بسؤالها. قالت موراغ: «لا بأس. ببطء، ببطء».

على الطريق إلى كوخ جورج باينز كانت فلورا ساكتة على غير عادتها. امتلأ الفضاء بالطيور في ذلك الصباح، وبغنائها القوي والمرتفع، وفلورا مشت مأخوذة بالمشهد، سمعت غناء لافتاً فظنت في البداية أنه لمخلوق غريب يعيش في الأدغال. لكنها اكتشفت أن

مصدر الأصوات طائر مكسوّ بريش أخاذ لم يسبق لها أن رأت مثيلاً له. توقفت فلورا لتدل أمها على الطائر وتعطيه إسماً خيالياً يكون نابضاً بالحياة لريشه، لكن آدا تابعت مسيرها كأنها فقدت السمع إلى جانب النطق.

عند اقترابها من كوخ جورج باينز ازداد الوحل قساوة وصار المشي أسهل. تعوّدت آدا أن أطراف ثوبها تتلوث دائماً بالوحل. لم تكن السماء تمطر في ذلك اليوم وفلين خرج من مخبأه ليرحب بهما، وانهمكت فلورا في اللعب معه حتى قبل أن تدق آدا الباب. أبطأ باينز في الردّ، وعندما فتح الباب نظر بحدة إلى آدا فظنت أنه سكران. حياته في هذا الكوخ بعيدة عن مراعاة الأصول لدرجة أنها لم تعد تستغرب شيئاً عنه.

صارت آدا أكثر تقبّلاً لصفقتها مع باينز واعتبرتها جزءاً من حياتها الجديدة والغريبة. لم تعرف ماذا يريد منها حتى تستطيع كسب مفاتيحها. كانت آدا مصممة على استعادة البيانو؛ طبيعة الصفقة لم تعد تعنيها: إنها منذ البداية تجد متعة في الأسرار.

تجاهلت باينز الواقف عند الباب كالمسحور ودخلت مباشرة لتجلس مقابل البيانو. حدّد باينز لنفسه موقعاً في جوار النافذة؛ آدا تستطيع أن تراه بزاوية عينها. كان عادة يختار مكانه وراء ظهرها فتنسى وجوده وتستغرق في عزفها. لكنه اليوم، وكأنه يعد لشيء ما، جلس إلى جانبها يسند نفسه إلى كوعه ويحدّق فيها، عيناه تتحركان ببطء من يديها إلى أعلى ذراعيها ورقبتها وصولاً إلى وجهها.

بعد وصلة من العزف تكلم باينز للمرة الأولى في ذلك اليوم وقال: «ارفعي تنورتك». تكلم ببطء وبنبرة غليظة.

توقفت آدا عن العزف وتركت يديها الصغيرتين ترتاحان على لوحة المفاتيح. لم تكن خائفة بل مصدومة. لم تترك باينز ينتبه لصدمتها. دون أن تنظر إليه تريثت قليلاً. هذه هي الصفقة إذاً. عزمت على المضي في الأمر فرفعت تنورتها قليلاً لتكشف عن حذائها الملطخ بالوحل وواصلت العزف وقد خلا وجهها من أي تعبير.

تحرك باينز بانزعاج على مقعده. أحس أنه ما زال يحلم وأن آدا ماك غرات أتت إليه في حلمه. إنه يريد شيئاً ما منها، شيئاً لا يعرفه ولا يريد أن يدفعها بعيداً عنه بسببه. كان يدرك جيداً أنه يجب أن يكون حذراً معها وأن لا يضغط عليها كثيراً.

«ارفعيها أكثر».

بالكاد توقفت آدا عن العزف هذه المرة، ورفعت تنورتها إنشاً أو اثنين بحركة سريعة وعادت يداها إلى المفاتيح في الحال. ترك جورج باينز مقعده بجوار النافذة. نزل فجأة على يديه وركبتيه وقبل أن تفهم آدا ماذا يفعل رأته ممدداً على جنبه تحت البيانو. كلاهما لم يكن يعرف ما هي الخطوة التالية. أحسّا معاً أن الهواء صار ثقيلاً ويصعب تنفسه.

«أكثر» قال باينز لكن آدا تظاهرت بأنها لم تسمعه. ضرب بيده بقوة على أسفل البيانو مرتين، وعند هذه المقاطعة الملحة البعيدة عن التهذيب توقفت آدا عن العزف قال لها بهدوء: «ارفعيها أكثر».

تنفست بعمق ورفعت تنورتها وتنورتها الداخلية بإطارها الأبيض المخرّم إلى ما فوق ركبتيها. «كل شيء» تابع باينز، فرفعت الطوق أيضاً وكشفت عن سروالها الداخلي وتحته جوربها الأسود الصوفي. ألقت عليه نظرة عاجلة وهو تحت البيانو ولم تحاول إخفاء

احتقارها له. لم تر رجلاً من قبل يتمدّد على الأرض طلباً للمتعة. ولم يسبق لها أن وجدت نفسها في هذا الموقف من قبل. واصلت العزف وهي لا تعرف ماذا سيفرض عليها بعد ذلك.

تمدّد جورج باينز على الأرض الخشبية القاسية بارتياح كأنه يستلقي على وسائد كبيرة وناعمة. كان مأخوذاً برجليّ آدا بتحركهما الأنيق على الدعسات. بطّتا ساقيها جميلتان وقد غطاهما الجورب، وقدماها ترتاحان في حذائها الصغير الذي التفت إليه باينز وكأنه يرى أصابع قدميها الرقيقة. لاحظ وجود ثقب صغير في الجورب الأسود على رجل آدا اليسرى، تحت الإطار المخرّم مباشرة. برز الجلد الأبيض من خلال الثقب، جلد آدا وقد تعرّض للهواء ولنظرة باينز؛ إنه شقّ في تماسكها الذي تحتمي به. دون أن يفكر رفع يده. بإصبع واحد، ظفره متسخ وقاس، وجلده عليه بصمات التبغ والعمل، أخذ يتحسس عبر الثقب جلدها البارد والناعم والأملس ـ آدا.

أجفلت بعض الشيء عندما شعرت بلمسته. أجبرت نفسها على متابعة العزف. انهماكها في العزف يجعلها تشعر أنها تعطي القليل من نفسها إلى باينز، وأنه لن يستطيع أن يأخذ منها ما يريد. لمسته غريبة وبطيئة، مداعبة لطيفة جعلتها تشعر بالإهانة وبتقلص في حنجرتها. لم يلمسها رجل من قبل، وذلك كان منذ وقت طويل، ولم تجد نفسها قبل اليوم عرضة لمثل هذا التأمل المباشر والمسرف. أحست بالحرارة تصعد إلى وجهها، وبوخز في المكان الذي كان باينز يتحسسه ببطء. تابعت العزف؛ حافظت المفاتيح العاجية على برودها وكانت أنغامها شفّافة وواثقة.

كم كانت آدا تحب الاستماع إلى عزف ديلوار هسلر. مضت

www.9ofy.com

عدة أسابيع قبل أن تبدأ بالعزف في حضوره، كان يعزف ويسمح لها بمتعة الاستماع إليه. كانت تراقب أصابعه الطويلة المرنة تمر على المفاتيح، وجبينه يتغضن في المقاطع الصعبة، ومعطفه يشد على ظهره لدرجة أنها توقّعت تمزّقه. آدا تعرف جيداً كم هو ممتع الاستماع للعزف.

عندما التقت بديلوار هوسلر تفاجأت بأنه شاب صغير؛ توقعت أن يكون الأستاذ من عمر ماك غريغور مدوزن البيانو، رجلاً كبيراً متداعياً تفوح منه رائحة دخان الغليون والسعوط. كان يبتسم غالباً ويجذبها بحديثه عن الكتب والمسرحيات وكبار الموسيقيين الذين عاشوا في المدن الأوروبية الرائعة. سافر إلى فيينا ليستمع للأوبرا، وآدا كانت تطلب منه أن يخبرها عن هذه الرحلة مرة بعد مرة. دار الأوبرا، المغنون، الأوركسترا، تجهيز المسرح، رفع الستارة، المقعد الذي جلس عليه ـ أرادت معرفة كل التفاصيل لتتحسس ذلك العالم البعيد جداً عن حدود بيت والدها.

كانت آدا في السادسة عشرة عندما أتى ديلوار هوسلر إلى البيت، بل كانت في السابعة عشرة تقريباً. لم تكن تلتقي غالباً بأولاد من جيلها. كانت تعرف الفتيات شباناً من البلدة، أبناء أصدقاء والدها أو بعض المعارف الذين تلتقي بهم في الكنيسة أو في مناسبات اجتماعية. دعيت لحضور حفلة أو حفلتين لكنها فضّلت الابتعاد. وجودها بين الناس كان يزعجها لأن البعض كانوا يرفعون أصواتهم عالياً حتى تسمعهم لاعتقادهم بأنها صمّاء وخرساء في الوقت نفسه.

أما ديلوار هوسلر فإنه سرعان ما أقام صداقات في البلدة، مع عازفين آخرين، من الشبان غالباً. بعد أشهر قليلة من وصوله إلى

منزل عائلة ماك غرات بدأ يخرج في الأمسيات أحياناً وتمكن بسرعة من تأليف شلّته الخاصة. ويستون ماك غرات لم يكن مهتماً بنشاطات معلّم ابنته الليلية؛ كان يسأل آدا مرة في الأسبوع عن دروسها، ولم يحصل منها على أي ردّ لم يعجبه. وعندما تسنح له الفرصة كان يحب التحدّث مع ديلوار عن موهبة آدا. في البداية أراد ديلوار أن يبدو لبقاً وراح يبالغ في حماسته لمضاعفة اعتذار الأب الخور بابنته، لكن حماسته صارت حقيقية عندما بدأت آدا تعزف في حضوره وبدأت تتعلم قراءة الإشارات الموسيقية وتتقن عزف المزيد من المقطوعات.

أصدقاؤه في البلدة حسدوه على عمله وإقامته في ذلك البيت الكبير وعلى أنه لم يكن عنده سوى تلميذة واحدة. وديلوار لم يشأ تبديد أوهامهم، وآثر ألاّ يذكر أمامهم أن أوضاع المنزل تتدهور تدريجياً. لم يشغل باله بحالة ويستون ماك غرات المالية، ولا بكيفية تخطيطه للمستقبل، كان مرتاحاً طالماً أن راتبه يوضع في حسابه في المصرف كل شهر.

عملت آدا بجهد تحت إشراف ديلوار هوسلر؛ بدأ بتعليمها الموسيقى نظرياً، والتناغم ومزج الألحان أيضاً. أعطاه والدها المال ليطلب المقطوعات الموسيقية والكتب من لندن وأدنبره، وآدا واصلت معه توسيع معرفتها، وازدادت بهجتها في الوقت نفسه.

بعد مرور سنة على وجوده في منزل عائلة ماك غرات صار ديلوار راسخ الحضور هناك وفي الأوساط الموسيقية في ابيردين أيضاً. واظب على التردّد إلى الكنيسة مع أفراد عائلة ماك غرات على الرغم من تربيته اللوثرية، وذلك للإستماع للموسيقى ولقاء أصدقائه في جوقة المرتّلين. شارك في برامج قاعة الحفلات الموسيقية

بقيادة الأوركسترا حيناً والعزف حيناً آخر. أحيا مع رفاقه عدة حفلات لعزف البيانو أو المقطوعات الموسيقية في الأماكن الخاصة، وبدأ البعض يطلبون منه الحضور للعزف في حفلاتهم أو مناسباتهم. وبعد مضيّ فترة قصيرة كان ديلوار أحيا حفلات في كل البيوت الفخمة في المنطقة، وصارت فرقته مشهورة لدرجة أن العازفين بدأوا يطلبون أجوراً ضئيلة مقابل حضورهم. عندما يكون الوضع مناسباً، كانت آدا تشهد هذه المناسبات، تجلس في آخر الغرفة، وتغادر المكان برفقة والدها، أو أحد أصدقائه، مباشرة بعد توقف العزف؛ تلك الغزوات للصالونات التي تشع بالأضواء كانت بالنسبة للشابة الرزينة محنة ومتعة غير اعتيادية في الوقت نفسه.

فرحت آدا لنجاح ديلوار، الذي لم يسمح أبداً لارتباطاته الأخرى بتأخير دروسه معها؛ كان دائماً يصغي بانتباه عندما تعزف، ولا يشرد ذهنه أبداً. عرف ديلوار أن نجاحه في أبردين يعود بقدر كبير لوجوده في رعاية عائلة ماك غرات، وأدرك أنه يدين لهم بالكثير وآدا، إلى جانب ذلك، تلميذة رائعة.

في إحدى الأمسيات، وبعد الحصول على الإذن من والدها، رافقت آدا ديلوار إلى حفلة يحييها أربعة من أصدقائه يعزفون على آلات وترية. كان ديلوار قد أخبر آدا عن عازفة الكمان الشابة، الآنسة جوديت ماك دوغال، التي ستشارك في العزف ذلك المساء. بدا معجباً بعزفها وآدا كانت متلهفة للاستماع إليها بدورها. جلسا في مقدمة الحضور تقريباً. في الغرفة غمغمة خافتة؛ أهل البلدة بدأوا يتعلقون بهذه المناسبات الموسيقية وقد أتى عدد كبير منهم للإستماع اليوم.

وصل العازفون، ثلاثة رجال يرتدون معاطف سوداء، والآنسة

ماك دوغال التي ارتدت ثوباً أسود وسترة ضيقة لها قصة جريئة إلى حدّ ما تساعد ذراعيها على التحرك بحرية أثناء العزف، وقد أرخت شعرها الأشقر بعيداً عن وجهها. سادت الحماسة بين الحضور؛ لم تكن بلدة أبردين متعوّدة على مشاركة عازفة في حفلاتها الموسيقية. بدا الناس مرتاحين لذلك الحضور المميز في تلك المناسبة.

عندما بدأ العزف لاحظت آدا أن ديلوار مال إلى الأمام وأخذ يشدّ بيديه على طرفيّ مقعده. رأته يركّز نظره على الآنسة جوديث ماك دوغال. حاز العزف على إعجاب الجمهور الذي حيّا العازفين بالتصفيق الحاد، وأسرع ديلوار إلى الفرقة تاركاً آدا وراءه. لزمت آدا مقعدها فيما بدأ الناس بمغادرة القاعة. اتضح لها أن ديلوار لم يكن معجباً فقط بموهبة الآنسة ماك دوغال، بل هو معجب بالآنسة ماك دوغال نفسها أيضاً. وقفت آدا وتوجهت نحو باب القاعة حيث التقت السيد بيرسلي، محامي والدها، الذي حيّاها وعرض عليها أن يرافقها إلى البيت قائلاً بشيء من المرح: «من الأفضل أن نترك الموسيقيين على راحتهم، أليس كذلك؟» أسرعت آدا في الخروج إلى الشارع فلامست يده الممدودة نحوها.

بلغت آدا سن الثامنة عشرة ولم يكن أحد يتحدث عن زواجها. كانت بنظر والدها لا تزال طفلة. كان الأمر يخطر في بال بيرسلي من وقت لآخر عندما يتفقد حساب التوفير المخصّص لمهرها، لكنه ما يلبث أن يستبعد المسألة بدوره. آدا نحيلة ورزينة وصامتة لدرجة أنها تبدو فعلاً طفلة. ومن يقدم على الزواج من خرساء؟ وما هي مواصفات العريس الذي يجب البحث عنه؟ من الأفضل عدم الخوض في ذلك عن الإطلاق.

آدا بالطبع لم تعرف شيئاً عن كل هذه التعقيدات. أحست

www.9ofy.com

وهي في الثامنة عشرة بدون أم تهتم بها بأنها أكبر من ذلك بسنوات. لم تفكر في العريس ولا وجدت الزواج ضرورياً؛ إنها ببساطة سوف تواصل دورس البيانو، وتعيش سعيدة في بيت والدها مع ديلوار ولا تريد شيئاً آخر.

لكن رؤية ديلوار والآنسة جوديث ماك دوغال وهما يتبادلان الابتسامات ويتحدثان غير منتبهتين لسائر الناس، أثارت في نفسها مشاعر لم تفهمها في حينه، وأحست بأنها مهدّدة بشكل غامض وخطير. مشت آدا باتجاه البيت مسرعة، متقدمة قليلاً على السيد بيرسلي، الذي كان من حين لآخر يناديها لتبطىء قليلاً. لكنها كانت تتجاهله. عند الوصول إلى البيت صعدت مباشرة إلى غرفتها ولم تنتظر عودة ديلوار في غرفة البيانو كما كانت تفعل غالباً، لتتناول معه الحليب الساخن أو الكاكاو وتستمع إلى أخبار الحفلات الموسيقية التي ينقلها إليها.

لزمت آدا غرفتها طيلة فترة الصباح في اليوم التالي، وادعت أنها مشغولة على الرغم من أنه لم يكن هناك أي عمل تقوم به. وعندما حان موعد درسها بعد الظهر نزلت إلى غرفة الموسيقى وبدأت تعزف قبل حضور ديلوار موسيقى صاخبة ومتنافرة، كالموسيقى الارتجالية التي كانت تعزفها قبل أن تتعلّم كيف تقرأ الإشارات الموسيقية. بعد دقائق وصل ديلوار وسألها رافعاً صوته بسبب الضجيج: «ماهذا؟». أحست أنه يبتسم دون أن تلتفت نحوه فواصلت العزف بمزيد من الحدة وجعلت كل الأوتار داخل البيانو تنبض بالحركة. اقترب ديلوار منها ووقف بجانب البيانو لكنها رفضت النظر إليه وركّزت على تحريك أصابعها بقوة على المفاتيح. رفع صوته ثانية لكنها لم تسمع ما قال. واصلت العزف. مدّ يده

إلى لوحة المفاتيح ليعزف نغمات عميقة وخفيضة كأنه رغب مشاركتها في ذلك العزف المتنافر، لكن آدا توقفت فجأة عن العزف وأنزلت الغطاء بسرعة على اللوحة حتى كادت تؤذي أصابعه. نهضت ونظرت إليه واستدارت فجأة كأنها ترغب في الفرار. أمسك يدها وقال بلطف: «ماذا تفعلين؟» لم يرها من قبل في هذا المزاج المتقلّب.

رفست مقعد البيانو لتزيحه من طريقها وحاولت الإفلات من قبضته لكن ديلوار تشبّث بها وقال لها ببطء وقد توضحت له الحقيقية: «أعتقد أنك تغارين». قاومته آدا بمزيد من الغيظ لتتخلص منه. «أعتقد أنك تغارين من الآنسة جوديت ماك دوغال، يا آنسة». التفتت إليه لاهثة وقد تورد خداها. انحنى ديلوار نحوها دون أن يترك يدها وقبلها على شفتيها. كانت قبلة ناعمة على الرغم من العنف الذي ساد بينهما. أرخى قبضته وتركت آدا نفسها تسقط على المقعد. جلس ديلوار بجانبها. لم يجلسا من قبل على المقعد معاً؛ وهو بالكاد يتسع لاثنين. بدأ يعزف بهدوء قطعة تعرفها جيداً. وعندما مدّ أصابعه نحو مفاتيح النوتة العالية لامست ذراعه ذراعها. لم تتحرك من مكانها لتفسح له مجالاً أوسع ليعزف بحرية. ظلت آدا جالسة في جواره تستمتع بعزفه. قال لها بهدوء: «هذه قطعة هادئة، ببطء، ببطء».

- ٧ -

قصد باينز بقعة فيها مياه ليستحم ويغسل ثيابه، والتقى هناك بمجموعة من الماووري: سيدتان وأولادهما الذين انهمكوا في اللعب على زورق، وشاب يدعى تاهوا استلقى على غصن امتد فوق المياه. أخذ الجميع يراقبون باينز وينتقدونه وهو يعمل، وتراوحت تعليقاتهم بين الجدية البالغة والضحك الصاخب. هيرا، إحدى السيدتين، تركت شعرها الأسود ينساب في ضفيرة طويلة على ظهرها، وعلى شفتها السفلى وشم منقوش؛ انحنت على غصن تدلّى فوق المياه تريد توجيه بعض النصائح لباينز.

قالت هيرا لباينز: «أنت بحاجة إلى زوجة. لا يجوز أن تتركه منقبضاً بين فخذيك بقية حياتك». ابتسم باينز وضحك الأولاد وشاركتهم في الضحك وايمارا التي كانت ترتدي قميصها من نسيج القنب.

«باينز، لا تقلق» قال له تاهو مخاطباً إياه بالإسم الذي يطلقه عليه الماووري، «أنا أنقذك». ومدّ رجله في الماء ليغويه. كان يضع عقداً من الأصداف ويلف وركيه النحيلين بقماش ملوّن.

ردّ باينز: «عندي زوجة»، وكان الحديث يتراوح بين الإنجليزية واللغة المحلية.

قال تاهو وهو يعبث بشعره: «لا بأس. أنقذها هي أيضاً».

وبخته هيرا قائلة: «اسكت! يا لضياع الجهد الذي بُذل لإنجابك».

ردّ تاهو بوقاحة: «وأنت تعرفين جيداً هذا النوع من الجهد». ضحك باينز.

انحنت هيرا نحوه تسأله: «أين زوجتك؟»

ردّ باينز: زوجتي؟ إنها تعيش في هال في أنكلترا».

سألته هيرا: «يبدو أنها بشعة؟...» لم يرد باينز. «... لذلك هربت منها. أنت بحاجة لزوجة أخرى». وأشارت إلى عضوه لتقول: «يا له من كنز، لا تدعه ينام على بطنك في الليل».

وتعالى صوت السيدتين بالضحك فيما ابتسم باينز وواصل غسل ثيابه.

كانت آدا بالكاد بدأت تعزف بعد ظهر ذلك اليوم عندما أحسّ باينز برغبة ملحّة فقال لها: «فكّي أزرار ثوبك». رفعت آدا ماك غرات عينيها عن البيانو باضطراب شديد ما جعله يفكر أنه بالغ في الضغط عليها. «أريد رؤية ذراعيك» أضاف بشيء من التعقّل، كأنه لا يطلب أكثر مما تعوّد عليه كلّ مرة.

أحنت آدا رأسها بانزعاج وحرّكت شفتيها كأنها تقول إنه كان يجب عليها أن تتوقع هذه الخطوة التالية. جلس باينز في نهاية زاوية معتمة من الكوخ حيث لا تستطيع آدا رؤية وجهه بوضوح. أطاعته آدا على مضض ـ إنها ملزمة بتنفيذ الاتفاق ـ وبدأت برفع العلبة الفضية والقلم عن رقبتها.

www.9ofy.com

نهضت آدا لتفكّ أزرار سترتها القصيرة. خلعتها وابتعدت عن البيانو لتعلّقها. كانت ترتدي صداراً ناعماً أبيض بكمّين قصيرين فوق المشد الضيق. كشف الصدار عن رقبتها وكتفيها فأظهر بشرتها الناعمة، وعندما استدارت لتعود إلى البيانو وقع نظر باينز على ظهرها الذي ترك الصدار الجزء الأكبر منه عارياً. قال «ابدئي بالعزف».

وقف باينز ونزع قميصه. كان يرتدي تحتها قميصاً داخلياً رمادياً بكمين طويلين. بشرة آدا الشاحبة بدت له كأنها شفافة. انتبه لشبكة من العروق الدقيقة في باطن ذراعها الناعم. ظاهر يديها، الجزء الوحيد من جسمها الذي تعرّض لأشعة الشمس، كان بالمقارنة مع سائر جسمها. بدا باينز مفتوناً بهذا الاختلاف.

سمعت آدا وهي تعزف وقع خطوات باينز وصرير الألواح الخشبية تحت قدميه وأحست بأنفاسه على رقبتها. انحنى ليلمسها ويمرّر أصابعه الغليظة والقوية على بشرتها الطرية تحت ذراعها. توقفت عن العزف، رافعة يديها إلى رقبتها العارية. همس في أذنها: «مفتاحان»، أراد إقناعها بمضاعفة الحدّ المتفق عليه بينهما.

بدأت آدا بعزف النغمات الأولى من لحن متكرّر. وضع باينز يده تحت معصمها ـ إنه نحيل جداً وعظامها رقيقة. واصلت العزف ويده تمر على جلدها حتى التجويف الدافىء تحت كفها. ثم ابتعد قليلاً وأحست آدا أنه يخلع قميصه الداخلي وسمعته وهو يلقي به على الأرض. حدّقت آدا في لوحة المفاتيح أمامها ولم تعد تريد أن تسمع أو ترى أو تشعر بشيء، وباينز اقترب منها ثانية وأخذ يداعب بلطف وببطء رقبتها وكتفيها. أجبرت نفسها على العزف لكنها لم تعد قادرة على احتمال ما يحدث. إنه يثير

أعصابها بإصراره وجرأته؛ اختارت لحناً سريعاً وخفيفاً يكاد يكون هزلياً لتعبر عن توترها واستهزائها بما يحدث. شعر باينز فجأة بأنه سخيف. تغيّر مزاجه، هي التي غيرته. أبعد يده عن جلدها وتراجع إلى العتمة في الزاوية الأبعد من الغرفة ويداه على وركيه. واصلت آدا العزف بنشوة الانتصار. لقد نجحت في إرجاء ما سيترتب عليها.

وقفت فلورا بهدوء على كرسي فيما كانت العمة موراغ ونيسي تعملان على تثبيت خيوط جناحي الملاك على الصدار الذي سترتديه في مسرحية عيد الميلاد. كانت السيدتان تحاولان تعلّم بعض الإشارات التي تتفاهم بواسطتها فلورا وأمها.

قالت فلورا وهي تشير بيديها في الوقت نفسه: «سأستمع جيداً أثناء التمرين، لأنني أسكن بعيداً ولا أستطيع الحضور غالباً». حاولت نيسي تقليد حركات فلورا السريعة.

سألتها العمة موراغ: «أية إشارة تدل على كلمة تمرين؟» حرّكت فلورا يديها ثانية وحاولت السيدتان تقليدها، وارتبكتا قليلاً عندما حكّت فلورا ذراعها. تخلّت موراغ عن المحاولة قائلة: «لا أعتقد أن هناك حالة أصعب من الخرس».

«الطرش؟» قالت نيسي بعبوس دارماتيكي.

«صحيح، الطرش أيضاً ـ رهيب». ردّت موراغ بتأثر: «إنه مرعب».

فيما كانت نيسي والعمة موراغ تواصلان عملهما قالت لهما فلورا: الحقيقة أن أمي تعتبر أن معظم الكلام الذي يقوله الناس هراء ولا يستحق الاستماع إليه».

موراغ ونيسي تبادلتا النظرات. قالت موراغ بامتعاض: «حسناً. هذا رأي سليم».

ردّت فلورا: «أجل. إنه كلام آثم».

توقفت موراغ ونيسي عن عملهما قليلاً؛ لقد فوجئتا بالكلمات الجريئة التي تفوهت بها الطفلة وبنبرتها المتعالية وهي تتحدث.

بدا أليسدير ستيوارت متوتراً، مشدود الأعصاب، عندما التقى مع باينز بالزعيم نيهه، زعيم الماووريين، وبعض رجاله. كان ستيوارت يرغب في شراء أرض منهم واصطحب معه باينز ليساعده في المساومة. لم يكن باينز يفهم ولع ستيوارت باقتناء المزيد من الأرض، لكنه أبدى استعداده ليلعب دور الوسيط بين أليا كيها والماووري. ستيوارت يعرف جيداً أنه لن يتوصّل أبداً إلى التعامل مع هؤلاء الناس كما يفعل باينز، وأنه لن يتعلّم أبداً لغتهم المستحيلة؛ لم يكن يرغب في ذلك مع أنه ينزعج من ضرورة اللجوء إلى وسيط، ويفضل ألاّ يطّلع أحداً على عمله.

كان الزعيم يرتدي بذلة أوروبية من التويد ويعتمر قبعة بولر، وعلى وجهه نقوش متوازية من الوشم حول فمه وعينيه. قال الزعيم باللغة المحلية: «هذه الأرض فيها الأنهار وفيها الكهوف التي دفن فيها أجدادنا». قال ذلك بتمهل وبنبرة قوية مقصودة، وأشار بذراعه في كل الاتجاهات. وأضاف «قل له ذلك يا بايني». وهو يدل على ستيوارت».

غمغم ستيوارت لباينز، والزعيم مازال يتكلم: «ماذا يقول؟ هل وافق علىّ البيع؟»

واصل الزعيم حديثه: «أتريدنا أن نبيع عظام أجدادنا؟»

همس ستيوارت: «قدّم له البطانيات مقابل نصف الأرض». أحنى باينز رأسه. قال الزعيم مباشرة دون أن يترك فرصة لباينز ليترجم له: «أبداً، ليس هناك ثمن تستطيع دفعه».

«أثنتا عشرة» قال ستيوارت لرجال الماووري وهو يبتسم بعصبية ويرفع أصابعه ليشير إلى العدد.

قال باينز: "te, kaumarua paraikete ma te tahi hawhe o te whenua nei. اثنا عشرة بطانية مقابل نصف الأرض». تقدم هون، ابن الزعيم، وبصق على الأرض التي تفصل بين الطرفين.

«أعرض عليهم البنادق، أعرض عليهم البنادق» قال ستيوارت بإلحاح وقد زادت حدة توتره. بدأ باينز يترجم وستيوارت ينزع الغطاء عن البنادق وأوقف بندقية على عقبها وأخذ يعرضها أمامهم بابتسامة قلقة.

ألقى الزعيم نيهه كلمة مقتضبة عنيفة، لم يترجمها باينز، ونهض مع رجاله ليغادروا المكان تاركين رجلي الباكيها وحدهما.

عاد ستيوارت وباينز بحمولة البطانيات والبنادق التي رفضت بازدراء، وسلكا درباً يمر بمحاذاة الأرض التي فاز بها ستيوارت مقابل البيانو. قال يشكو من الماووريين: «لماذا يتمسكون بها؟ إنهم لا يزرعونها ولا يستصلحونها، ولا يفعلون بها شيئاً. كيف يعرفون أنها لهم؟»

توقف باينز قليلاً عند دعامة في السياج الجديد. سكت ستيوارت وراقب باينز بشيء من القلق. مشى باينز إلى الدعامة التالية ولمس الخشب المقطوع حديثاً، وفكر في الأرض التي تخلّى عنها. قالّ له ستيوارت كأنه يختبره: «نويت أن أسجّل حدودها أيضاً».

قال باينز: «أجل، ولمَ لا؟»

تابعا سيرهما. «تقول آدا إنك تتابع دروس البيانو جيداً. سوف أحضر مرة لأسمع عزفك. أية موسيقى تعزف؟»

www.9ofy.com

«لا شيء حتى الآن».

«لا شيء» قال ستيوارت حائراً وقد تملّكه الخوف من أن تكون آدا فشلت في تنفيذ ما يترتب عليها حسب الاتفاق. إنه لا يستطيع أن يثق بها على الرغم من أنه مضطر لذلك. واصلا سيرهما وكل منهما مستغرق في تأملاته.

خلعت آدا سترتها القصيرة كي تعزف وهي ترتدي الصدار كما فعلت في المرة السابقة. بدا طبيعياً أنه بعد التوصل إلى خطوات جديدة لم يعد هناك مجال للرجوع إلى ما كانت عليه الأمور قبل ذلك. ألقت بالسترة على ظهر الكرسي. إنها في الواقع تتحرك بحرية أكبر بدونها أثناء العزف، لكن آدا لم تشأ الاعتراف بذلك أمام جورج باينز.

حيّاها باينز دون أن يقول شيئاً. لاحظت آدا أنه نادراً ما يتكلم، لكنها تعوّدت على صمته، وعلى الرغم من التنازلات التي كانت مجبرة على تقديمها في كل زيارة كانت تتلهف لاستعادة البيانو. إنه بالنسبة لآدا لا يزال أهم ما تفكر فيه.

بدأت تعزف وانحنت بجسمها لتقترب أكثر من المفاتيح وتبتعد عن سائر العالم من حولها؛ مشى باينز إلى الكرسي الذي وضعت عليه سترتها. رفع السترة وهو يمر بيده على القماش، وحملها إلى مقعده الذي وضعه خلف آدا مباشرة. ضمّ السترة إلى صدره، إنها لا تزال تحمل دفء جسمها. أغمض عينيه ورفعها إلى وجهه ليشمها. أنزلها إلى حضنه وفتحها ليدخل يده عبر الكمين اللذين وجدهما ضيقين وصغيرين للغاية. هذا القماش يلمس جسم آدا. مرّ بأصابعه على القطب ولامس الأزرار، وكان لا يزال مغمض العينين، رفع السترة ثانية وغطى وجهه بها. فاح القماش بعطرها، كالبيانو.

التفتت آدا قليلاً وهي تعزف كأنها أحست بحركاته. عندما رأت ماذا كان يفعل توقفت عن العزف وقد أذهلتها طريقته الغريبة في الاستمتاع واللذة. يدفن وجهه في سترتها كأنها حية: هذا تصرّف غريب. أدارت آدا مقعدها لتواجهه ومدت يدها لتأخذ سترتها وهي تنظر إليه باستنكار وقسوة. لم ينتبه لها باينز وكان لا يزال مغمض العينين وبدا مستغرقاً حتى أنه لم يلحظ توقف الموسيقى. مشت آدا نحوه وانتزعت السترة من بين يديه. نظر إليها مدهوشاً، تريثت قليلاً لترى ماذا سيفعل، ثم توجهت نحو مقعدها.

نهض باينز وتبعها. شدّها بذراعها وأدارها نحوه. تمزّق قماش صدارها الأبيض كاشفاً عن كتفيها الشاحبين وصدرها. قرّب وجهه من أسفل عنقها وأخذ يقبّلها بنهم. لهثت آدا بصوت مكتوم كي لا تسمعها فلورا. جرّها باينز معه وكان من الواضح أنه يأخذها إلى سريره. حاولت مقاومته وهي تشد في الاتجاه المعاكس. هذا أكثر بكثير مما توقعت. عندما جلس على حافة السرير ترك ذراعها؛ جمعت آدا قماش صدارها لتغطي كتفيها وابتعدت عنه إلى البيانو، ملاذها الذي لم تعد واثقة منه، وتناولت سترتها.

ـ «آدا» ناداها باينز بصوت منخفض مشبّع بالتوق والرغبة، لكنه هادىء وأضاف «أربعة مفاتيح».

رفعت آدا يدها وأشارت بأصابعها وحركت شفتها كأنها تقول: «خمسة». وتابعت ترتيب ثيابها.

سألها باينز: «لماذا خمسة؟ أريد فقط أن أستلقي بجانبك».

نظرت إليه بثبات وقلبها يخفق بقوة. لن تتراجع عن العرض الذي قدمته.

قال باينز وهو يرفع يديه مستسلماً: «حسنا، حسناً، خمسة».

تمدّد على السرير مبتسماً وبدا رحباً وراغباً في اللهو، وربت على المكان الفارغ بجانبه كأن الأمر في غاية البساطة.

نظرت إليه آدا وهي تكاد لا تصدق أن الصفقة التي عقدتها أوصلتها إلى هنا. تنفست بعمق وشدّت أطراف صدارها وتمددت على بطنها إلى جانب باينز.

بعد فترة من الصمت بدأ باينز يداعب كتفيها دافعاً نحو الأسفل مجدداً كُمّي صدارها الممزق. أغمضت عينيها وقد حبست أنفاسها، ثم فتحتهما عندما شعرت بشفتيه تمتّان جسمها برفق. قبّل ظهرها وأذنها ودفع فمه إلى رقبتها، وكانت حركاته رقيقة وحنونة. تمددت آدا بلا حراك واحتقن خدّاها. فجأة انتبه باينز لسكونها، فهدأ بدوره. تناهى إلى سمعها غناء طائر وهما مستلقيان يسمعان أيضاً صوت تنفسهما. خافت آدا من الأحاسيس الغريبة والمشوّشة التي انسابت عبر جسمها. أحست بالخوف والخجل لتحرك مشاعرها.

رفع باينز رأسه فوق كتفيها متسائلاً ما إذا كان وجهها يكشف شيئاً من مشاعرها. نهضت آدا في تلك اللحظة وسحبت يدها من يده وابتعدت. راقبها باينز وهي تمرّ بظاهر يدها على المفاتيح العاجية اللمّاعة دون أن تصدر صوتاً، حركتها عكست مودة كان هو محروماً منها. توجه نحوها وأنزل الغطاء كأنه يريد إثبات ملكيته للبيانو، وأجبرها على إبعاد يدها عن المفاتيح. رفعت آدا سترتها وارتدتها وقد تجمعت الدموع في عينيها بسبب قسوة تصرفه غير المتوقع وبسبب وضعها غير المطمئن إجمالاً.

تجاذبتها الأفكار وهي تسلك طريق العودة إلى بيت ستيوارت. ما الذي يحدث لها؟ طوال سنوات صمتها لم تتمكن مرة واحدة

أن تكون قادرة على الكلام، لكنها اليوم تود لو تستطيع قراءة ما يخفيه جورج باينز بصمته. اهتمامه بها أشبع غرورها، وهي أدركت ذلك وأحست بخطورته. لكنها بعد الوصول إلى هذه المرحلة من الاتفاق كانت مصممة على المضي حتى النهاية، لكي تستعيد البيانو. ومهما كان الثمن الذي ستدفعه غالياً فهو لن يكون أصعب بالنسبة لها من خسارة البيانو.

انشغلت آدا بأفكارها ولم تنتبه لفلورا التي كانت تتحدث عن مسرحية عيد الميلاد التي ستعرض في غضون أيام قليلة. عرفت فلورا أن أمها لم تكن تستمع لما تقول لكنها تابعت كلامها على الرغم من ذلك. لم يعجبها تغيّر أمها في الفترة الأخيرة. «وأنا سوف ألعب دور الطفل يسوع في السنة المقبلة يا ماما، وعلى الجميع أن يطيعوا أوامري»، حاولت لفت انتباهها بذلك لكن آدا لم تسمعها.

جورج باينز عاش حالة من العذاب اللذيذ المؤلم وهو يقنع نفسه أنه ما زال قادراً على تحسس عطر آدا. تخيلها وهي راجعة إلى بيتها، تبتعد عنه أكثر فأكثر. أحسّ بفراغ قاتم وبائس يكاد يستحوذ عليه. لماذا لم تبق معه، تتمدّد بدفء بجواره؟

حان أخيراً موعد عرض المسرحية، ولم تعد فلورا قادرة على كتمان فرحها. ساعدتها آدا على جمع البدلة التي انتهت من خياطتها العمة موراغ في ذلك الصباح. أخذت آدا تحلّ الخيوط الطويلة في الستارة لتفك الحلقات الصغيرة التي تحبها فلورا، والطفلة تنشد إحدى أغنيات الميلاد. بدا الميلاد غريباً في هذا الوقت من السنة والطقس دافىء لهذا الحد، لكن فلورا تعوّدت بسرعة على مظاهر الاختلاف الواضحة وعلى التقلبات في حياتها

www.9ofy.com

الجديدة. أحبت جناحي الملاك وكانت متحمسة لظهورها على المسرح للمرة الأولى.

في ذلك المساء ارتدى ستيوارت أفضل قميص وسترة وبنطلون عنده وأعدّ العربة والحصان ليصحب عائلته الصغيرة إلى مقرّ الإرسالية. عند الوصول كان الناس ينقلون بواسطة عربات اليد للعبور فوق الوحل العميق، والأطفال الذين ارتدوا ثياب المسرحية كانوا يُرفعون ويُنقلون من يد إلى يد كأنهم دلاء تنقل لإطفاء حريق؛ وجرس الكنيسة كان يُقرع طوال تلك الفترة.

عمّت الفوضى في الداخل. أحضرت مقاعد إضافية لاستيعاب الحضور. وراء الستار انهمك أستاذ مدرسة الأحد بجمع الأطفال وتذكيرهم بترتيب الأغاني، وتفقد تسريحاتهم ولون شفاههم وتأكد أنهم جميعاً لم ينسوا الذهاب إلى الحمام. أخذ البعض يسترقون النظر عبر الفتحات الصغيرة في الستارة إلى الناس الذين غصّت بهم القاعة. قامت سيدتان تبرعتا للمساعدة بوضع المزيد من المساحيق على وجوه الملائكة، وضربتا ملاكين لأنهما غمسا أيديهما في دلو الوعاء الذي أعده القس كامبل بعناية بمساعدة كل أفراد المجموعة الدرامية التي تشارك في مسرحيته.

تجمّع حوالي أربعين شخصاً في القاعة، بينهم الزعيم نيهه ومعه عدد من أبناء شعبه يرتدون ملابس أوروبية. كان الجميع يتحدثون بمرح، ما عدا الماووريين، الذين انتظروا بدء الاحتفال ولم يعرفوا ماذا يتوقعون. رتبت العمة موراغ المقاعد الجديدة. عند باب القاعة وقف بعض الرجال يستقبلون الوافدين. وصل جورج باينز وبدا مظهره غريباً وهو يعتمر قبعة رسمية وجدها بين أغراضه. كان حضور باينز في مناسبة كهذه أمراً لافتاً، وهو شعر بالارتباك.

قال أحد الرجال: «انظروا من أتى: الموسيقار باينز».

«ماذا ستعزف لنا الليلة يا جورج، تلألئي تلألئي يا نجمتي الصغيرة؟» سأل رجل آخر.

نظر باينز بلا مبالاة ونزع قبعته. تجاهل الموجودين ومرّ بجانبهم بدون إلقاء التحية. استمرت التعليقات المزعجة وهو يجوب القاعة بحثاً عن آدا. تقدمت نحوه عمة ستيوارت وقد زينت شعرها للمناسبة بأشرطة حمراء، ومدت له يدها لترافقه.

قالت له موراغ: «ربما تستطيع مساعدة نيسي بتقليب صفحات النوتة لها وهي تعزف للأطفال؟» وقادت باينز إلى البيانو.

«هذا ثوب للمناسبة». قالت له نيسي وهي تخفض عينيها. كانت ترتدي ثوب زفاف أبيض وتغطي رأسها بخمار شفاف.

قالت موراغ: «أعجبني اهتمامك بالبيانو». وكأن الأمر يعنيها. وبدأت تفتح صفحات دفتر الموسيقى «أين نوتة هذه الأغنية؟»

في تلك اللحظة رأى باينز آدا ماك غرات وهي تدخل القاعة برفقة أليسدير ستيوارت. بدت متألقة في ثوبها الحريري الأحمر الذي عكس صفاء بشرة رقبتها وأعلى صدرها؛ جمالها الأخّاذ سحره. تقدمت بين صفين من المقاعد وتوقفت فجأة عندما أحست كأن نظرات باينز تشلّ حركتها. رؤية باينز بين الناس لم تكن أمراً مريحاً بالنسبة لآدا التي تضايقت من وجوده. لقاؤها به داخل الكوخ المعتم له سماته الخاصة وكأنه كان يدور في عالم مختلف. لكن وجوده أمامها في هذه الليلة أفقده روعته. باينز حقيقي، وكذلك شغفه الغريب، وكل مساوماتها معه حقيقية أيضاً ومثيرة للقلق.

ترك باينز موراغ ونيسي دون أن يقول شيئاً، فالتفتت نحو السيدتان وقد أدهشهما بسوء تصرفه. مر بين المقاعد واختار مقعداً خلف آدا، يفصل بينهما توأمان بشعر أحمر ويرتديان ثياب المسرحية. تجاهلت آدا وجوده كما تجاهلت نظرات الرجال عند باب القاعة.

عاد البعض لمضايقة باينز، فقال أحدهم: «جورج، من فضلك ما رأيك بأغنية لماري حمل صغير» وتابع مقلّداً ثغاء الحمل.

«أو تعزف لنا البولكا. هيا، جورج، ما بك؟»

إلتفت ستيوارت إلى الذين كانوا ينتقدون باينز. وقال بصوت منخفض: «أغبياء. جورج، تعال واجلس بقربنا». تقدم باينز ليجلس على المقعد بجوار آدا، لكن آدا التفتت بسرعة ووضعت يدها على المقعد ليجلس في المقعد المجاور وقد آلمه رفضها المباشر والمغرور.

رحّب القسّ من على المنبر بالحضور قائلاً: «سيداتي، سادتي. إجلسوا في أماكنكم. الاحتفال سيبدأ بعد قليل». رفعت الستارة واصطف الأولاد بعصبية على المسرح، يرتدون ملابس تدل على أنهم غيوم أو ملائكة، ويحملون الشموع وعصيّاً تدلّت منها النجوم والأقمار. أعجب الحضور ببراءتهم المحببة. بدأ الأطفال ينشدون التراتيل بجدية لكن أصواتهم بسبب حيائهم كانت بالكاد مسموعة. عندما وقفت فلورا في مقدمة المسرح أمسك أليسدير ستيوارت يد آدا، وهي لم تمانع. ابتسم ستيوارت من شدة فرحه. نظرت آدا إلى يديهما المضمومتين معاً وابتسمت بدورها. نظرت إلى جنبها بطرف عينها ورأت أن جورج باينز شهد تلك الحركة التي تنمّ عن المودة. تخيلت مدى تألمه بكثير من الارتياح. شدّ زوجها على يدها. حدّق جورج باينز بانشداه وفجأة لم يعد قادراً

على التحمّل فوقف وغادر القاعة. راقبته آدا وهو يخرج وقد امتلأت بنشوة انتصارها.

ظهر القسّ على المسرح وهو يرتدي بنطلون مهرج ويضع ربطة عنق كبيرة ومكشكشة، ويحمل صينية عليها شموع أضاءت بنورها وجهه الذي لوّنه بالمساحيق. كانت المسرحية تدور حول قصة «ذو اللحية الزرقاء» وهي حكاية وجدها معظم الحضور من الأوروبيين مخيفة إلى حد ما على الرغم من أنها مألوفة. «وهكذا رأت العروس الصغيرة كل زوجات ذي اللحية الزرقاء المفقودات، رؤوسهن ما زالت تنزف وعيونهن ما زالت تبكي».

تقدمت نيسي وهو يقرأ وكانت تلعب دور العروس الشابة. على الستارة الخلفية علقت رؤوس زوجات ذي اللحية الزرقاء السابقات. كان العزف المرافق مشحوناً بالترقب القلق والجمهور بدا متجاوباً ومتأثراً. مشت نيسي بحذر وهي تضيء كل رأس على حدة بواسطة صينية الشموع التي حملتها. وراء الستارة كانت العمة موراغ منشغلة بغرف الدماء ووضعها على الستارة كأنها تنزف من الرؤوس المعلّقة. نظرت موراغ إلى نيسي من أحد الثقوب وقالت لها هامسة وهي تنتقل بين الجثث: «تمهلي، تمهلي قليلاً».

واصل القسّ قراءة النصّ: «ولكن، مَنْ هذا؟»

ارتعشت نيسي وأطفأت شموعها بسرعة. سُمع صوت باب ينفتح بصرير مرتفع، وتلا ذلك وقع خطوات ثقيلة تردّد صداه في أرجاء القاعة. تجمدت نيسي وبدا الذعر في عينيها. خيال ذي اللحية الزرقاء الضخم والملتحي تحرك خلف الستارة.

«عُدْتُ إلى البيت باكراً يا زوجتي العزيزة» قال الرجل الهائل

www.9ofy.com

الحجم بكرشه الكبير وذراعيه الطويلتين المخيفتين. سُمع عزف كمان ينذر بالشؤم. «أين أنتِ؟»

حملت نيسي مفتاحاً كبيراً توجهت إلى خلف الستارة بدورها ليرى الجمهور خيالها. قالت بصوت مرتعش: «آه، زوجي، يا لها من مفاجأة».

قال ذو اللحية الزرقاء: «أجل يا زوجتي، إنها مفاجأة بالفعل». وأخذ المفتاح من يدها. «الآن أنت تعرفين سري». وأشار إليها بأصابعه الطويلة مهدّداً. كان الأطفال يجلسون مع الجمهور وهم في ملابس الاحتفال، وكانوا جميعاً يراقبون المشهد بعيون مفتوحة وتنهدوا خائفين بصوت واحد. آدا ضمّت فلورا إلى جانبها.

صرخت نيسي: «لا، لا».

«أنتِ الأصغر... والأجمل... بين نسائي... استعدي...» ورفع صوته وفأسه في الوقت نفسه وبدا الفأس فوق نيسي التي انكمشت مرتعدة رافعة يديها بالتوسّل: «إستعدي للموت!»

غمغم الحضور بإعجاب وتقدير. إثنان من محاربي الماووري من قبيلة الزعيم نيهه، هون ومانا، وقفا. قال هون هامساً: «Aue! Ha aha ra tenei-hey! هل هي جريمة قتل؟»

قالت نيسي ترجوه: «لا، لا، إنتظر أرجوك».

وقف عدد من رجال الماووري دفعة واحدة.

قال ذو اللحية الزرقاء: «لن أنتظر!»

صرخت نيسي: «لا».

قال لها مزمجراً: «تحسسي رقبتك». ورفع الشكل الشرير فأسه ثانية، وتحرك الماووريون مجدداً. صرخ هانا: «pokoko-hu جبان!

سنرى ماذا تفعل معي!» وانطلق يعدو بين الناس. كل زوجات ذي اللحية الزرقاء فتحن أعينهن وبدأن يصرخن. «أرني قوتك الآن!» وقفز إلى المسرح وهو يلوّح بهرواته وتبعه عدد من رجال الماووري.

تدافع الحضور إلى أحد جوانب القاعة، فيما سادت الفوضى على المسرح وتعال الصراخ الحقيقي هذه المرة. أحاط المقاتلون بذي اللحية الزرقاء ورفعوا مظلّة كالرمح فوقه وهم يتذمرون. الزعيم نيهه، ومعه مجموعة من أفراد قبيلته، بينهم بناته، لم يتحركوا من مقاعدهم. ضرب نيهه عصاه على الأرض وصرخ بصوته العالي: «Hoki mai! ـ كفى، كفى! ارجعوا في الحال».

فيما بعد تمت مرافقة الزعيم نيهه ومن معه، بما في ذلك المقاتلون المستاؤون، إلى ما وراء الستارة الخلفية حيث عرض أمامهم الأدوات المختلفة المستخدمة في العرض المسرحي ـ دلو الدماء، والفأس المصنوع من الكرتون، والفتحات في الأغطية. وقدمت لهم العمة موراغ جميع زوجات ذي اللحية الزرقاء: «السيدة ويليامز، السيدة بارسونز، السيدة ريد، الآنسة...» وتريثت قليلاً حين وصلت إلى السيدات غير المتزوجات وتابعت: «الآنسة، بالمر، الآنسة كير». أحنى الماووريون رؤوسهم للسيدات وسلموا عليهن بلباقة. «هذا جيد، هذا جيد جداً». قالت العمة موراغ في النهاية، ولم تكن توجه كلامها إلى شخص معين.

- ٨ -

بعد خروجه المبكر من قاعة مقر الإرسالية أمضى جورج باينز ساعات طويلة خانقة وهو يفكر بآدا ماك غرات. إنه الآن يجلس صامتاً وجو الغرفة بدا ثقيلاً من حوله. عزفت آدا مقابل المفتاح الثالث عشر والتفتت تنتظر تعاليمه. كان باينز مستغرقاً في كآبته، وقد أسند رأسه بيده. بدا مختلفاً، عابساً وبعيداً. عندما رفع نظره إليها أشارت إليه آدا برأسها لتقول له إنها انتهت وتنتظر ما يريد. قال لها بنبرة لا مبالية ومتعبة: «افعلي ما يحلو لك. اعزفي ما تشائين». تنهّد وهو يفكر أنه لم يكن لينجح في الدخول إلى العالم الصامت لهذه المرأة المتزوجة والمتحفظة، وكان يجدر به ألا يرغب في ذلك أيضاً.

احتارت آدا لهذا التغير في سلوك باينز، وتساءلت ما إذا كان سببه أنه رأى أليسدير ستيوارت يمسك بيدها؛ لم تتخيل أن يكون لنزوتها تأثير قوي لهذا الحدّ. استعدت للعزف وهي مرتبكة فعادت إلى اللحن الذي بدأت بتأليفه وتنقيحه منذ بضعة أسابيع، والذي كان بإيقاعه الذي يعلو ويهبط يعكس بعض التشوش والفوضى في

قلبها وفي عقلها. كان عزفها متسارعاً بإيقاع رباعي. بعد قليل التفتت؛ أحست بالقلق. واصلت العزف بتمهل وانتبهت أن باينز ليس موجوداً. تفاجأت ونهضت عن مقعدها، وقد انتابها خوف مفاجيء من أنه قد يخلف في وعده ويتراجع عن اتفاقه معها ولم يعد هناك سوى أقل من نصف المفاتيح. مشت بهدوء لكن صرير الألواح الخشبية بدا عالياً في الصمت المفاجيء، وحاولت معرفة مكان باينز من صوت تنفسه. تحركت ببطء يرافقها حفيف ثنيات تنورتها، حتى وصلت إلى الستارة الحمراء المخرمة التي تغطي سريره، تمهلت لتسترق النظر، لا شيء. توجهت إلى الستارة الثانية. تريثت ثم فتحتها وفي الحال تراجعت إلى الخلف وهي تلهث.

خلف الستارة وقف جورج باينز عارياً. لم يسبق لآدا أن رأت رجلاً عارياً من قبل. وقف باينز في ضوء الشمس. جسمه ممتلىء وعريض ومليء بالحيوية، وعضلاته المكتنزة بدت واضحة في الضوء. حدق في آدا ودون أن يرف له جفن وقال: «أريد أن نستلقي معاً بدون ملابس». لم تعرف آدا أين تنظر. رفعت يدها إلى فمها مرتبكة. سألها: «كم تطلبين؟» كان صوته واضحاً ومقنعاً.

نظرت آدا إلى الأرض ثم رفعت عينيها إليه مباشرة احتارت بين رغبتها في رفضه بازدراء والردّ على جرأته الوقحة، وبين رغبتها في انتهاء الفرصة لكسب المفاتيح الثمينة. وبدون الخوض في مزيد من التردّد رفعت أصابع يدها وأشارت بها مرتين.

قال باينز موافقاً: «حسناً، عشرة مفاتيح». رفعت آدا يديها معاً وأشارت بأصابعها دفعة واحدة كأنها تحدد السعر النهائي. ثم تنفست بعمق وهي تكاد لا تصدق أنها وافقت على طلبه.

www.9ofy.com

أزاح باينز الستارة عن السرير، وجلس وهو يضع يده على ركبته وأخذ يراقب آدا وهي تخلع ملابسها.

في الغابة كانت فلورا تهيم مع خيالاتها تمتطي جذع شجرة وتتخذه حصاناً. أعدت ما يشبه اللجام وجلست بشكل جانبي، وراحت تردد لحن الأغنية التي تعلمتها للمسرحية وهي تجوب التلال على ظهر حصانها الصغير غابريال. مع غابريال فلورا لا تشعر أبداً بالوحدة.

رفعت آدا فستانها لتخلعه فكشفت عن صدارها ومشدها وعن سروالها الداخلي وجوربها وقفص الأسلاك المربك. حوّلت يديها إلى التنورة ذات الأطواق ومن ثم إلى أربطة مشدّها.

انتبهت فلورا إلى توقف الموسيقى المفاجيء، فانزلقت عن سرج حصانها وتوجهت نحو الكوخ.

في الداخل وقفت آدا عارية بين كومة من الثياب الملقاة على الأرض. رتبت الغطاء على السرير ومدت فوقه تنورتها أسندت ظهرها إلى وسادة حمراء وضمت ركبتيها. بدت أصغر حجماً وأكثر قابلية للتأثر بدون تلك الطبقات الواقية التي كانت ترتديها. بلطف بالغ سحب باينز رجليها وحرّكها من كتفيها ليقرّب جسمها من جسمه.

صعدت فلورا درج الشرفة لتستكشف أمر الصمت الغامض. سكتت عن الهمهمة وأخذت تسترق النظر عبر مختلف الشقوق والفتحات في الألواح. كان مجال الرؤية محدوداً لكنها استطاعت أن تتبين أجزاء من أجسام ورأت لمعان الجلد الشاحب في الظلام. السيد باينز متمدّد فوق أمها. ارتابت وزاد فضولها وتابعت مراقبتها عبر تجويف آخر في الجدار. سمعت جورج باينز يهمس برقة، يخبر

أمها أسراراً، وفلورا تعرف أنه غير مسموح لها الاطلاع على هذه الأسرار.

لم تعد آدا قادرة على التحرك، وباينز لم يفعل شيئاً يجعلها ترغب في ذلك، كانت لمساته لطيفة وهادئة وقبلاته عذبة. أحست أنها مشلولة ومع ذلك كانت مرتاحة؛ جلده دافيء ومرن وحيّ، مختلف عن مفاتيح البيانو التي تلمسها بأصابعها. تركت يدها حيث وضعها تمكث هناك بسكون. بعد فترة ابتعد باينز عنها. حدّق الواحد منهما في الآخر محاولاً أن يعرف حقيقة شعوره. ثم نهضت آدا لترتدي ملابسها.

في اليوم التالي كانت فلورا تلعب مع ثلاثة من أولاد الماووري الذين صادقتهم، وذلك في فسحة مشمسة بين أشجار الصنوبر. جلست ثلاث نساء يدخنّ ويثرثرن في الظلّ، وواحدة منهن حملت خنزيراً صغيراً في حضنها وكان يعتبر حيواناً مدللاً. بدأ الأولاد لعبة يعمدون فيها إلى فرك أجسامهم صعوداً وهبوطاً على جذوع الأشجار ويقبلونها ويعانقونها. وعندما يصرخ أحدهم: «بدّلوا!» كان الجميع يتبادلون الأشجار. كان يشوب اللعب بعض الفوضى بسبب إنتقال الأولاد باستمرار من شجرة إلى أخرى فيتدافع أثنان أو ثلاثة لتقبيل الشجرة نفسها.

لم ينتبه الأولاد لمجيء ستيوارت. أدرك ستيوارت طبيعة اللعبة فشدّ يد ابنة زوجته وأبعدها عن الشجرة التي طبعت عليها للتو قبلة كبيرة.

قال لها بقسوة: «لا تفعلي ذلك ثانية أبداً، في أي مكان» وجاهد للسيطرة على أعصابه فيما كانت النساء يهزأن من قلقه. «هذا عار كبير. لقد تسببت بالعار للأشجار». طقطقت النساء

ألسنتهن وحركن رؤوسهن بسخرية وهن يراقبنه يجر الطفلة بعيداً. توردّت وجنتا فلورا من شدة الخجل. لم تعد تعرف ماذا تفعل لإرضاء أمها أو هذا الرجل.

عاد ستيورات برفقة فلورا إلى أشجار الصنوبر بعد بضع ساعات وطلب منها تنظيف كل شجرة ألحقت بها العار بواسطة الماء والصابون. في البداية تملكتها الرغبة في البكاء لكنها ما لبثت أن حوّلتها إلى رغبة في المشاكسة عندما تعبت من فرك الجذوع. قالت له عندما أقبل نحوها، وهي تتباهى بأنها تمتلك معلومات تعرف أنها ذات قيمة: «أنا أعرف لماذا لا يستطيع السيد باينز عزف البيانو».

أشار أليسدير ستيوارت إلى شجرة وقال: «لقد تركت هذه البقعة هنا».

«إنها لا تعطيه دوراً. هي تعزف ما تريد. وفي بعض الأحيان لا تعزف أبداً». مئزرها كان مبللاً برغوة الصابون.

نظر إليها ستيوارت بتمعّن. «متى موعد الدرس التالي؟»

أجابت فلورا: «غداً».

هبت الريح بقوة في اليوم التالي. صوت الدغل كان هائلاً، والأشجار تماوجت مع تدافع الريح، والغصون الصغيرة تكسرت وسقطت على الأرض حيث كان السرخس يدور كالدراويش. أسرعت آدا وفلورا في هذا الضجيج الهائل من الصرير والدفع العنيف؛ معطف آدا راح يخفق ولم تستطع شدّه حولها، فيما طار معطف فلورا بعيداً عن جسمها. طارت الطيور كأنها أصيبت بالجنون، تتدافعها الريح، ترفعها ثم تسحبها إلى الأسفل.

وصلت آدا وفلورا إلى كوخ باينز لتجد مجموعة من رجال الماووري يحملون البيانو. كان الرجال يغنون وهم ينزلون بالآلة

الضخمة على درج الشرفة. واحد منهم كان يعتمر قبعة رسمية لم يفعل شيئاً سوى أنه كان يضرب على المفاتيح كأنه يعزف إيقاعاً يواكب الغناء الذي كان يرتفع أكثر من كل درجة. أسرعت آدا إلى داخل الكوخ مذعورة من هذا التحول المفاجيء في الأحداث وتركت فلورا في الخارج.

كانت هيرا تعدّ الطعام لجورج باينز. كلاهما توقف عن عمله عندما دخلت آدا. بدت مضطربة وهي تلوّح بيديها بإصرار لتشير إلى ما رأته في الخارج وتطالب بتفسير. كانت أكثر وضوحاً في التعبير عن نفسها من المعتاد؛ لم تكن آدا تظهر بهذه الحيوية إلاّ أمام فلورا. توقفت عن تحريك يديها وأخذت تروح وتجيء في الغرفة محاولة السيطرة على أعصابها. كانت تحت وطأة حالة عاطفية محيّرة؛ أدركت وهي تسعى لتهدئة نفسها أن ما أثارها كان إحساسها بأنها مرفوضة وهذا ما أدهشها. جورج باينز يبعد البيانو عن كوخه، ويبعدها معه، وهذا لم يجعلها تشعر بالسعادة كما تصورت.

مازال صوت غناء الرجال مسموعاً وهم يحملون البيانو بعيداً.

قال لها جورج باينز: «رددت لك البيانو». وقف في مواجهتها وعلى وجهه علامات الاهتمام والألم. نظرت إليه آدا. ماذا يقصد بكلامه؟ تابع يقول: «أخذت ما فيه الكفاية».

فتحت آدا فمها وأطلقت صوتاً مخنوقاً عكس خيبة واضطراباً كبيرين. أخذ ما فيه الكفاية منها أم من البيانو؟ عزفها، حضورها: إنه يخرق اتفاقهما. أحست بأنها مصابة بدوار وأنها فقدت توازنها من هذا الارتداد الاستفزازي.

اقترب منها باينز، واستدار قليلاً وحرّكها معه لكي يحول دون

www.9ofy.com

سماع فلورا وهيرا لما يريد قوله. رأته مرهقاً وشاحباً. قال لها هامساً: هذا الاتفاق يحولك إلى عاهرة ويجعلني بائساً». حدقت آدا في الأرض. «أريدك أن تهتمي بي، لكنك لا تستطيعين ذلك».

عاد إلى مكانه مقابل الموقد مع هيرا. «إنه لك. عودي إلى بيتك». نظرت إليه آدا وقلبها يخفق بالامتعاض والخوف.

«هيا، اذهبي!» قال جورج باينز يحثّها بغضب.

شدّت قلنسوتها ورفعت طرف تنورتها وغادرت المكان بسرعة.

كان الماوورين قطعوا مسافة بالبيانو وهم يتحدثون ويروون النكات الجريئة ليرفعوا معنوياتهم. مشت فلورا وآدا في المقدمة، وكانتا مهتمتين بكيفية نقل الآلة. كان الرجال قد غطوا البيانو ببطانيات وبدوا حريصين عليه وعلى السرعة في الوقت نفسه. آدا التي كانت تتجاذبها المشاعر أحست فجأة بسعادة عارمة، البيانو صار لها.

رأى ستيوارت المجموعة الصغيرة تتقدم عبر الأشجار. كان في طريقه إلى كوخ جورج باينز يريد القيام بزيارة غير متوقعة ليتفقد طريقة آدا في إعطاء الدروس لباينز. أحسّ بالإحباط وهو يلتقي بالبيانو في الغابة.

قال بلهجة آمرة: «توقفوا في الحال!» وهو يركض نحوهم «هذا البيانو ليس لكما...» قال لآدا وفلورا، توجه بكلامه إليهما كأنهما طفلتان. «ماذا تفعلان بالبيانو؟ هه؟»

تبادلت آدا وفلورا النظرات، وآدا لم تعرف كيف ترد. قالت فلورا بدلاً منها: «لقد أعطانا إياه». كان وجهها مشرقاً وبدت حائرة لأنه لم يشاركهما فرحتهما. ملامح آدا كانت مشدودة ولم

يظهر عليها أي انفعال. حدّقت فيه بثبات وكان من المستحيل عليه أن يفهم ماذا تخبىء وراء نظرتها.

اندفع ستيوارت نحو الماوورين وأمرهم قائلاً: «ضعوه أرضاً! ضعوه أرضاً!» ورجع قليلاً ليقول لزوجته بصوت منخفض وهو يشير إليها بيده: «مُنتهى البراعة يا آدا، لكنك كشفت نواياك. لن أخسر أرضي بهذه الطريقة». لم يفهم لماذا تصرّ زوجته على تنكيد عيشه بهذه الطريقة. وعاوده الإحساس بأن البيانو يكاد يكون لعنة على زواجهما. صرخ في الرجال وهو يمشي نحوهم بخطوات ثقيلة الوقع: «إلزموا مكانكم!».

كانت هيرا تجلس على درج الكوخ تراقب الباب قالت له: «جورج لا يريد رؤية أحد. إنه مريض». توقف ستيوارت واستند إلى الدرابزون الخشبي وهو يلهث. اقتربت منه هيرا تسأله: «معك tupeka لهيرا؟»

فهم ستيوارت أنها تريد تبغاً. قال لها «لا» وتجاوزها ليقف أمام النافذة. أدخل يده وأزاح الستارة جانباً وناداه قائلاً: «باينز».

كان باينز مستلقياً على ظهره وقد غطّى عينيه بذراعه.

قال ستيوارت: «باينز، لم تكن مضطراً للتخلي عن البيانو. سوف أتأكد بنفسي أنك ستتلقى تعليماً مناسباً، بواسطة الموسيقى المكتوبة وكل الوسائل الممكنة». كان يتوق إلى إصلاح الضرر الذي تسببت به زوجته بسلوكها الغريب الأطوار.

قال له باينز وهو يجلس على سريره بفتور: «لا أريد أن أتعلم». لم يكن على ما يرام.

ردّد ستيوارت: «لا تريد أن تتعلم؟»

«لا».

تريث ستيوارت. «وماذا عن اتفاقنا؟ أنا لا أستطيع أن أدفع لك ثمن البيانو إذا كان هذا قصدك».

«لا، لا أريد مالاً. أنا أعطيته».

قال ستيوارت بصراحة: «لا أعتقد أنني أريده».

ردّ باينز وهو يتوجه نحو المقعد: «أنا أعطيته لزوجتك».

قال ستيوارت: «آه، آه حسناً» شعر فجأة أنه غبي ومحرج أمام شهامة باينز. «حسناً، أعتقد أنها سترحب بذلك».

لم يعد يعرف ماذا يقول ـ من المؤكد أنه تهوّر في تفسير كلام فلورا بهذه السرعة. سلك أليسدير ستيوارت درب بيته وهو مرتاح لأن صفقة الأرض ظلّت كما هي. ثمانون فداناً ليست مساحة كبيرة، لكن الجدول الذي يجري في تلك البقعة مفيد جداً: إنه يحتاج الماء لريّ أرضه الأكثر انخفاضاً. والآن استعادت آدا البيانو بدون أن يكلفه ذلك شيئاً أو يتسبب له بأي ازعاج، لذلك اعتبر ستيورات أن الأمر قضي بنجاح تام. زوجته استرجعت البيانو، وهو لم يكن ضعيفاً؛ لم يخضع لرغبتها. إضافة إلى ذلك ربما يساعدها فرحها بالبيانو على معاملته بلطف أكثر. إنه يذكر من حين لآخر كيف وضع يده في يدها أثناء الاحتفال وتلك الذكرى تعاوده أحياناً وهو يعمل في الأرض أو هو يستعد للنوم. يدها الصغيرة والعزيزة والدافئة والرقيقة كانت في يده كحمامة صغيرة ناعمة تنبض بالحياة. إنه يتوق لضمّها بين ذراعيه، لكن هذا لايزال بعيد المنال ومن الأفضل ألا يفكر فيه الآن. لقد أمسك يدها وفرح بذلك، وهو الآن يتمنى فقط لو تسنح له الفرصة ليمسك بيدها ثانية.

أوصل الرجال البيانو إلى بيت ستيوارت سالماً؛ لكن ستيوارت الذي عاد مؤخراً من رحلته التموينية لم يكن في حوزته مال ليدفع إلى الماوورريين أجرهم. لم يجد عنده سوى مرطبان مليء بالأزرار، وكان الماوورريون في ما مضى يرحّبون بالازرار في مساوماتهم التجارية. لكن عرض الازرار اليوم أثار غضبهم.

صاح واحد منهم: «ضع الإزرار في مؤخرتك أيها السافل، لسنا أطفالاً». لكن باينز لم يفهم ماذا قال. وأخذ آخرون يصيحون بدورهم.

أجاب ستيوارت: «هذا كل ما أملك». وبدا مرتبكاً بالفعل. وقبل أن يفكر ماذا سيفعل كان أحد الشبان، تاهو، انتزع منه المرطبان وركض وهو يرفعه فوق رأسه. صرخ ستيوارت بدون جدوى «أرجع المرطبان!» وغادر الرجال بخطى ثقيلة وهم يغمغمون بغضب.

آدا التي لم تنتبه لما يحصل في الخارج، رفعت غطاء البيانو وبدأت تعزف مقطوعات قصيرة لتسمع رنين النغم وتتأكد أنه لم يصب بأذى.

دخل ستيوارت وأقفل الباب خلفه. سألها: «كل شيء على ما يرام؟ لماذا لا تعزفين لنا؟لا

ابتعدت آدا عن البيانو. لم تكن متحمسة لتعزف للرجل الذي عقد صفقة بالبيانو وحرمها منه. أشارت إلى فلورا لتجلس أمام البيانو، وفلورا فرحت بأنها ستعزف أمام جمهور. سألت بخجل: «ماذا أعزف؟»

التفت سيتوارت إلى آدا التي وقفت عند النافذة كأنها غافلة عما يجري وقال لفلورا: «اعزفي لحناً راقصاً».

www.9ofy.com

نظرت إلى أمها تسألها: «هل أعزف لحناً راقصاً؟» كانت آدا مستغرقة في أفكارها ولم تنتبه لابنتها.

قال ستيوارت: «اعزفي لحن أغنية تعرفينها ثم...».

بدأت فلورا تغني وتعزف لحناً اسكوتلندياً حزيناً. بعد الاستماع إلى العبارات الأولى توجهت آدا نحو الباب وخرجت. تملّكتها الرغبة بالابتعاد عن البيانو وعن كل ما يعنيه: باينز ورفضه المفاجىء، وزواجها المستحيل. شعرت أنها مشوّشة الذهن، وأن البيانو محور هذه التشويش. رآها ستيوارت تغادر الغرفة وهو يضرب بأصبعه على البيانو ليواكب إيقاع غناء فلورا. انتقل إلى النافذة ليتأملها وهي تمشي بين جذوع الأشجار المسودّة. توقفت فلورا عن العزف. أثارت آدا غضب ستيوارت بغموضها وعدم تجاوبها فقال: «لماذا لا تعزف؟ نعيد لها البيانو وهي تمشي في الخارج». لم تجبه فلورا، لأنها لم تشعر أنه يوجه الكلام إليها. هي أيضاً كانت حائرة ومنزعجة من سلوك والدتها. قال لها ستيوارت: «حسناً، تابعي العزف»، وأخذ يضرب بتجهّم على البيانو فيما واصلت فلورا عزف لحنها الجنائزي.

تمشت آدا وعلى وجهها علامات الكآبة والقلق. توقفت قليلاً والتفتت نحو البيت. رأت أليسدير واقفاً عند النافذة يراقبها. بدون أن تفكر، إلتفتت بعيداً ووجدت نفسها تسلك طريق بيت جورج باينز. نظرت بعيداً في الدغل، وكأنها بتركيز نظرها تستطيع أن ترى ما وراء الأشجار، وتعرف ما الذي يثير اضطراب قلبها هكذا. استدارت لتلقي نظرة إلى الأشجار المحرومة في أرض زوجها، ثم تابعت سيرها.

كانت آدا تعرف أن الطريق الذي تحملها إليه أفكارها مسدود.

جورج باينز ليس زوجها، ولم يعد حتى تلميذها. هي لا تملك سبباً يبيح لها زيارته. وأخذت تقارن بين أليسدير ستيوارت وجورج باينز على الرغم من أنها كانت تحاول أن تمنع نفسها من ذلك. كانت تشعر أحياناً أنها تعمل عند ستيوارت أكثر مما هي زوجة له؛ علاقتهما لا تزال رسمية وباردة. هل تستطيع أن تغفر له الآن بعد استرجاعها البيانو، وبعد انتهاء الصفقة الشهوانية مع جورج باينز؟ استدارت وهي تجاهد لتمنع نفسها من سلوك الدرب إلى بيت باينز. كانت متوترة ومضطربة ولم تعرف كيف تهدىء رغبتها. لفت ذراعيها حول خصرها تعانق نفسها بحزن وهي تروح وتجيء في الفسحة الجنائزية مقابل بيت زوجها.

نظرت آدا إلى البيانو وهي تتناول طعام الفطور في المطبخ. تسربت أشعة شمس الصباح إليه فتألق لمعان خشب الورد. توجهت إليه ومعها قطعة قماش لتمسح عنه الغبار، ثم مرّت بظاهر يدها على المفاتيح تربت عليها بلطف حميمي كالمعتاد. كأن البيانو كان مستودعاً مشاعرها وهي تحتاج لملامسته كي تعرف ماذا يدور في خاطرها رفعت أحد المفاتيح بأصبعها. حُفر إلى جانبه على الخشب قلب صغير اخترقه سهم وعلى طرفيه حرفاً «أ» و «د». هي التي حفرت هذه الإشارات بنفسها، منذ فترة طويلة. تركت المفتاح يرجع إلى موضعه وبدأت تعزف.

بعدما ارتاحت أصابعها على المفاتيح وانطلق اللحن أغمضت آدا عينيها وعزفت بإحساس متدفق فغمرت الموسيقى العذبة أرجاء بيت أليسدير ستيوارت. ثم توقفت فجأة، والتفتت إلى جنبها. لم يكن هناك من يجلس في الضوء الخافت ليستمع إليها. حاولت أن تبدأ من جديد، وأن تملأ الفراغ الذي انتابها، لكنها لامست

المفاتيح العاجية بيد واحدة، وأحست أنها عاجزة عن متابعة العزف. مكثت حائرة لا تقوى على الاستمرار ولا تقوى على النهوض. يد على الغطاء ويد على المفاتيح. آدا ماك غرات وصلت إلى مرحلة غامضة في حياتها؛ إنها أمام نقطة تحول يجب أن تجد حلاً لها.

بعد مرور وقت لم تستطع تحديده دفعت فلورا الباب تريد من آدا مرافقتها لرؤية الدجاجات.

تناولت آدا معطفها وقلنسوتها وقررت وهي تحت تأثير الصدمة أنها ستذهب إلى كوخ جورج باينز. تركت البيت في الحال ونبهت فلورا إلى أنها لا تستطيع مرافقتها. أسرعت الخطى على الدرب الضيّق، وكانت الرياح العاصفة تعبث بأشجار الدغل وتحركها بعنف. لحقت بها فلورا التي استاءت من تخلي أمها عنها. تعلقت الفتاة بتنورة آدات وأخذت تشدها وتصرخ: «انتظري! انتظري!» وكأنها كانت تعرف إلى أين كانت آدا ذاهبة ولماذا.

إلتفتت نحوها آدا وشدّت تنوّرتها من بين يديها وأشارت إليها تقول: «ارجعي. إياكِ أن تتبعيني!» كانت الطيور تغني على الأشجار فوقهما. مهما يحدث في هذه الأرض لا شيء يبدو أنه يزعج الطيور ويمنعها من مواصلة الغناء.

سألتها فلورا بإلحاح: «لماذا؟ لماذا لا أستطيع؟» أشارت إليها آدا: «عودي إلى البيت وحضري دروسك».

على مقربة منهما كان ستيوارت في هذه الأثناء يشق طريقه عبر الدغل مع تاهو الذي كان يساعده في ذلك اليوم. عندما سمع الصراخ توقف ورأى آدا تترك فلورا خلفها، والفتاة صرخت قائلة: «لن أتمرن ولا شيء يهمني!» رآهما بوضوح من مكانه.

لم تتوقف آدا لتستمع إلى شكوى إبنتها. توجهت فلورا إلى البيت وهي تضرب الأرض برجليها وتلوّح بيديها بغضب وتتمتم: «اللعنة، اللعنة! إنها سيئة، سيئة جداً! ليتها تقع على وجهها في وحل [illegible]لي! ليت الكلاب البرية تعضها حتى تنزف منها الدماء! لعينة! لعينة!...»

خرج ستيوارت من بين الأشجار ووقف أمامها فأخافها. نظرت إليه بعينين. اتسعتا من وقع المفاجأة، فسألها: «أين أمك؟ إلى أين ذهبت؟»

صرخت فلورا في وجهه غاضبة: «إلى جهنم!» واندفعت تعدو بسرعة كأنها توقعّت إنها ستلاحق وتعاقب على نزوتها.

مشى ستيوارت على الدرب الذي سلكته آدا وكان يستطيع أن يلمحها من بعيد ويرى أطراف ثوبها تعلو عن الأرض من سرعتها. كانت الرياح تزعج الأشجار وتجعلها تصمد وتحتك بأغصانها. تبع ستيورات زوجته التي كانت غافلة عن ملاحقته لها.

دفعت آدا باب الكوخ لاهثة دون أن تدق عليه. كان باينز مستلقياً على سريره غارقاً في سباته. نهض. وقفت آدا عند الباب غير قادرة على التحرك أبعد من ذلك. أقبل باينز نحوها وعيناه تطرفان من الخمول وبدا متحفظاً ومرتاباً إلى حدّ ما. سألها بلا مبالاة: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟» لم تأت آدا بأية حركة ولم تتغير معالم وجهها. «هل تركت شيئاً هنا؟» وتابع وهو يدخل قميصه تحت سرواله: «لم أجد شيئاً».

لم تتحرك آدا. نظرتها التي عكست تجاوباً غير مألوف ورحابة جديدة أيقظت باينز. «هل يعرف شيئاً؟»

هزّت آدا رأسها ومشت إلى حيث كان البيانو. وقفت هناك في

www.9ofy.com

المكان الفارغ ونظرت حولها كأنها تبحث عن مفتاح لأزمتها. جو الغرفة كان ثقيلاً ورائحة الأشجار الرطبة والمكسوة بالطحلب كانت نافذة.

«لم يتضرّر البيانو؟ وصل سالماً؟» أحنت آدا رأسها. لم يكن أيّ منهما يعرف ماذا يريد.

سألها: «هل ترغبين في الجلوس؟ أنا سأجلس» وجلس وهو يشرب من كأس وضعها على طاولة أمامه.

آدا لم تجلس ظلت واقفة بلا حراك. تحسّست حضوراً لباينز. في أعماقها خفق له قلبها. نظر إليها يبحث عن كلمات يقولها وقد فاجأه حضورها غير المتوقع وكذلك ما بدا عليها من رقة غير مألوفة.

قال كأنه يعاتبها: «آدا. آدا أنا تعيس». وسكت ثم أضاف: «لأنني أريدك. لأنني منشغل بك ولا أستطيع التفكير بشيء آخر. إنني أتألم». وفتح ذراعيه وهو يبتسم فجأة بانكسار: «أنا مريض من الشوق، لا آكل ولا أنام». نظر إليها وكان من الواضح لها أنه يعاني. «إذا كنت قد جئتِ وأنت لا تحملين أية مشاعر لي، فلتذهبي». بذل جورج باينز جهداً كبيراً ليقول ذلك، وحين لم يلمح أية استجابة على وجه آدا، قست ملامحه وقال لها: «اذهبي!» وأشار إلى الباب برأسه «اذهبي! اذهبي!» ثم وقف وتوجه نحو الباب ليفتحه لها.

لكن آدا لم تتحرك لأن اعتراف باينز اخترق قلبها وشلّ حركتها. لم تسمع من قبل مثل هذه الكلمات. كان جسمها يرتعش وصدرها يشتعل. أحست أنها يجب أن تتنفس ببطء شديد كي لا تشعل بألسنة اللهيب. لماذا لا يرى ما يصيبها؟ لماذا يطلب

منها الذهاب. إنها تكرهه لأنه أعمى، وتكرهه لما فعل بها، ولأنه تملك جسمها مرة تلو المرة. لقّن جسدها أحاسيس جديدة، ورغبات جديدة، حتى باتت لا تعرفه. وهو اليوم الذي جرّها إلى الكوخ على الرغم من كل ما تمسّكت به حتى الآن من كبرياء وإرادة، وعلى الرغم من رجاء ابنتها أيضاً.

لكن باينز لم ير ما تعانيه آدا. كان مقتنعاً أنها تعبث به بلا مبالاة أو شعور مما أثار غضبه. «هيّا، إذهبي!» قال ذلك بصوت مثقل بالانفعال وأضاف يصرخ: «إنصرفي!»

لسعتها كلماته فاقتربت منه بعينين امتلأتا بدموع الغضب. وصفعته بقسوة على خده. نظر إليها باينز مصدوماً. انهالت عليه آدا تضربه على كتفيه وتصفع وجهه. رفع ذراعيه ليحمي نفسه وبدا الارتياح والإشراق على وجهه وكأنها تبوح له بحبها. ذهلت آدا وتورد خداها؛ كانا في تلك اللحظة يقفان وجهاً لوجه، متماثلين، وكل واحد منهما تملكه شعور عارم بوجود الآخر. تلاقت نظراتهما وتوحدت لتعقد بينهما مودة؛ أحاط جورج آدا بذراعيه وهو شبه مخدّر كالذي يسير في نومه ويفتح عينيه ليجد نفسه في مكان لا يعرف كيف وصل إليه. كانت ترتعش والدموع انهمرت من عينيها. قبّل عنقها ثم حرّك رأسه لتلتقي شفاهما، وأخذا يتبادلان القبلات ويتلمس أحدهما الآخر بشفتيه وخديه وأنفه وعينيه وشعره. لم يكن هناك أي افتعال في رقتهما، كانت مشاعرهما تقود غرائزهما. ملامح وجه باينز كانت مشبعة بالتوق واللذة؛ وآدا تمسكت به كأنها تخاف أن يختفي. أخذ كل منهما ينزع ملابس الآخر يري أن يتحسس المزيد من جسمه؛ وتلاشى العالم من حولهما.

وقف أليسدير في الخارج يتأمل كوخ جورج باينز بارتياب؛ ألقى الكيس الذي يحمله معه إلى عمله على السلم، ولم ينتبه لنباح فلين. اقترب أكثر وسمع تنهيدة من الداخل. لم يكن يفكر في طرق الباب. توجه خلسة إلى جانب الكوخ وخلع قبعته. استرق النظر وهو يرتجف من فتحة بين لوحين خشبيين. رأى في الداخل جورج باينز وزوجته آدا ماك غرات.

كان جورج وآدا يعملان على فك الأشرطة والأربطة في ملابس آدا، وبدأت الأزرار تتطاير وحُرّرت قطع الثياب الموثوقة بإحكام. تبادلا قبلة، زادت حدة الرغبة فيهما؛ تملكهما شوق عارم واهتياج لم يعرفاه من قبل. تحسّس جورج سترة آدا ووقع على ركبتيه ليرفع تنورتها وطوقها ويدفن رأسه في رائحة جسمها. أغمضت آدا عينيها وتنهدت وتأوهت برقة. شدّ جورج جوربها إلى الأسفل؛ وترك يديه الكبيرتين الدافئتين على رجليها. مع كل لمسة كانت حمّى الرغبة تزداد فيهما.

أحسّ سيتوارت بثقل في حنجرته وتشوّش في ذهنه. ابتعد عن الفتحة وهو لا يزال يسمع تنهداتهما. كان مسحوقاً وممتلئاً بالغضب. ولم يعرف ماذا يفعل، فاقترب من الفتحة ثانية بدلاً من أن يدفع الباب ويضع حداً لما يدور في الداخل. تلك النظرة الثانية، نظرة الفضول، سلبته إرادته: مكث هناك مشلولاً ومقيداً ووحيداً.

رفعت آدا تنورتها لتخلعها. كانت وهي تنزع كل قطعة ثياب تشعر أن جلدها العاري يتكهرب من ملامسة الهواء الناعمة واللطيفة. وضعت يديها على رأس جورج تعبث بشعره وهو راكع أمامها. ابتسمت وهو يتحسس بوجهه بشرة ساقيها، وشفتاه ولسانه يبحثان عن حلاوتها. شدّته ليقترب أكثر؛ كل تلك الأحاسيس

الغريبة اجتاحت كيانها دفعة واحدة. تألق وجهها وهي تهز بنشوة قوية كادت توقعها.

أسند سيتوارت نفسه إلى الحائط أسير فضوله. لم ينتبه للكلب فلين الذي بدأ يلعق يده. رأى باينز يشدّ سروال آدا الداخلي ورأى رجليها عاريتين. فجأة أبعد يده عن الكلب ونظر إليه كأنه لا يفهم ما حدث؛ كانت رطبة باللعاب. مسحها على الألواح الخشبية وتابع مراقبته وهو عاجز عن التحرك من مكانه أو القيام بأية مبادرة.

داخل الغرفة الصغيرة كشفت ألواح الأرض والجدران القاتمة والخشنة حسن ورقة بياض جسمي آدا وجورج. حملها على ذراعيه ومشى بها ليضعها على سريره. كان الكوخ معتماً، لكنه رأى طريقه بواسطة الأشعة التي يتسرب عبر الشقوق والفتحات بين الألواح وتقاطعت أنفاسهما، وكل منهما مفتون بسحر شهوانيته. آدا أحست بجسمها في الخارج والداخل في الوقت نفسه وكأنها تهذي؛ غمرتها نشوة كانت ترتفع مع تدفق مشاعرها في كل عناق خصلات شعرها الأسود الطويل انسابت على خديها والتفّت حول رقبتها. تدفقت الدماء إلى خديها وتألقت عيناها حين لامس جورج بوجهه نهديها برقة وبطء وهو يستمتع برائحة جسمها المعسولة. مرت بيديها على ظهره العريض لتشد جسمه إلى جسمها، واستمرا كأنهما سكرا من السعادة يهتزان معاً كأن أمواجاً تتدافعهما. كان حين يقبلها يتحوّل نفسها إلى همسات منخفضة وأصوات رقيقة مما يضاعف إثارته فيقترب منها أكثر كي يتلاشى في نشوة مشاعره. كان يسألها بعذوبة: «ماذا؟ ماذا؟ ... إهمسي».

أليسدير سيتوارت لم يستطع التحرك، كان مأخوذاً بجمال

www.9ofy.com

زوجته المتألق وبفعل الحبّ الذي لم يعرفه أو يشهده من قبل.

وهو فوقها أحست بثقل جسمه المثير. كانا يتحركان معاً في انسجام كأن روحاً واحدة تسري في جسميهما ويجمعهما حب عميق وسعادة عارمة. أشعة الضوء النحيلة كشفت ضخامة جسم جورج مقابل ضآلة جسم آدا، وامتلأ عضلاته مقابل رقتها ونعومتها؛ وهو كان خائفاً من أن يسحقها لكنها شدّته إليها تعانقه بمنتهى الشغف والرغبة. وهكذا استمرا مسلتصقين، متقاربين أكثر فأكثر، غارقين معاً في عالمهما. مارسا الحب مراراً، في المرة الأولى دون وعي وباندفاع تبادلا الحبّ بإلحاح. تملكتهما أحاسيسهما الجنسية وحملتهما من أقصى درجات الإثارة إلى الهدوء الكلي، حتى تعبا وصار فعل الحب بطيئاً كأنه قبلة طويلة لا متناهية. فتح باينز أبواب قلبه وهو يبكي ويضحك، ممتلئاً حباً ورهبة أمام هذه الأنثى الرقيقة التي استطاعت أن تفتنه وتستنفذ قواه إلى هذا الحدّ.

جلس جورج على السرير يراقبها وهي ترتدي ملابسها. كان تعيساً يفكر في برودة الواقع مقابل حرارة تعاطفهما، وتمنى لو أن أنشودتهما تكون بلا نهاية. «ستذهبين الآن وأنا أشعر بالتعاسة. لماذا يحدث ذلك؟» اقتربت منه آدا ليساعدها في تزرير كُمّيها، تلك الحركة البسيطة والأليفة وسعت قلبه أكثر. «آدا، يجب أن أعرف، ماذا ستفعلين؟ هل ستأتين مرة ثانية؟»

آدا حملت سترتها وبدأت تجمع الأزرار التي وقعت على الأرض. كانت مشغولة البال تفكر في الوقت الذي مرّ وتريد أن تنتهي من ارتداء ملابسها لتعود إلى فلورا. لم تكن ترغب في الاستماع إلى أسئلة جورج؛ لأنها لا تملك الإجابة عليها. مدّت يدها لتلتقط الزر الأخير لكنه أفلت منها وضاع في أحد الشقوق.

أليسدير ستيوارت حشر نفسه تحت كوخ باينز في الزاوية المعتمة والمتعفنة التي اختبأ فيها فلين من معذبته فلورا. وقع الزرّ على رقبة ستيوارت وانحدر من قبة قميصه إلى ظهره. تنهد بصوت مكتوم كي لا يكتشف أحد مكانه.

قال لها جورج: «إنتظري، لم أعرف بماذا تفكرين». رتبت آدا شعرها بسرعة وشبكت بالدبابيس الخصلات التي أفلتت، وكانت بذلك تشد نفسها أكثر إلى أرض الواقع. سألها جورج برقة: «ألا يعني لك هذا شيئاً؟ آدا، أشعر الآن أنني مشتاق إليك». ومدّ ذراعه ليلف به خصرها: «هل تحبينني؟»

تريثت آدا وهي تفكر في سؤاله ونظرت إلى المرآة لتتأمل وجهها، لم تجد أي تغيّر أو علامة، مع أنها كانت تتوقع ذلك. بماذا شعرت عدا تلك السعادة العميقة وذلك التنبّه الداخلي والغامض؟ التفتت إليه آدا ببطء ثم رفعت قميصه وأخذت تقبل صدره كأنها تريد أن تمتلىء به بدلاً من الردّ عليه. حيّرته فتساءل ما إذا كان ذلك جواباً أم لا ـ انشغاله حال دون استمتاعه بقبلاتها. أبعدها قليلاً حتى يستطيع تبين ملامحها. قال لها بإلحاح: «تعالي غداً. إذا كان جوابك «نعم» تعالي غداً». غمرته بقبلاتها كأنها لم تكتفِ منه، وكأنها لم تذق جسد رجل من قبل.

- ٩ -

ظنت آدا أن أحداً لم يعرف سرّها، لذلك أمضت ليلتها مرتاحة ومبتهجة. سمحت لفلورا أن تسرح لها شعرها قبل أن تأويا إلى فراشهما. لكنها بدلاً من أن تجلس بهدوء كما تفعل عادة، قفزت آدا وبدأت تدور في الغرفة جذلة، تبتسم وتضحك بصمت، ووقفت فلورا على السرير وضحكت وهي تصرخ: «أمي! كفى! اهدئي!»

سمع ستيورات الضجة والقهقهة من الغرفة المجاورة، فشدّ على فكّيه وتصلبت رقبته. سرّح شعره المبلل بعناية بعد الاغتسال، وجلس يفكر بين الأوراق، لكنه لم يكن ينظر إليها. بعد قليل نهض وتوجه إلى باب غرفة نوم فلورا وآدا، اللتين كانتا تتقلبان على السرير وكان من الصعب التمييز بينهما وهما تمرحان معاً وقد أرخت كل منهما شعرها الأسود الطويل وارتدت قميص نوم أبيض اللون. لم يكن ستيوارت قادراً على التحكّم بغضبه، وهذا أثار خوفه؛ ماذا عساه يقول لزوجته الآن؟ صمت آدا حمله هو أيضاً على الصمت. تركهما تلعبان وخرج ليقطع الأخشاب في الظلام، حتى انطفأ نور المصباح في غرفتهما.

في اليوم التالي عندما رأت آدا ستيوارت يتوجه إلى أرضه لمواصلة مهمته التي لن تنتهي في وضع سياج على حدودها، أسرعت بطورها لمغادرة البيت دون أن تلفت انتباه فلورا التي كانت تلعب. أسرعت الخطى وهي تسلك الطريق إلى بيت جورج باينز وقلبها مترع بالشوق. كانت السماء داكنة والأشجار تتمايل بقوة. بدت لها الغابة فجأة حاقدة ولا نهاية لها.

توقفت آدا لاهثة لتلقي نظرة خلفها لتتأكد أن أحد لم يكن يتبعها ـ كانت تفكر في فلورا ـ وفي تلك اللحظة رأت أليسدير ستيورات ماثلاً أمامها. تراجعت آدا قليلاً. لم ترَ تلك النظرة على وجهه من قبل. عيناه لم تنظرا إليها مباشرة بل أحاطتا بها بانفعال وحشي انفعال يشوبه الغضب والنقمة والعناد. إنه يعرف وجهتها، وآدا فهمت من تعابيره أنه عرف أيضاً ماحدث هناك في الأمس. أخفضت عينيها ومشت بثبات حتى تجاوزته وتابعت سيرها كأنها لم تلتق به، وأخذت تسرع بتكبر وإصرار. لكنه تبعها ولحق بها وأوقفها بذراع واحدة وشدّها إليها يقبّلها بنهم وقد ضمّها إليها بقوة. قاومته ودفعته وانسلت من قبضته إلى الأسفل وأفلتت منه. ركضت، لكنها لم تستطع الهرب منه لم يساعدها الغاب القديم على ذلك. أمسك بها ستيوارت ثانية وجرّها بعيداً عن الشجرة التي تعلقت بها يائسة، شدّها بلا رحمة بكل قوته، وتشبثت هي بالغصن حتى عجزت عن الاستمرار مدة أطول. رماها على الأوراق والوحل وارتمى فوقها بوجهه المحتقن والغليظ الذي راح يضغط على وجهها البارد والشاحب. التقت نظراتهما، وفي هذه اللحظة من التردّد تمكنت آدا من دفع ستيوارت بعيداً عنها. حاولت أن تجلس لكنه رفع ثوبها وأدخل يده بالقوة بين رجليها وأخذ يمزق ثيابها الداخلية. تأوهت آدا وهي تلتفت إلى هذه الجهة وتلك

www.9ofy.com

وتقاوم زوجها وترفسه وتشد تنورتها إلى الأسفل وتحاول إبعاد يديه عنها لتمنعه من لمسها. زحفت تحاول الابتعاد لكنه أمسك بتنورتها وشدّها إليها كأنه بحار يسحب المرساة. أغصان النبات المعترش الكثيفة بدت لها كأذرع تمتد إليها لتقيّدها. كأنها ثعابين رمادية تلتف حولها وقد نسجت شبكة رهيبة بالتواطؤ مع الرجل الذي أحضرها إلى هذه الأرض.

ارتمى فوقها ثانية ولف خصرها بيديه الكبيرتين. صرخت فلورا وهي مقبلة نحوهما: «ماما، ماما». كانت مضطربة ودموعها تغطي وجهها وجناحا الملائكة يحيطان بيديها صرخت قائلة: «إنهم يعزفون على البيانو».

عندما سمع ستيوارت صوت الطفلة أرخى قبضته وترك آدا تنهض. نفضت وألقت عليه نظرة مذلّة جعلته يشعر لبعض الوقت إنه هو الآثم فأحنى رأسه وقد تملّكه الإحساس بالخزي. هدّأت آدا نفسها ومشت للقاء ابنتها.

في بيت ستيوارت تحلّق عدد من الماوويين حول البيانو. إبنة الزعيم نيهه كانت تحاول العزف وأخذت تضرب المفاتيح بقوة وتصدر ضجيجاً مزعجاً.

مشت فلورا خلف آدا التي كانت تسوي وضع قلنسوتها وتملّس تنورتها على الطريق إلى البيت. عندما وصلتا كان الماووريون يهمون بمغادرة المكان.

تبع ستيوارت زوجته لكنه لم يقل لها أو لفلورا شيئاً وتوجه مباشرة إلى كومة الحطب وبدأ يقطع ألواحاً. انزوت آدا في غرفتها ترتجف وتغطي أذنيها خائفة من الوضع الذي تسببت به. انهمك ستيوارت في تثبيت الألواح على النوافذ المقفلة مانعاً تسرّب القليل

من الضوء إلى الداخل. فلورا التي كانت لا تزال تضع جناحي الملاك التراخيين أعطت ستيوارت توجيهاتها من داخل البيت تريد مشاركته في عمله. قالت له: «بابا، هنا» ووضعت يدها حيث توجد فتحة نسيها. بدأت تناديه «بابا» بدون أن تنتبه. التفتت نحو أمها لترى ردّة فعلها، لكن آدا كدأبها في تلك الفترة لم تعرها اهتماماً.

أمضت آدا بقية ذلك اليوم مستلقية على سريرها تتفحص وجهها في مرآة صغيرة وهي ما تزال تبحث عن أي تغير أو علامة. وجه جورج تغير، لماذا لا يتغير وجهها أيضاً؟ استدارت إلى الجهة المقابلة ولمست خدّها وهي تحدق في المرآة قرّبت المرآة ببطء من فمها وقبلت صورتها مطوّلاً بحركة شهوانية غريبة.

تابع ستيوارت عمله بإصرار ووضع أخيراً مزلاجاً خشبياً على الباب من الخارج وأقفله حابساً آدا في الداخل.

بعد فترة اقتربت آدا من السرير وقالت لأمها تؤنبها: «ما كان يجب أن تذهبي إلى هناك. لقد أخطأت». واستدارت حول السرير وجلست بجانب والدتها. «أنا لا يعجبني ذلك، ولا يعجب البابا أيضاً». فتحت علبتها وتناولت مجموعة من أوراق اللعب. بدأت توزع الأوراق وتلقي بعضها على حضن آدا وأضافت: «نستطيع أن نلعب الورق معاً، إذا أردت». لكن آدا استدارت وأغمضت عينيها وضغطت جسمها ووجهها على الفراش كأنها تطلب الراحة. تأملتها فلورا، بدا وجهها الصغير فجأة أكثر نضوجاً بملامح الارتباك والاضطراب التي اعتادتها، فتساقطت الأوراق من يدها على السرير دون أن تشعر.

وهكذا أغلق عليهما ستيوارت النوافذ والباب وحوّل البيت إلى

سجن. أراد أن يعلم آدا درساً لن تنساه. رتّب الألواح، الواحد بعد الآخر، ومع كل ضربة مسمار كانت آدا تجبر نفسها على الابتعاد أكثر عن الحاضر حتى استغرقت في عالمها وانفتح أمامها ممر طويل من الذكريات.

بعد أسبوع من عناقهما لم تلتق آدا ماك غرات ديلوار هوسلر. احتاجت سبعة أيام لتستعيد ثقتها، وتتأكد أنها لن تخجل عند رؤيته. لم تكن لديها أية فكرة عن رأيه فيها، وهي من جانبها لم تكن مستعدة لتكشف له مشاعرها.

لم يحاول ديلوار هوسلر استدراج آدا لإخراجها من عزلتها؛ كان يعرف أن هذا لا يتناسب مع وضعه وخاف في الوقت نفسه أن يدفعها ذلك إلى الابتعاد عنه. عندما غادرت الغرفة في ذلك المساء، قبل أسبوع تركها تخرج دون أن يقول لها شيئاً. تلك القبلة غيّرته؛ لم تعد آدا بالنسبة له مجرد طفلة. رآها كما هي وليس كما يفترض فيها أن تكون. وجدها رائعة.

ظلت غرفة الموسيقى هادئة سبعة أيام خلال هذه المدة لم ينتبه ويستون ماك غرات لما يحصل. مرّ بعد ظهر يوم أمام الغرفة ولم يجد ديلوار وآدا في الداخل، لكنه سرعان ما نسي الأمر لأنه كان منشغلاً بأمور أخرى. كان المحامي بيرسلي قد وجّه إليه تحذيراً قاسياً في مستهل ذلك الأسبوع. قال له ينذره: «عليك تنظيم أوضاعك قبل فوات الأوان». تنهد ويستون بعمق قبل أن يردّ عليه بنبرته الساخرة المعهودة، أنه لأجل هذا يدفع أجر محام ومحاسب.

أمضت آدا معظم الوقت في غرفتها. كانت تصدّ بوقاحة كل الذين حاولوا الاطمئنان لحالها من العاملين في المنزل، تصرفها الطفولي هذا لم يكن مناسباً مع إحساسها المفاجيء بأنها صارت

شابة. بعد عدة ساعات من اليوم الأول في منفاها انتابها السأم وتناولت شغل الإبرة الذي تركته لتتسلّى. ستقدم ما تشتغله هدية لوالدها، ربما تعدّ شيئاً خصيصاً لديلوار أيضاً.

لكنها سرعان ما أبعدت الإبرة والقماش. أحست براحة أكبر وهي متمدّدة على السرير تتأمل الفضاء عبر النافذة وتحلم بديلوار هوسلر واللقاء به، وما من شيء آخر كان يعنيها.

بعد مرور أسبوع أحست أنها استعادت ثقتها بنفسها فتوجهت في الوقت المعتاد إلى غرفة الموسيقى. جلس ديلوار بجانب البيانو كما تعوّد أن يفعل لبضع ساعات كل يوم من ذلك الأسبوع. لم يعد يخرج في المساء وابتعد عن أصدقائه وحتى عن الموسيقى. كان حريصاً على تحاشي اللقاء بجوديت ماك دوغال التي صارت صورتها شاحبة وذابلة بالنسبة له.

وقف ديلوار بارتباك عندما انتبه لدخول آدا. ابتسمت له بتهذيب وبشيء من البرودة. اضطرب وتقدم ليمسك بيدها لكنه تريث وفضّل ألا يفعل ذلك. أحنت رأسها بتحفظ وأشارت إليه بأنها ترغب في الاستماع لعزفه.

كان عزفه سيئاً، أصابعه تعثرت وتداخلت الأنغام واختلطت. لم تسمعه آدا يعزف على هذا النحو من قبل، كان دائماً يعزف بإتقان، لكنها لم تظهر له استغرابها. كانت في أعماقها مسرورة بارتباكه، ولاحظت تورّد عنقه وخديه. مدت يدها لتلمس خدها فوجدته ما زال بارداً.

طلب منها ديلوار أن تعزف لكنها رفضت. كان يتوق للتحدث إليها، ليعرف شعورها، ويعتذر عن جرأته ويمر بيده على خدها. لكنه اكتفى بعزفه الحاد لشوبان. بعد حوالي ساعة لم يعد قادراً

www.9ofy.com

على الاحتمال. كان لا بدّ من المبادرة. إما أن يأخذها إليه أو يغادر الغرفة. وقف يضرب مقعد البيانو بقدمه، ثم غادر الغرفة دون أن يقول شيئاً.

تأملته آدا من نافذة الغرفة وهو يمشي في الحديقة ويتوجه إلى الجدول. جلست لتعزف بعد أن تأكدت أنه لن يسمع صدى أنغامها. عزفت لحناً ارتجالياً مستندة إلى ما تعلمته من ديلوار وجعلت البيانو يغني، حاملاً صوت أفكارها ومشاعرها.

التقى ديلوار وآدا بعد ظهر كل يوم في الموعد نفسه. مضى شهر وديلوار يعزف وآدا تستمع. عزفه لم يتحسن، لأنه كان منشغل البال بالتغير الحاصل في حياته، لم يعد ينعم بالهدوء وهو يعزف ولم يعد يعرف طعم الراحة. كان ينتقل من اليأس إلى البهجة ومن العمل إلى الركود ومن التوق إلى الوحدة في الجملة الموسيقية الواحدة. كانت النوتة المطبوعة تتراقص أمام عينيه أحياناً؛ لم يعد يعرف كيف يقرأ الموسيقى، كأن الموسيقى لم تعد تسمح له بقراءتها. حاول أن يعزف من الذاكرة، لكنه لم يكن مثل آدا يستطيع أن يرتجل الألحان.

أخيراً وافقت آدا أن تعزف بنفسها. جلست وبدأت تعزف لحناً لم يسمعه ديلوار من قبل. سألها عندما انتهت: «ما هذا؟ من هو مؤلف هذا اللحن؟» أربكه جهله لكنه أراد أن يعرف. هل كانت آدا تتمرن في غيابه؟

لكن آدا بالطبع لم ترد. لم تلمس علبة الأوراق الفضّية التي تدلت حول عنقها وواصلت العزف. ذلك اللحن كان من تأليفها. خطر لها في أثناء الليل وهي اليوم تعزفه دون تغيير أو تعديل. كانت خجولة لدرجة أنها لا تستطيع الاعتراف بذلك لديلوار.

فرحت باهتمامه وإحساسه بتقصيره الثقافي. كانت تعزف وهو جالس يستمع إليها بتمعّن.

عادت فترات لقائهما إلى نمطها السابق. ديلوار يعطي التعليمات ويعزف النماذج وآدا تراقب. تحذو حذوه. صارت علاقتهما رسمية للغاية يتعاملان بتهذيب وتحفظ وانتباه كأنهما رجعا إلى أيام لقائهما الأولى. كان ديلوار يتوق لكسر الحاجز الآخذ في الارتفاع بينهما. فهمت آدا ذهوله وارتباكه، لكنها لا تستطيع إعطاءه ما يريد.

لم تفكر آدا في الزواج من ديلوار هوسلر، وقبل عناقهما لم تكن تفكر في الزواج أصلاً. لم تكن قلقة بسبب رأي والدها في ديلوار، أو حتى فيها؛ لم يكن يهمها رأي أيّ كان. لكنها لم ترغب في التمادي في وضع يصعب عليها بعد ذلك استرجاع السيطرة على حياتها. أرادت أن تستمر الأمور كما كانت، قبل الآنسة ماك دوغال، قبل تلك الليلة، عندما كان العالم يعني بالنسبة لها نفسها وديلوار والبيانو فقط.

كانت مقتنعة أن اهتماماتها لا تتعدى هذا النطاق، لكنها بالطبع كانت ترغب في أمور أخرى. كانت تحلم بذراعي ديلوار تحيطان بها وبشفتيه الدافئتين تلامسان شفتيها؛ تلك الخيالات لم تكن قادرة على التحكّم بها.

كان ديلوار يظن أحياناً أنه ربما يكون مصاباً بالجنون. هل عناقه لها مجرد وهم، أو خيال، أو رغبة من ابتكار مخيلته؟ أتى رفاقه لزيارته وحاولوا إثارة حماسه لتنظيم الحفلات الموسيقية ثانية، لكنه لم يتجاوب مع إصرارهم. كان يمشي لساعات طويلة في الصباح ينتظر موعد لقائه بها بعد الظهر. كتب لها رسائل لم يرسلها؛ وحضّر كلمات لم تسمعها منه أبداً.

ديلوار لم يكن رجلاً عملياً، بل كان على العكس من ذلك رومنطيقياً. لم يكن يفكر ويخطط كيف يجعل آدا ملكاً له بالزواج. ولم يكن يتدرب على تمثيل أدوار أمام ويستون ماك غرات فهو لم يطلب منه مثلاً الحصول على مال من أختيه لتأسيس منزل له ولابنته. لم يكن يفكر بالزواج مثل آدا. هي تلميذته وهو أستاذها. هذه الهوة لا يمكن ردمها. علاقتهما غير قابلة للتغيير.

خطرت له فكرة، أخيراً. أرسل إلى لندن يطلب مقطوعات موسيقية جديدة وأعطى الفاتورة إلى ويستون. وصلت أوراق النوتة المطبوعة في صباح أحد الأيام. حملها إلى غرفة الموسيقى وأخذ يروح ويجيء منتظراً حضور آدا.

حيّاها عند دخولها وكان هادئاً ومتحفظاً كالعادة. «عندي لك موسيقى جديدة. إنها تدعى فانتازيا لشوبيرت». نظرت إليه آدا باستغراب. كان ديلوار يطلب غالباً مقطوعات موسيقية جديدة لكنه لم يكن يعطي الأمر هذه الأهمية من قبل. جلست على المقعد مقابل البيانو وهو عرض الأوراق أمامها متباهياً. حدّقت آدا في الخطوط الأفقية التي دوّنت عليها الموسيقى؛ كانت العلامات الموسيقية مدوّنة بطريقة غير مألوفة. اعتقدت آدا في الفترة السابقة أنها تعلمت قراءة الموسيقى، وشعرت باعتزاز لما أحرزته من تقدم في مجال الدراسة النظرية. لكن ما تراه أمامها الآن مختلف تماماً عما تعرف.

قال لها ديلوار مبتهجاً بانتصاره: «هذا لحن ثنائي!» نظرت إليه آدا وقد تغيرت ملامحها واتسعت عيناها. «إنه موضوع لأربع أيد. أربع أيدٍ تعزف معاً». أعادت النظر إلى العلامات الموسيقية فوجدتها أكثر وضوحاً. تابع يقول وهو سعيد بفكرته: «رائع أليس كذلك؟ ستتعلمين كيف تعزفينه معي. هذا تحدّ يخوضه معظم العازفين، إنه يساعد على التوصل إلى عزف أفضل وأكثر غنى».

توجه ديلوار إلى المقعد وجلس بجانبها. كان المقعد بالكاد يتسع لهما معاً. ابتعدت عنه آدا قدر الإمكان، لكنها انتبهت أنها عندما أفسحت مجالاً يفصل بينهما اقترب ديلوار والتصق بها، وأخذ يضغط بجنبه الأيمن على جنبها الأيسر. لم تعد قادرة على الابتعاد أكثر لأن هذا سيمنعها من العزف بحرية. وقفت لتحضر كرسياً، لكن ديلوار الذي فكّر بهذا الاحتمال قال لها: «الكرسي منخفض بشكل غير مناسب». وأضاف وهو يربت على المكان بجانبه: «سنكون بعيدين جداً ـ ولا تعود المفاتيح في متناول يدك».

وهكذا جلست آدا بجانبه ورضخت لرغبته في فرض وصايته، ولم تكن تفكر بأكثر من ساقه الملتصقة بساقها. عندما حرّك قدمه تحركت رجله على رجلها. أحسّت بالدماء تحتقن في خديها؛ بذلت جهدها لتحافظ على هدوئها.

كان اللحن الأول مرضياً، وهو كمعظم الألحان الثنائية يميل إلى الحزن وإلى الخيال الرومنسي، وهو موضوع ليصل بالصوت إلى معدّل لا يستطيع الوصول إليه العازف المنفرد. عزفا ببطء في البداية، لأن الواحد منهما لم يكن متآلفاً مع إيقاع الآخر. وكان استخدام بندول الإيقاع ضرورياً لضبط الإيقاع. مضى أسبوع وديلوار يأتي بلحن ثنائي جديد كل يوم؛ ألحان عسكرية وفالس وسيمفونيات لبيتهوفن وموزارت كلها موضوعة لأربع أيدٍ، ولم يعد يعزف مع آدا ألحاناً أخرى. انتبه العاملون في المنزل لما يجري وأخذوا يعلقون ويضحكون ويسترقون النظر إليهما وهما يعزفان.

www.9ofy.com

لكن وقع الموسيقى كان مكتملاً وعذباً وويستون ماك غرات عبّر عن إعجابه بالأستاذ والتلميذة وبكفاءتهما الموسيقية.

اغتاظت آدا في البداية مم اعتبرته حيلة من ديلوار هوسلر. البيانو ليس آلة يعزف عليها اثنان، هذا أمر سخيف. كانت دائماً تجد متعة كبيرة في الإحساس بالأنا الذي يعطيها إياه البيانو. لكنها تحب الموسيقى وهذا تحدّ جديد في العزف، وبدون القيام بمحاولة فعلية أدركت أنها لن تستطيع مقاومته. بعض الألحان كانت جميلة للغاية. بعد فترة من التمرين بدأت تستغرق في العزف مجدداً. والإحساس بالعزف، والعطاء الكلي المتآلف مع عطاء الآخر، كانا بمثابة تجربة رائعة. أربع أيد تتوصل بالفعل إلى تكوين صوتي منسجم لا تستطيع التوصل إليه يدان فقط، كما قال ديلوار. شعرت آدا بأن تحفظها يتلاشى ويذوب كالأملاح التي تضاف إلى مياه الإستحمام الساخنة لتتحول إلى نعيم. شعرت أنها قريبة من ديلوار هوسلر، قرّبتها إليه الموسيقى وازدادت الآن اقتراباً بسبب تلامس جسديهما. شعرت أن عالماً جديداً بدأ يتكشف لها؛ انتابها فضول غريب ونادر، ولم تكن خائفة. إنها فتاة متميزة، مختلفة عن الصورة المألوفة في عصرها، لكن ديلوار لم يرَ ذلك فيها. رآها شابة صغيرة ناعمة، عيناها داكنتان معبّرتان وعندها شغف غير اعتيادي بالبيانو.

تسللت آدا ذات ليلة إلى غرفة الموسيقى بعدما أوى الجميع إلى غرف نومهم. رفعت غطاء البيانو وانتزعت مفتاحاً من لوحة المفاتيح ثم وضعت الشمعة بجانبها وجلست تحمل التي جلبتها من غرفتها وأخذت تحفر على جانب المفتاح ما تصورته تعبيراً عن مشاعرها، وعندما انتهت أعادت المفتاح إلى مكانه بعناية. شعرت

آدا أنها منسجمة مع ديلوار؛ وقد خطر في بالها أحياناً أنه يستطيع قراءة أفكارها. إنه بمعنى ما كان يستطيع قراءة أفكار آدا ولكن فيما يتعلق بالموسيقى ولم يكن ذلك على نحو استثنائي وفي جميع الأمور تصوّرت آدا.

بعد بضعة أشهر، في ليلة عيد الميلاد، تلقى ديلوار هوسلر وعائلة ماك غرات دعوة لحضور حفلة موسيقية خاصة في أبردين. بعد فترة من التردّد قرّر ديلوار حضور الحفلة وعرض الأمر على آدا ووالدها. لم تتحمس آدا للذهاب لأنها لا تريد رؤية ديلوار بين رفاقه مجدداً بعدما استطاعت الاحتفاظ به لنفسها فترة طويلة، لكن ويستون وافق وآدا أحست أنها مجبرة على المشاركة. والدها لم يكن في حالة جيدة في الفترة الأخيرة فتصورت أن الأمسية سترفع من معنوياته. وهي بالطبع لا تريد أن يحضر ديلوار الحفلة بدونها.

لكن ويستون آثر عدم الخروج ليلة الميلاد وأوى إلى غرفته كي يستطيع حضور العشاء التقليدي. وهكذا خرجت آدا مع ديلوار بدون مرافقة الأب الذي منحهما الموافقة.

غصت القاعة بالحضور كأن معظم سكان أبردين كانوا هناك، وكان العزف رائعاً. خرجت آدا وديلوار بعد نهاية العزف مباشرة. لم يقل ديلوار شيئاً لآدا لكنه فضّل التهرب من أصدقائه والاستمتاع بهواء الليل البارد والمنعش وذراع آدا في ذراعه. إنسحبا بعيداً إلى الشوارع المرصوفة بالحصى قبل أن يعترض أحد طريقهما.

في البيت كان كل شيء هادئاً. ويستون نائم في غرفته في الجهة المقابلة، والعاملون في إجازة يمضون تلك الليلة مع عائلاتهم. وقف ديلوار في المدخل كأنه سينهي اللقاء بأن يتمنى لآدا ليلة طيبة، لكنها شدته بذراعه قبل أن يتكلم وقادته إلى غرفة الموسيقى.

فتشت بين الأوراق وأعطت ديلوار لحناً يعرف أنها تحبه، وأشارت إليه بأنها تريده أن يعزفه لها.

جلست آدا على مقعد بجوار البيانو وأغمضت عينيها. بدت جميلة في ضوء المصباح، وجهها هادىء وبشرتها الشاحبة تألقت من الضوء الذي انعكس عليها من زجاج النوافذ ومن بين بريق زينة الميلاد ومن التماع خشب الورد الذي صنع منه البيانو. تأملها ديلوار مطوّلاً ثم بدأ يعزف.

حملت الموسيقى آدا إلى عالم آخر حيث كل شيء له نعومة الحرير وحيث تنعم الغرف الصغيرة بالدفء ليلاً. الموسيقى جعلت قلبها يغني، وأنفاسها تتسارع وامتلأت بالشوق لشيء ما لم تعرف التعبير عنه.

كان ديلوار يراقبها وهو يعزف. عندما انتهى فتحت عينيها وابتسمت. قال لها: «الآن دوري لأختار». أختار اللحن الثنائي الأطول والأكثر إثارة للمشاعر بين الألحان التي تعلماها في المدة الأخيرة.

جلست آدا بجانبه، وعندما أحسّ بها بقربه تنفس بعمق وامتلأ كيانه برائحتها. عزفا اللحن مرة واحدة، وكان العزف مكتملاً بإيقاعه وقوته وإثارته لأحاسيس لم يكتشفاها من قبل. ثم جلسا صامتين وصوت الموسيقى مازال يتردّد في أرجاء الغرفة. ثم استدار الواحد منهما نحو الآخر، وارتمى بين ذراعيه. نهضا متعانقين وديلوار دفع مقعد البيانو بعيداً.

في بيت أليسدير ستيوارت مشت آدا في نومها. انتبهت فلورا لأمها فتبعتها. توجهت آدا إلى البيانو، وجلست وبدأت تعزف. خصلات شعرها انسابت بحرية على ظهرها، وقميص نومها كان

رقيقاً. كانت الموسيقى ملحّة وعالية وقوية، وراحت آدا تعيد النغمات نفسها مرة تلو الأخرى في منظومة متوترة وصاخبة ليست لحناً بالمعنى الفعلي للكلمة.

انكبت على العزف وقد أحنت رأسها وكتفيها وكانت بالكاد تلتقط أنفاسها، ويداها تتماوجان بثقة على لوحة المفاتيح كأنها في حالة اليقظة.

أيقظت الموسيقى ستيوارت، الذي نهض في الحال وحمل المصباح إلى غرفة الجلوس حيث وجد آدا تعزف وفلورا تقف بجانبها.

قالت له فلورا: «انظر، إنها نائمة» ومرّت بيدها أمام وجه أمها كأن أمها عمياء. واصلت آدا العزف بهدوء نسبي وكأنها في نومها سمعت صوت فلورا فأحست بالطمأنينة. قالت فلورا لستيوارت: «ذات ليلة» وتابعت بصوت منخفض ومشبع بسحر التأليف: «وجدوها في ثياب النوم على الطريق إلى لندن. قال جدي أن قدميها أصيبتا بجروح كثيرة لدرجة أنها لم تستطع المشي لمدة أسبوع».

وضع ستيوارت المصباح على ظهر البيانو وانحنى ليتأمل وجه زوجته المغلق، وخطر في باله أن حالتها هذه ربما تفسر سلوكها وهي مستيقظة. وقف ستيورات وفلورا يراقبان آدا مأخوذين بعزفها الذي لم تستطع مقاومته، إلى أن توقفت أصابعها ونهضت وحدّقت كأنها رأت شبحاً ثم تركت ابنتها ترافقها إلى السرير.

نامت آدا في سريرها ورأت جورج في نومها. رأته يحيط بها بذراعيه وقبلاته وعناقه. اقتربت منه في النوم وضعت يدها على ظهره وألقت برأسها على صدره. سمعت جورج يئن وأحست به يتحرك نحوها.

www.9ofy.com

استيقظت آدا فجأة، وصدمت عندما تبين لها أن الجسم الذي داعبته بحنان كان جسم ابنتها. تملكتها رغبة قوية جعلتها تنهض من سريرها وتتوجه إلى غرفة نوم زوجها.

جلست قربه وهو مستلق على ظهره دون أن توقظه. نام قبل أن يطفىء المصباح الذي غمر الغرفة بضوء أصفر هادىء وخافت. لم تره نائماً من قبل، بدا لها مسالماً وهو ينام بارتياح، أكثر منه عندما يكون مستيقظاً. رفعت يدها فوق وجهه بتردّد ثم لمست بشرته الناعمة، ومرت على جلده الخشن بسبب شعر ذقنه ثم عادت إلى بشرته الناعمة ثانية. فتح ستيوارت عينيه. نظر إلى زوجته بلهفة مستغرباً وجودها بجانبه؛ وحين تابعت آدا تحريك يدها إلى أسفل عنقه ومرت بلطف على حنجرته، ورفعت يدها ببطء تحت قميصه، همس اسمها «آدا»، وأغمض عينيه.

ماذا كانت تفعل هناك في تلك الليلة بعد كل الذي رآه في كوخ جورج باينز؟ آدا ماك غرات ما زالت تشكل لغزاً كبيراً بالنسبة لأليسدير ستيوارت؛ إنها لا تبدي تجاوباً أو حتى تفكر كالنساء القليلات اللواتي عرفهن. إنها مختلفة، تكاد لا تكون من البشر كما خطر في باله أحياناً. عندما لمسته زوجته أحس بمشاعر متناقضة تتجاذبه. كان يريدها أن تستمر، ويريد ما حصل عليه جورج باينز، لكنه كان مشدوداً إليها ومُبعداً عنها في الوقت نفسه.

لم تعرف آدا ماك غرات ما الذي دفعها إلى سرير زوجها في تلك الليلة. لأنها سجينة في البيت ـ حيث لا أحد يدخل أو يخرج إلاّ بإذن ستيوارت ـ وجدت أنها مضطرة لتهدئة ذلك التوق الداخلي وتلك الرغبة اللذين تحركا مع جورج باينز والتقاء جسدين.

أغمض ستيوارت عينيه كي لا يفقد اللحظة سحرها، أزاحت آدا الغطاء عن جسمه ثم رفعت قميصه بهدوء وكشفت عن صدره وبطنه، تنفس ستيوارت بعمق. مرّت بيديها على صدره متحاشية عينيه كي لا يرى النشوة على وجهها، كأن رغبتها أفاقت ولن تعود إلى هدوئها قبل أن تبلغ غايتها.

اغرورقت عيناه بالدموع وهو ينظر إلى وجهها كطفل تعلّق بها بعد حلم مزعج بخوف وثقة. استمرت آدا في تلمس جسده كأنها طبيب يعالج جراحه بالبلسم الشافي؛ وبكثير من الرقة والإنتباه أنزلت يدها إلى بطنه. اقشعر جسمه وارتعش. لم يعد قادراً على التحمل، مدّ ذراعيه نحو زوجته وهو يجلس في السرير. لكنها انتفضت وابتعدت عابسة كأنما خاب أملها. تركت الغرفة وعادت إلى سريرها بدون أن تعطي أي تفسير لأفكارها أو مشاعرها.

عندما أتت العمة موراغ ونيسي لزيارة العائلة، ومعهما هني وماري، فوجئتا بتحصين البيت على هذا النحو. كانت آدا وفلورا تجلسان إلى طاولة المطبخ تلعبان بالورق، وكانتا شاحبتين كالنبات الذي حرم أشعة الشمس. أليسدير ستيوارت لم يسمح لهما بمغادرة البيت ذلك الصباح.

سألته موراغ باهتمام: «أليسدير هل هذا بسبب المسرحية؟ هل ضايقك أحد من السكان المحليين؟» كان ستيوارت يحمل بعض الحطب إلى الموقد متابعاً عمله الاعتيادي. توجهت موراغ إلى الباب وتابعت تقول: «أعتقد أنك أخطأت هنا». وأشارت مضيفة: «أنت وضعت المزلاج في الخارج، وعندما تغلق الباب...» وأغلقته «الماووريون هم الذين يحبسونك في الداخل؛ حين وضعت المزلاج في الخارج أوقعت نفسك في الفخ».

أحنت نيسي رأسها بجدية وقالت: «... أوقعت نفسك في الفخ». هيني وماري جلستا في زاوية تتفحصان لعبة لفلورا. كانتا منهمكتين ولم تنتبها لحديث الباكيها. وقف ستيوارت خلف آدا وفلورا بصمت وترك موراغ تتابع حديثها.

تقدمت موراغ إلى الطاولة وأزاحت الغطاء عن السلة المليئة بالملابس وأنواع الأطعمة التي حملتها كهدية لأفراد الأسرة. قالت موراغ: «كنا في زيارة لجورج باينز، يبدو أنه سيرحل في وقت قريب». رفعت آدا عينيها عندما سمعت ذلك وأصغت لما ستقوله موراغ. لم يكن شعرها مجدولاً وحتى ثوبها لم يكن مرتباً، وموراغ رأت قلّة اكتراثها بمظهرها. «رحيله ليس أمراً غريباً، صلته بالمحليين عميقة جداً. إنهم يجلسون في بيته كالملوك لكنهم لا يعرفون الحد الأدنى من اللباقة».

ردّدت نيسي: «... الحدّ الأدنى من اللباقة».

قالت موراغ: «يبدو متغيّراً، كأنه تعرّض لسحر ما. سيرحل اليوم أو غداً» أخرجت موراغ البسكوت وقطع الحلوى الصغيرة وبدأت بوضعها في أطباق على الطاولة.

ظلت ملامح آدا خالية من أي تعبير لكنها ازدادت شحوباً. وقفت ومشت إلى البيانو.

قال ستيوارت بصوت أجش: «باينز يحزم أغراضه إذاً»، كلماته حملت الكثير من المعاني لآدا التي كانت تجتاز الغرفة. قالت موراغ: «ليس عنده ما يحزمه، لكنه سيرحل». تناولت نيسي محرمة لتجفف عينيها وأنفها. تابعت موراغ قائلة: «وهذا أفضل لأن نيسي بدأت تتعلق به بغباء... بكت عدة مرات لأجله». تغضّن وجه نيسي وأخذت تبكي وتتنهّد. قالت لها موراغ بإصرار:

«كفى!» ونيسي استمرت في البكاء. «كفى! كفى!» أطاعت نيسي الأمر واستعادت السيطرة على مشاعرها.

توجهت آدا بصمت وثبات إلى البيانو وهي تأمل في تهدئة مشاعرها وإخفاء اضطرابها. حين بدأت تعزف قالت موراغ لستيوارت: «أعتقد أنني خائفة قليلاً من طريق العودة، يجب أن نعود قبل الظلام. هل تعتقد أننا سنكون في أمان؟»

كان عزف آدا مضطرباً في البداية لكنها سرعان ما استغرقت فيه. حملها البيانو بعيداً عن الغرفة المغلقة، إلى جورج باينز.

طمأن ستيوارت عمته آملاً في حثّها على الذهاب مع رفيقاتها، قال لها : «أجل، إذا ذهبتن الآن أنا واثق من ذلك».

تريثت موراغ ونيسي قليلاً للاستماع إلى عزف آدا التي انحنت فوق البيانو مأخوذة بالموسيقى وبعيدة عن كل شيء حولها. كانت آدا محط أنظارهما وقد أثارت انتباههما باللحن الذي تعزفه وباندماجها المتميز. على الرغم من أنهما تعرّفتا إلى آدا وإلى تصرفاتها غير المناسبة برأيهما، لكنهما لا تزالان تجدان ما يدهشهما في سلوكها. تأمل ستيوارت زوجته وهو يفكر فيما حدث أثناء الليل فاضطرب وتملكه الشوق إليها.

في الطريق إلى البيت لم تستطع العمة موراغ الكفّ عن الحديث عن المشهد الغريب الذي رأته في بيت ابن أخيها. «أليسدير تغير كثيراً منذ وصولهما، تغيّر كثيراً». وهزّت رأسها وهي تفكر في حالته. آدا ماك غرات لا تشبه سائر الزوجات الشابات اللواتي يصلن إلى هذه البلاد. إنها غريبة الأطوار، هذا أمر واقع. إنها خرساء، وتعزف البيانو بطريقة مميزة ولها طفلة. كانت العمة موراغ على الرغم من إنسانيتها المسيحية لا تزال حائرة بشأن ابن

www.9ofy.com

أخيها الذي رضي أن يتزوج امرأة لها طفلة ليست منه، وهي أيضاً بدون أب معروف. ومع ذلك توقعت أن تنعكس بالخير عليه، لكن العائلة كلها كانت تعيسة على ما يبدو.

في منتصف الطريق قررت موراغ أنها بحاجة للتوقف قليلاً. نيسي وهيني وماري وقفن يراقبن الطريق ويحملن بطانية يحطن بها موراغ ليساعدنها على تأمين خلوتها. كانت الرياح قوية والبطانية تطايرت من كل جانب. انخفضت إلى الأرض وتنورتها انتفخت من حولها؛ قالت موراغ: «أنا أفكر بالبيانو. إنها لا تعزف كما نعزف يا نيسي».

أخذت البطانية تهبط عندما بدأت الفتاتان بمتابعة الحديث. صرخت فيهما موراغ «ارفعا البطانية!» وتابعت تقول: «إنها مخلوقة غريبة وعزفها غريب، كالمزاج الذي يتملك المرء». مرة ثانية هبطت البطانية. «ارفعا البطانية! أنتِ يانيسي تعزفين بأسلوب بسيط ومباشر وهذا ما يعجبني». أحنت نيسي رأسها وابتسمت. «وجود مثل هذا الصوت الداخلي ليس مريحاً».

علا صوت رفرفة في الجوار. سألت موراغ هامسة: «ما هذا؟».

نيسي نظرت إلى الأمام وصرخت. لم تنتظر حتى تنتهي العمة موراغ من تدبير أمرها، فجمعت البطانية وأسرعت تبتعد.

قالت هيني بنبرة واثقة: «إنها مجرد حمامة يا عمتي». «آه» قالت العمة موراغ وهي تسرع خلف نيسي باسيتاء: «كان يجب أن أنتظر قليلاً».

لم يكن ستيوارت نائماً عندما دخلت آدا ماك غرات إلى غرفته تلك الليلة. قال لها هامساً «كنت أنتظر». أشعة الضوء المتسربة من

مصباح أعطت وهجاً دافئاً. بدأت آدا تداعب رقبة زوجها وتبعد خصلات شعره عن جبينه وهو مستلق على السرير. كان وجهه لطيفاً. لامسته بلطف كأن وعيها لم يكن يتعدّى الإحساس الذي تنقله رؤوس أصابعها. ضغط ستيوارت على نفسه وهو يحاول المحافظة على سكونه، فهو لا يريد إجفالها ولا يريدها أن تذهب. رفعت آدا قميصه إلى الأعلى ولمست ظهره، رقتها المباشرة كانت مؤلمة ومغرية في الوقت نفسه. بعد قليل أحس بأنها تدفع برفق ثيابه الداخلية إلى الأسفل وتكشف عن ردفيه. حبس أنفاسه وقد أذهلته وأثارته بتصرفها، وراحت تمر بيدها بحركات دائرية كأنها تداعب طفلاً. شدّ ستيوارت بعصبية ملابسه ورفعها ليغطي ردفيه. ابتعدت آدا قليلاً لتتركه يرتاح ومن ثم عاودت القيام بتجربتها، أرخت قبضته التي شدّ بها على ملابسه، ودفعت الملابس بطريقة منظمة وبدت منهمكة بذلك. وكان هذا سبب انزعاج زوجها؛ أحس أنها تلمسه إرضاء لرغبتها هي.

بدأت تمتد ردفيه مجدداً، وتمر بيدها بلطف حولهما. حركتها هذه شوّشته؛ شعر أنه ضعيف، لا حول له، ولا أمل أيضاً. ومرة ثانية تملكه إحساس تمازج فيه الغضب والحرج والشبق. رفع ملابسه وابتعد عن آدا وجلس عند الجهة المقابلة من السرير يدير لها ظهره. راقبت آدا تراجعه بهدوء.

«أريد أن ألمسك» قال لها بصوت منخفض وتنفس متسارع: «لماذا لا أستطيع أن ألمسك؟ ألا أعجبك؟»

نظرت إليه آدا من الطرف المقابل وكأنها تنظر إليه من مسافة لا يمكن تجاوزها. أشفقت على حالته البائسة، حتى أنه حرّك مشاعرها، لكنها أحست أنه لا صلة لها به.

إنتابته موجة من الخيبة والإذلال المحموم حين نهضت آدا غرات وتوجهت إلى غرفتها.

- ١٠ -

أيقظت أشعة الشمس آدا وفلورا، وكذلك صوت ستيوارت في الخارج وهو ينتزع الألواح عن نافذتهما. عندما أفاق من نومه المضطرب قرّر أنه لم يعد قادراً على سجن امرأة وطفلة مهما كان زواجه تعيساً. وضعت فلورا جناحي الملاك وأسرعت إلى الخارج في قميص النوم وهي تنتعل جزمتها الولنغتونية الطويلة، وأخذت تطارد الدجاج فرحة بضوء الشمس. تعالى صياح الديكة فيما ارتدت آدا ملابسها وجدّلت شعرها وثبتت ضفائرها بالدبابيس.

دخل ستيوارت بعدما أنهى تفكيك تحصيناته. قال لآدا وهو يخفض رأسه: «يجب أن نتابع حياتنا كالمعتاد. قررت أن أثق بك وبأنك لن تغادري البيت، ولن تقابلي باينز». جملته الأخيرة قالها بنبرة تراوحت بين التساؤل والأمر. نظر إليها بحذر، وهو مصرّ على رؤية زياراتها الليلية من منطلق إيجابي. نظرت آدا بدورها بثبات وهزّت رأسها. «حسناً» قال وهو يجلس بالقرب منها «حسنا». واستدرك، ثم سألها: «ربما تميلين إليّ مع الوقت؟» لم تنظر إليه آدا ولم تشر له بأنها موافقة. تناولت مرآتها الصغيرة لتتأكد من ترتيب شعرها.

www.9ofy.com

غادر ستيوارت البيت وهو يحمل عدة تركيب السياج وطعاماً يكفيه طيلة اليوم. وقفت آدا عند النافذة تراقبه وهو يبتعد. عندما انعطف عن الدرب ولم تعد تراه مشت إلى البيانو. رفعت الغطاء وانتزعت أحد المفاتيح العاجية من مكانه. ثم جلست إلى الطاولة التي حفرت عليها منذ أسابيع طويلة لوحة المفاتيح، وتناولت إبرة أحمتها في لهب الشمعة وكرّرت ما حصل منذ حوالي عشر سنين، حفرت جملة على جانب المفتاح: «عزيزي جورج، أنت تملك قلبي». كلمات ساحرة موجهة إلى رجل لا يعرف القراءة من امرأة لا تتكلم. ووقفت على الكلمات المنقوشة: «آدا ماك غرات». ثم لفّت المفتاح الغالي في قطعة قماش زينتها بشريط حريري أخضر. كانت آدا مقتنعة تماماً بأن باينز سيفهم رسالتها.

حملت الرزمة وخرجت إلى حيث كانت فلورا تلعب. نصبت الطفلة حبل غسيل صغير وانكبت على غسل ثياب لعبتها في دلو من الماء البارد. كانت تتحدث مع لعبتها بصوت مرتفع وهي تعمل: «اهدأن ـ ستبقين عاريات حتى أنتهي من الغسيل وحتى تجف ملابسكن». اقتربت منها آدا وجثت بجانبها وهي تحمل أمامها بحذر الرزمة التي لفّتها بعناية.

أشارت إليها آدا: «خذي هذه إلى باينز. إنها له».

هزّت فلورا رأسها تحذر والدتها: «لا، لا يحق لنا زيارته».

ألحّت آدا: «خذيها له». إنها لا تريد أن تخلّ بوعدها لستيوارت، لكن فلورا ليست معنية بالأمر.

تجاهلت الطفلة أمها وتابعت الغسيل. شدّتها آدا من رجلها بغضب مفاجيء. وضعت الرزمة بإصرار في يدها وأمرتها بالذهاب إلى بيت باينز.

تضايقت فلورا من أمها ومشت وهي حانقة عليها وكانت تتمتم كلمات عدائية. عندما وصلت إلى حيث يتفرّع الدرب إلى اليسار نحو بيت باينز، وإلى اليمين نحو المكان الذي يعمل فيه والدها، مشت قليلاً باتجاه بيت باينز لمَ ترددت وقررت أن تسلك الدرب إلى اليمين. كانت واثقة من أنها وقعت على الخيار الصحيح. بابا قال إن زيارة جورج باينز ممنوعة. ماما سيئة. لقد أخطأت وتسببت بعقابهما معاً. الماما لا تطاق. كانت تريد أن تبقى أمها في البيت وتحبها كما كانت في السابق. شيء ما حصل عند باينز أخذ منها أمها. كان واضحاً للطفلة أنه هو سبب مشاكلهما. سلكت فلورا الممر المحاذي للسياج ورافقته إلى أعلى التلة ثم انحدرت معه وتسلقت تلة ثانية وهي تقفز وتغني: «دوق يورك الكبير... عنده عشرة آلاف رجل، يقودهم إلى أعلى التلة، ثم يقودهم إلى أسفلها».

أحست فلورا أن السياج ليس له نهاية وهي تصعد تلة أخرى، لكنها أخيراً لمحت ستيوارت وهو يعمل على إكمال السياج عند منتصف التلة المقابلة. «يصعدون إلى فوق، وينزلون إلى تحت، وفي منتصف الطريق ليسوا فوق ولا تحت...». كان ستيوارت يثبت دعامة جديدة في السياج محاطاً بهانا وتاهو ورجل ثالث. وقف الثلاثة يراقبونه ولم يمد له أحد منهم يد المساعدة، بل راحوا يوجهون له النصائح التي تجاهلها ستيوارت. قال له تاهو عن الدعامة: «عوجاء يا سيد ستيوارت، عوجاء». توقف عن دق الدعامة في الأرض عندما رأى فلورا مقبلة نحوه وهي تلهث والدماء محتقنة في وجنتيها.

«أمي تريدني أن أعطي هذه الرزمة إلى السيد باينز». لوّحت

فلورا بالرزمة وأضافت: «فكرت أن هذا ليس جيداً. هل أفتحها؟» وبدأت تفك الشريط.

قال لها ستيوارت: «لا، أعطيني إياها» وانحنى ليأخذها من الفتاة. تردّد وهو يحملها بين يديه خائفاً من محتوياتها وغير مرتاح لمراقبة فلورا، لكنه أخذ يفكها ببطء وتناول المفتاح وقرأ الرسالة المحفورة على جانبه. أحس ببرودة مفاجئة وقاسية في قلبه وبنار تكوي أحشاءه. تسارعت أنفاسه وترنّح وهو يقبض على المفتاح ويرفع نظره إلى السماء. في تلك اللحظة لم يعد يفهم ما يدور حوله. ماذا يحدث له؟ انتبه الماووريون الذين جلسوا باسترخاء على الأرض أنه ليس على مايرام؛ اعتدل تاهو في جلسته ليراه جيداً. رمى المفتاح وحمل الفأس وبدأ يركض إلى أسفل التلة. ناداه مانا لكنه لم يرد. وقف الشاب وحمل المفتاح وقال: « kaaree waiata -kaaree waiata لقد فقد صوته ـ إنه لا يغني».

ركض أليسدير ستيوارت كأنه لا يرى شيئاً أمامه، مدفوعاً بالغضب والغيرة. غابت الشمس وامتلأت السماء فجأة بالغيوم الداكنة. انهمر المطر فيما كانت عاصفة رعدية تتجمع عند الأفق. تبعته فلورا دون أن تنتبه لما أصابه. تركها خلفه وأسرع يحث الخطى تحت المطر.

رفعت آدا عينيها عن الكتاب الذي كانت تقرأه عندما اندفع ستيوارت إلى الداخل، وشعره المبلّل غطّى جبينه ووجهه فقد لونه. أدركت في الحال ماذا حدث. انتفضت تبتعد عن الطاولة فيما كان الفأس يسقط ليستقر في الخشب بعد اقتطاعه طرف الكتاب. ركضت إلى الحائط. نزع سيتوارت الفأس من مكانه وبدت ملامحه مخيفة وعروق عنقه منتفخة. سألها وهو يصرّ على أسنانه:

«لماذا؟ وثقت فيك». ولوّح بالفأس ثانية وكان في هذه المرة يصوّبه إلى البيانو. تردّد صوت عميق ومنخفض بسقوطه على الغطاء، وآدا ارتمت على زوجها تحاول إنقاذ البيانو. التفت نحوها وأمسكها بكتفيها. صرخ قائلاً: وثقت فيك». وأخذ يجرها عبر الغرفة وصوته يدوي: «وثقت فيك، أتسمعينني؟» ودفعها إلى الطاولة وهو لا يزال يهزّ جسمها الصغير، فتساقطت عن الطاولة مكبات خيطان وقطع قماش. «لماذا تحمليننني على إيذائك؟» ودفع بنفسه نحوها ضاغطاً بشفتيه على خدّها يقبلها بعنف. ثم رفعها عن الطاولة وأخذها يدفعها إلى الخلف حتى ارتطمت بالحائط. صرخ: «نستطيع أن نعيش سعداء» وضربها على الحائط مرة ثانية. ارتخت آدا بين يديه. لم تعد تقوى على احتمال قسوة قبضته الحاقدة. «لقد أثرتِ غضبي! تكلمي!»

حمل الفأس وجرّ آدا إلى الخارج، إلى العاصفة والوحل، ودفعها أمام فلورا التي وقفت تحت وابل المطر في الخارج مذعورة. كانت السماء مثقلة بالغيوم الداكنة والمدوية. «يجب أن تدفعي الثمن» صرخ ستيوارت وهو يشدّها من ذراعها وهي تعلّقت يائسة بملاءة معلقة على حبل الغسيل. «سواء تكلمت أو لم تتكلمي، سوف تدفعين الثمن!» فلورا مكثت في مكانها خائفة من التدخل، وستيوارت راح يجرّ آدا على الوحل إلى لوح التقطيع. كان المطر ينهمر بغزارة.

رأت آدا إلى أين يجرّها. حاولت التخلص منه ومقاومته لكنه كان أقوى منها بكثير. عند لوح التقطيع أفلتت من قبضته وزحفت بعيداً على قطع الأخشاب المتناثرة وعلى الوحل. رفع ستيوارت فأسه وأسرع في القبض عليها مجدداً، شدّها من قبّة ثوبها ثم من

www.9ofy.com

شعرها، ودفعها إلى الوراء وذراعه تضغط على رقبتها إلى لوح التقطيع. هناك أخذ يدها اليمنى ووضعها على اللوح.

سألها بصوت مرتفع: «هل تحبينه؟ هل تحبينه؟ أتحبينه هو؟» ورفع الفأس فصرخت فلورا «إنها تقول: لا!» لكن كلماتها لم تكن لتحمله على التريث حتى لو سمعها. انهال ستيوارت بالفأس بكل قوته. حدّقت آدا الملطّخة بالوحل وكأنها غافلة عما يحدث. لم يصدر عنها صوت أو صرخة، أمسكت فقط برجل ستيوارت وهي تنتفض وتنظر بانشداه إلى ابنتها التي كانت تصرخ. تدفق الدم حتى لطّخ مريول فلورا الأبيض، وجناحي الملاك المتّسخين بالوحل.

مرت لحظة ـ لحظة ثقيلة التزم فيها الجميع، حتى الطيور، بالصمت التام ـ وتغضّن وجه آدا من الألم، حرّرها ستيوارت من قبضته . خطت بضع خطوات مترنحة في الوحل، ثم التفتت لترى ماذا فعل، وما الذي تبقّى على لوح التقطيع. كانت يدها لا تزال تنزف مع أنها شدّت عليها محاولة منع تدفق الدماء. رأت سبّابتها على اللوح. رفعت نظرها إلى السماء تتساءل كيف أتت إلى هذا المكان، وبدون أن تفكر توجهت نحو بيت جورج باينز. مشت بجهد كأن حياتها تتوقف على الوصول إليه. واكبتها فلورا دون أن تكف عن مناداتها. حاولت آدا أن تستجمع كل ما لديها من عزم وكرامة كي تواصل المسير لكنها تعثرت، ووقعت على ركبتيها وسقطت يداها في الوحل؛ تجاهلت آلامها ونهضت ثانية. وعلى بعد خطوات تلاشت قواها فانهارت ببطء في مستنقع الوحل كسفينة غارقة، وانتفخ ثوبها من حولها وهي تحط على الأرض.

صرخت فلورا: «أمي!»

ستيوارت، الذي كان قلبه لا يزال يخفق في أذنيه، لفّ الأصبع

في محرمة بيضاء. وضع المحرمة في يد الطفلة، التي تراجعت مذعورة وقال لها: «خذيها إلى باينز» وتابع بصوت منخفض كأنه انعتق عن جسمه «قولي له إنه إذا حاول رؤيتها ثانية سأقطع أصابعها الواحد تلو الآخر».

استدارت فلورا لتقوم بمهمتها لكنها تريثت قليلاً حين رأت آدا. صرخ فيها ستيوارت: «اركضي»، فانطلقت تعدو.

منذ أيام وجورج باينز ينتظر عودة آدا ويحلم بها، لكن الساعات الطويلة مضت وأخذت معها حماسته وتركته يعاني من مرارة إحساسه بأنها لن تأتي. لم يعد يأكل ولا ينام أو يهدأ له بال، ففكر بالرحيل عن هذا المكان.

قبل رحيله أراد باينز توديع المكان الذي عاش فيه بسعادة منذ فترة طويلة، وتوديع أهله من الماووريين فتوجه على ظهر حصانه إلى قريتهم التي يسمونها «با». التقت به هيرا عند مدخل «با» المسوّرة والتي شيدت على ضفة نهر مجراه واسع وهادىء تحيط به أشجار المنغروف التي مدت جذورها في عمق التربة الخصبة، وعلى صفحته تتهادى زوارق الكَنْوَ الطويلة. قالت له هير إن الجميع يريدون توديع بايني. شيّد الماووريون قريتهم في هذا الموقع منذ زمن بعيد، لكنها كانت في حالة تجديد وإصلاح دائمة؛ وعلى الرغم من أن باينز زارها عدة مرات إلاّ أنه كان دائماً يشعر بالاعتزاز لأنه تسنّى له دخول هذا العالم الشديد الاختلاف عن عالمه. رفع قبعته عن رأسه ومشى بجانب هيرا.

بعد أن فرغ باينز من مصافحة الأيدي ـ والضغط على الأنوف كما تقتضي العادات الماووريّة، أخذت هيرا ذراعه في ذراعها.

وضع باينز قبعته على رأسها بمودّة. ثم تناول من جيب عميق علبة تبغ وقدّمها لها. ابتسمت.

قالت له: «يا بني، سوف أشتاق لك. أنت بشر مثلنا». وتنهّدت بحزن: «الباكيها، لا قلوب لهم، إنهم لا يفكرون إلاّ في أرضهم». بدا رذاذ هادىء يتساقط وباينز أحس به كهمسة تداعب وجهه. سرت رعشة في أوصاله كأنه تلقّى تحذيراً ما، ثم تغاضى عن الأمر. مشى بمرافقة هيرا، مرّا بجانب المعبد والبيوت الواطئة ووصلا إلى مدخل «با» حيث ربط حصانه وتركه يرعى.

«اليوم أعداؤنا يبيعون أرضهم ليشتروا البنادق. ونحن يجب أن نشتري البنادق أيضاً. يجب أن نبيع أرضنا دفاعاً عن أرضنا». وهزّت رأسها مستاءة من الظلم الذي وقع على شعبها.

أحنى باينز رأسه، كان يعرف أن ما تقوله صحيح، ولم يكن يختلف معها في الرأي. امتطى حصانه المحمّل والتفت إلى مجموعة أرادت توديعه. بين هؤلاء وقف مانا، الشاب الذي كان يعمل مع أليسدير سيتوارت صباح ذلك اليوم؛ تقدم مانا ليسلم على باينز لكنه لم يستطع الاقتراب منه وهو على ظهر الحصان. انتبه باينز لمانا ورأى أنه حوّل مفتاح البيانو إلى حلق علّقه في أذنه وكان لونه العاجي يتألّق مقابل شعره الأسود.

اخترق باينز الحشد الذي تفرّق في الحال مستغرباً تحرّك الحصان المفاجىء. انحنى نحو الشاب ومدّ يده إلى المفتاح، لكن مانا ابتعد عنه.

قال له مدافعاً عن حقه في امتلاك المفتاح: «إنه لي. أنا وجدته».

مدّ باينز يده إلى الحلق ثانية، وانحنى لينتزعه برفق من أذن مانا. قلّب المفتاح في يده ورأى الكتابة المنقوشة عليه. قال بإلحاح:

«Homaikiau أنا أريده». كان يعرف أن الماووريين مثله لا يعرفون القراءة.

صرخ مانا باستياء: «إنه لي. أنا وجدته». سأله باينز: «ماذا تريد مقابله؟ أطلب ما تشاء. tupeka؟»

تدخّل بعض الموجودين وتعالى صراخهم: «أطلب حزامه»، «حذاءه»، بندقيته»، وشارك الأولاد المساومة فعدّدوا كل مقتنيات باينز المرئية، وباينز بدأ يفقد صبره.

وأخيراً، ابتعد باينز عن جدارن «با» بلا قبعة أو بندقية، وقد شد بنطلونه على خصره بقطعة قماش، كان المطر يتساقط بغزارة وباينز قبض على مفتاح آدا وحمله قريباً إلى صدره. أخذ يفرك الكلام المحفور بأصبعه ويضغط على الأحرف كأنه يستطيع أن يستوعب معناها بهذه الطريقة. توجه مباشرة إلى مبنى المدرسة الذي يتألف من غرفة واحدة ويقع في الجهة المقابلة من المستوطنة. عندما وصل إلى الحقل الصغير المحيط بالمدرسة كان المطر بدأ يخف.

سمع باينز صوت الأولاد وهم يردّدون معاً جدول الضرب، وعندما اقترب لينظر من فجوة في الجدار رأى صفوفاً من الأرجل الصغيرة تتأرجح تحت الطاولات الخشبية.

بعد دقائق فتح الباب واندفع الأولاد إلى الخارج. ارتدت الفتيات مرايل طويلة مبقّعة، وكل الأحذية بدت أكبر من الأقدام الصغيرة، إلاّ بالنسبة لصبي واحد كان حذاؤه مقصوصاً لتخرج منه أصابعه. وقف باينز يراقب أربع فتيات يقفزن على غصن عريشة، واحتار من يختار منهن. في هذه الأثناء رأى فتاة صغيرة تحمل كتاباً ضخماً تبتعد عن رفيقاتها وتجلس على ضفة الجدول المتعرّج الذي

www.9ofy.com

كان يجري بمحاذاة المدرسة. جلس باينز بجانبها والماء يخرّ بالقرب منهما.

سألها: «هل تعرفين القراءة؟»

الفتاة الصغيرة بشعرها المجدول بعناية أغلقت الكتاب ونهضت وابتعدت عنه دون أن ترد عليه. وقف باينز يراقبها وهي تتابع السير حتى وصلت إلى مسافة آمنة ورآها تلتفت لتنظر إليه. نزلت من مخبئها في شجرة مجاورة فتاة أصغر من الأولى وقالت له بصوت واضح وحاد: «أنا أعرف القراءة».

سألها شاكّاً بكلامها: «تعرفين القراءة؟» بدت صغيرة جداً.

«نعم... أقرأ كلمات كثيرة». تركت الفتيات لعبة القفز وتجمعن حول الطفلة.

قالت إحداهن باستخفاف: «إنها لا تعرف القراءة، هذه أختي لو كانت تقرأ كنت سأعرف ذلك». وانتبهت إلى العلبة التي حملها باينز فسألته: «هل هذه حلوى؟»

قالت الصغيرة بسخط: «أعرف القراءة!»

ردّت أختها: «لا تعرف». رفع باينز غطاء العلبة ليقدم الحلوى للطفلة. «لا تعطها قطعة». لكن باينز ترك الطفلة تأخذ قطعة حلوى. قالت الأخت الكبرى بإصرار: «إنها لا تعرف القراءة».

وضعت الطفلة قطعة الحلوى في فمها ورمت ورقتها؛ التقطت إحدى الفتيات الورقة في الحال وقرّبتها من أنفها تريد أن تستمتع بشمّها. قالت: «إم، كاراميله»، وأعطت الورقة إلى سائر الفتيات.

سأل باينز الأخت الكبرى: «هل تعرفين القراءة؟» ومدّ يده بالمفتاح وصبره يكاد ينفد.

أخذت الفتاة المفتاح من يده باستعلاء. إلتفت رفيقاتها حولها ليرين الكلمات بوضوح أكثر. قطبت جبينها وهي تتأمل الكلمات المحفورة ثم قلبت المفتاح إلى الجهة الأخرى، وقالت: «كتابة موصولة، لم نتعلّم ذلك بعد».

قالت فتاة أخرى: «ميرتل تعرف القراءة. أمها علّمتها». وانتزع المفتاح من يد الأخت الكبرى وأعطي إلى ميرتل، وهي الفتاة التي كانت تحمل الكتاب والتي حاول باينز التقرّب منها في البداية، وقف الجميع يراقبون ميرتل وهي مستغرقة تحاول جاهدة تهجئة الأحرف.

قالت بعبوس: «عزيزي جورج...» وتطلعت الفتيات إلى باينز يريدن التأكد أن رفيقتهن لم تخطىء حتى الآن. أحنى رأسه مشجعاً. «أنت...» وانضمت واحدة أو اثنتان إلى ميرتل في متابعة قراءة «تملك قلب...» وقاطعتهن الأخت الكبرى: «هذه ياء، قلبي».

«هذه ليست ياء».

«بلى إنها ياء».

وأعادت الفتاتان قراءة الكلمات معاً: «عزيزي جورج أنت تملك قلبي».

ثم تابعت ميرتل تقرأ الإسم بارتباك: آدا ماك غرات. قالت الأخت الكبرى: «كلام غير مفهوم».

قرأت الفتيات معاً الرسالة ثانية. قلبت ميرتل المفتاح للتأكد من عدم وجود كلمات أخرى. أعطته لباينز هي تقول: «هذا كل شيء...»

قال لها باينز: «اقرئي لي الرسالة وحدك الآن».

واستمعت الفتيات إلى ميرتل وهي تقرأ: «عزيزي جورج أنت تملك قلبي، آدا ماك غرات». وهزّت كتفيها بلا مبالاة.

ثم أشار إلى الأخت الكبرى وقال: «اقرئيها أنت الآن».

قرأتها الفتاة ببطء وبصوت عميق»: «عزيزي جورج أنت تملك قلبي».

فتاة ثالثة بادرت إلى قراءة الرسالة بعفوية بدورها. وتبعتها فتاة رابعة. وفتاة أخرى. وقف باينز بينهن وهو يكاد لا يصدق ما يسمع وقد غمرته سعادة خجولة. أخذ يضحك بارتياح وبهجة. ضحكت الفتيات أيضاً ظناً منهن أن الرسالة ربما تكون نكتة. استمرين في إعادة قراءتها، وفي كل مرة كان ينتاب جورج فرح جديد. في هذه الأثناء مرت الصغرى يدها بهدوء إلى علبة الحلوى وتناولت المزيد منها.

في بيت أليسدير كان أليسدير ستيوارت والعمة موراغ ونيسي يجاهدون لحمل آدا، التي فقدت وعيها وكانت ثيابها مثقلة بالوحل والدماء، إلى البيت عبر الباحة التي حوّلتها مياه الأمطار إلى مستنقع من الوحل.

في الداخل نزعت السيدتان ثياب آدا وقصتا كمّيْها بالمقصّ، وكانتا تلطختا بدورهما بالقذارة. كانتا حزينتين للغاية. قالت موراغ: «يا إلهي، يا لها من إصابة؟» وأبعدت القماش عن ذراع آدا التي بدت نحيلة وهزيلة ولونها الأزرق الشاحب يثير القلق. «وعندها ما يكفي من الحطب... إذا لم تمت من نزف الدم فإنها ستموت من ذات الرئة. ماء حار» قالت بلهجة آمرة. «الوحل في كل مكان»، وردّدت نيسي كلمات الأخيرة بصوت غير مفهوم.

قالت نيسي: «يا للمرأة الصغيرة المسكينة...» وامتلأت عيناها بدموع العطف والشفقة. «...آه ... يا إلهي...».

دخل ستيوارت حاملاً إبريق الماء الساخن. كان متوتراً وقلقاً يتطلع بانكسار وهو لا يعرف ماذا يفعل. قالت له موراغ: «أخرج الآن» وهي تدفعه وأضافت: «وقوفك هنا لن يشفيها».

خرج ستيوارت وأغلق الباب. كان قد أخبر عمته أن آدا أصيبت وهي تقطع الخشب وأنه كان يعمل في مكان آخر ووجدها واقعة على الوحل فركض ليؤمن لها المساعدة دون أن يفكر. كانت الكذبة تشد على حنجرته وتكاد تخنقه؛ لم يعد قادراً على الاستمرار؛ لم يعد قادراً على احتمال ما يحدث.

انكبّت موراغ على تنظيف جرح آدا فيما كانت نيسي تمزّق ملاية لتأمين الضمادات الضرورية. بدأت آدا تستعيد وعيها تدريجياً، ارتجف جفناها وتحركت شفتاها كأنها تريدأن تقول شيئاً.

قالت موراغ باستغراب: «انظري إلى شفتيها... تُرى ماذا تريدان أن تقولا؟»

بدأت نيسي تمشط شعر آدا بكثير من العناية والمودة وملست عليه كما لو كانت طفلة. ارتعشت آدا فقالت نيسي: «هل أستطيع أن أغطيها ببطانية؟ إنها ترتعش من البرد».

«حسناً، حسناً».

غطّتها نيسي ووقفت مع موراغ تتأملها وهي ممدّدة ووجهها الأبيض عكس معاناتها وألمها الشديد. مدّت يدها نيسي تريد أن تلمس على شعر آدا ثانية. «آه، إنه ناعم، ناعم جداً».

www.9ofy.com

قالت موراغ: «إنها واحدة من أبناء الله الضالين. ومع ذلك نتحسس وجوده في أعماقها مخيفاً كأنه عاصفة».

توجه باينز إلى كوخه مع هبوط الليل وهو ثمل من السعادة. راح يردّد رسالة الحب التي كتبتها له آدا مرة تلو الأخرى، محوّلاً كلماتها إلى أنشودة عذبة. كان يبتسم وجواده يخبّ على الدرب الصاعد إلى أعلى التلة؛ وبعد قليل رأى هيرا تركض نحوه وقد بدت متأثرة وهي تناديه: «بايني، بايني، الفتاة الصغيرة أتت وهي تصرخ...».

نزل باينز عن السرج بسرعة وبدأ يركض. أضافت هيرا تقول: «على ثيابها دماء. إنها في حالة سيئة... سيئة جداً...» كان باب الكوخ مفتوحاً. صعد جورج الدرجات قفزاً وتبعته هيرا.

في الداخل انزوت فلورا خائفة. كان وجهها شاحباً وملطخاً بالدموع والوحل، وكانت ثيابها مبلّلة بمياه المطر. جناحا الملاك ارتدا منكسرين على ظهرها، وبقع الدماء تناثرت على مريلتها. عندما رأت جورج يدخل بدأت تصرخ بصوت مرتفع تعبيراً عن ارتياحها.

توجه إليها جورج بسرعة حيث كانت تجثم بجانب الحائط. سألها وهو يبعد شعرها عن جبينها: «ما الذي حدث؟ اهدئي، اهدئي، قولي لي ماذا حدث؟»

أعطته فلورا الرزمة المخيفة المشرّبة بالدماء. أخذها منها جورج وفكها ورأى إصبع آدا المقطوع.

صرخت فلورا: «يقول إنك إذا رأيتها فإنه سيقطعها!» وأخذت تبكي وقد أغمضت عينيها كي لا ترى ما في داخل الرزمة.

سألها جورج بحدة وهو يضع يديه على كتفيها: «ما الذي

حدث؟» حاولت فلورا الافلات منه لكنه شدّ قبضته فبدأت تصرخ، واستطاعت أن تهرب إلى الخارج وهي تعدو. صاح جورج: «قولي لي!» وهو يطاردها. أمسك بها وهزّها بعنف وهو يسألها: «أين هي الآن؟» ورفع الفتاة التي راحت تطلق صرخات عالية وحادة متتالية، وهزّها ثانية يحاول منعها من الصراخ: «اهدئي أين هي؟»

قالت وهي تنتحب: «لقد قطعه».

سألها جورج بانفعال: «ماذا قالت له؟ ماذا قالت له؟» أقبلت هيرا وخلصت الفتاة من قبضة جورج وهي تقول له: «إنها مجرد طفلة». وحملتها بعطف تحاول طمأنتها وأبعدت شعرها المبلّل عن وجهها المذعور.

قال جورج: «سوف أحطم رأسه». وكان صوته مليئاً بالنقمة ومرارة الأسى. وبدأت فلورا تصرخ مجدادً: «لا، لا، سوف يقطعه».

ضرب جورج جذع الشجرة بقبضة يده وهو يزأر من الحقد والغيظ.

في تلك الليلة كانت أشجار الغابة تتحرك بهدوء، والزيزان وسائر الحشرات الليلية تصدر أصواتاً متآلفة ومنخفضة. دخل أليسدير ستيوارت إلى غرفة نوم آدا وهو يحمل مصباحاً. وضع المصباح بجانب السرير. راح يتأمل وجهها الشاحب الذي غمرته حبيبات العرق، وشعرها الذي التصق على خديها ورقبتها وشفتيها اللتين تشقّقتا وجفّتا. كانت نائمة. تكلم بصوت رقيق كأنها تستمع إليه.

قال بهدوء: «أنت السبب. لا يجوز لك أن تبلغيه بحبك له، لا

يجوز». وهزّ أصبعه وأضاف: «إن مجرد التفكير بحبك له، لا يجوز». وبدأ يبحث عن كلمات تساعد على تخفيف انفعاله: «أنا راغب في حبك». قال أليسدير ستيوارت لزوجته النائمة وأضاف: «لقد قصصت جناحيك فقط».

انحنى فوقها وأخذ يمر بيده على جبينها وخديّها. ردّد برقة أغنية حبّ حفظها في ذاكرته: «سوف نبقى معاً، سترين كل شيء جميلاً...» وآدا تحركت في نومها وأبعدت يده عن وجهها. كان جبينها رطباً وحرارتها مرتفعة؛ تقلّبت تحت البطانية.

سألها ستيوارت: «هل تضايقك البطانية؟... يا طائري الحبيب». وأزاح عنها الغطاء كي تتنعش. كان قميصها مبللاً بالعرق وملتصقاً إلى جسمها، وذراعها الأيمن الذي أحيط بالضمادات كان ملقى على معدتها. دفع ستيوارت بالغطاء إلى الأسفل ليريحها ورأى أعلى رجلها؛ وتكشف له باطن فخذها القشدي، رفع رجلها بتأنٍ وأنزل يده تحتها وأخذ يداعب جلدها. إحساسه باللذة أخذ يتنامى ويتزايد فيما راحت يده تتحسس جسدها. قرّب وجهه من جلدها، وضغط بشفيته على بشرتها الناعمة ودفن رأسه بين رجليها وهو يتنشق بصمت رائحتها.

تحركت آدا في نومها مجدّداً. نظر إليها ويده ترتفع أكثر وأكثر تحت قميص نومها. خطرت له فكرة جديدة، فكرة مريعة حاول مقاومتها، لكنها تملّكت عقله ومشاعره. تأملها وهي لا تزال فاقدة الوعي تحت وطأة الحمّى. بدأ يفك حزامه خلسة، ثم انحنى فوقها وباعد بين رجليها برفق. وفيما كان يتحرك ليتمدّد فوقها وهو مصرّ على المضيّ في تنفيذ مأربه، نظر إلى وجهها ثانية، انتابه الهول والخجل حين رآها تنظر إليه مباشرة، وتضع عينيها في عينيه. بدون

أن يتفوه بكلمة واحدة، وبنفس لاهث ومجهد، أوقف ستيورات ما كان يهم بالقيام به وابتعد وغطّى قدميها برفق بقميصها.

سألها بمكر: «هل تشعرين بتحسّن؟»

تحركت شفتاها ببطء. وفجأة أحسّ ستيوارت أنه سمع شيئاً، فالتفت إلى آدا يتمعن في ملامحها وانحنى فوقها ليقترب أكثر من شفتيها، وعيناه تنظران إلى عينيها. «ماذا...؟» صدى صوته جعله يطرف عينيه. راقبها كأنه يسمعها تتكلم بصوت خافت وبعيد يتطلب تركيزاً ومثابرة لالتقاطه. تغيرت ملامح وجهه وهو يراقبها؛ اغرورقت عيناه، وهدأت شفتاه، وحاجباه أخذا التعبير نفسه الذي ارتسم على جبين آدا.

مصباح الكيروسين عكس ضوءه المرتعش على وجهيهما. اقترب ستيوارت من آدا. في الخارج كانت الرياح تضرب السطح وتحرك الأغصان وتصدر صوتاً متأرجحاً عالياً. اقترب منها أكثر ليسمعها.

نهض ستيوارت وارتدى معطفه وحمل المصباح والبندقية وبدأ يشق طريقه عبر فسحة الأشجار الشبحية والغابة المظلمة إلى كوخ جورج باينز. وسّع خطوته كي لا يدوس على هيرا التي كانت نائمة على الشرفة، ودخل إلى الكوخ حيث كانت النار لا تزال مشتعلة في الموقد. رأى ثياب فلورا معلقة بالقرب من الموقد وكانت مغسولة والمياه لا تزال تقطر منها. اقترب من السرير ورأى فلورا مغطاة ببطانية وباينز بالقرب منها يحمل فأساً بيده وكلاهما يغط في النوم. وكزه ستيوارت بفوهة بندقيته تحت ذقنه. فتح باينز عينيه وأجفل حين رأى سيتوارت وبندقيته.

حدّق ستيوارت في خصمه يتفحصه في ضوء النار المضطرب.

www.9ofy.com

قال له مشيراً إلى الفأس: «ضعه جانباً. على الأرض». كان صوته هادئاً وبطيئاً، ونظرته تميل من الجنون إلى صفاء الذهن. باينز أطاعه.

بدأ ستيوارت يقول بصوت منخفض: «أنا الآن أنظر إليك، إلى وجهك. كانت صورة وجهك في ذهني، وكنت أكرهها. لكنني أراك الآن... ولا أشعر بشيء». حرّك ستيوارت البندقية من ذقن باينز إلى صدغه. «إنك تنظر إليّ وعيناك تقولان إنك خائف مني. أجل أنت خائف مني». وضحك ستيوارت ضحكة تثير القشعريرة. قال له: «انظر إلى نفسك! انهض!»

جلس باينز بانتباه كي لا يزعج فلورا التي ظلت نائمة. كان هادئاً. مفتاح البيانو الذي حمل له تلك الرسالة الرائعة مازال تحت مخدته.

ـ «هل كلمتك ١,٦؟»

ـ «تقصد بالإشارات؟»

هزّ ستيوارت رأسه: «لا، بالكلمات. هل سمعتها تنطق بكلمات؟»

نظر إليه باينز بارتياب. «لا، لم أسمع منها كلاما».

ـ «هل ظننت مرة أنك سمعت منها كلاماً؟»

هزّ بانيز رأسه ينفي ذلك.

رفع ستيوارت يده إلى جبينه وقال: «لقد تكلمت معي. سمعت كلماتها هنا». وضغط براحته على جبينه واتسعت عيناه. «سمعت صوتها يتردّد في رأسي. كنت أراقب شفتيها ولم أرهما ترسمان الكلام. ومع ذلك... كنت كلما أصغيت أكثر، أسمع بوضوح أكثر، بالوضوح نفسه الذي أسمع به صوتي الآن».

سأله باينز: «سمعت كلمات؟»

«لا، لكن كلماتها تسربت إلى رأسي». وتريث ستيوارت ثم أضاف: «أعرف أنك ستظن أنني أحتال وأنني أختلق الأمر. لكنني أؤكد لك أن الكلمات كانت لها».

«ما هي؟» لم يعرف ما إذا كان ستيوارت يتخيل ذلك بسبب تأمله لما حدث أو بسبب جنونه، لكنه على أي حال قرر الاستماع إليه لأنه رأى في ستيوارت لأول مرة شخصاً لم يكن يتوقعه؛ رأى نفسه في هذا الرجل القاسي والساذج، بضعفه ويأسه وحرمانه، وفي تلك اللحظة أحسّ باينز أنه يتعاطف معه.

رفع ستيوارت عينيه إلى السقف وأخذ يردّد ما سمعه كأنه حفظه عن ظهر قلب ويتمسك بنقله بدقة: «قالت، أنا خائفة من إرادتي، ومما قد نقوم به. إنها في غاية الغرابة والقوة». واستدرك ستيوارت ثم أحنى رأسه وتابع: «يجب أن أرحل. دعني أرحل. دع باينز يأخذني بعيداً».

قاطعه باينز غاضباً: «أنت أخطأت في معاقبتها. أنا المذنب، هذه غلطتي أنا».

لم يردّ عليه ستيوارت.

تحركت فلورا في نومها وتنهّدت. تغضّن جبينها ثم ارتاح، وجفناها ارتعشا مع تحرك عينيها وهي تحلم.

تابع ستيوارت وقد اغروقت عيناه بالدموع: «افهمني، لقد جئت لأجلها، لأجلها... أكاد لا أصدق أنني في حالة يقظة وأنني موجود الآن هنا وأتحدث معك. أنا أحبها. لكن ما الفائدة؟ إنها لا تهتم بي. أريدها أن تذهب. أريدها أن تذهب. أريد أن أستيقظ وأتصور أن كل ما جرى كان حلماً، هذا ما أتمناه». وأحنى رأسه

كأنه يؤكد على صحة ما يقول وأضاف: «أريد أن أصدق بأنني لست هذا الرجل الماثل أمامك الآن. أريد أن أسترجع ذاتي؛ الذات التي أعرف».

استيقظت آدا، وعرفت أن أليسدير ستيوارت ذهب إلى جورج باينز. نزفت دماء كثيرة، وأحست بأنها ضعيفة جداً ولا تستطيع أن تفعل شيئاً. خطر لها أن ستيوارت قد يقتل جورج وسرت رعشة في أوصالها.

- ١١ -

في بيت والدها عرفت آدا ماك غرات خلال فترة قصيرة أنها تحمل طفلاً؛ تعرّفت بغريزتها إلى معنى العلامات دون أن يخبرها أحد بذلك. حين أدركت البلوغ لم تكن بجانبها أم لتشرح لها ذلك التغيّر، ولم تجد سوى خادمة حاولت تهدئة خوفها من أنها قد تنزف حتى الموت.

بعد تلك الليلة في غرفة البيانو، قرّر ديلوار هوسلر مغادرة منزل عائلة ماك غرات. بعدما قبّلته آدا في غرفة الموسيقى صبيحة يوم عيد الميلاد وتركته وهي تتمنى له نوماً هانئاً توجه إلى غرفته وأخذ يروح ويجيء إلى أن سمع حركة في البيت. انتظر حتى سمع صوت ويستون ماك غرات في المطبخ وهو يصدر أوامره ويعطي توصياته حول وجبة الغداء. ارتدى معطفه واعتمر قبعته المخملية المعطف والقبعة نفسيهما اللذين يضعهما حين وصل منذ سنتين، ونزل إلى الطابق السفلي. حمل في يده ورقة دوّن عليها رغبته في الاستقالة.

استقبله ويستون في غرفة مكتبه وسأله عن الورقة التي كان ديلوار قد ختمها بالشمع.

www.9ofy.com

قال له ديلوار: «افتحها يا سيدي، ستجد فيها إشعاراً باستقالتي».

عبس ويستون. لم يكن يفكر إلاّ في آدا الصغيرة. قد يتحطم قلبها إذا توقفت الدروس.

«ألست سعيداً بوجودك هنا؟»

«أريد أن أرجع إلى عائلتي...» ارتبك ديلوار وهو يبحث عن أعذار تبرّر رغبته فقال: «أريد أن أتزوج». اضطرب من كذبته، واستغرب تسرّعه، لكنه فكر أن الزواج غير مطروح بالنسبة لآدا، وهو في تلك اللحظة اعتقد أنه ربما لن يفكر في ذلك الاحتمال ثانية.

ردّ ويستون محرجاً: «آه، حسناً، في تلك الحالة... متى تنوي الرحيل؟»

«سأرحل اليوم يا سيدي».

«آه»، قال والد آدا وهو يبحث عن كلمات يردّ بها عليه ثم تذكر فقال: «لكن اليوم عيد الميلاد. لا توجد عربات ولا أية وسائل للنقل».

ـ «سوف أمشي مسافة يا سيدي، وسأتدبر أمري».

ـ «يوم عيد الميلاد؟ على الرغم من احتمال تساقط الثلوج؟» ويستون تصوّر أنه مجنون.

ـ «أجل».

ـ «حسناً». تهوّر هذا الشاب لا يعنيه. «قمت بواجبك جيداً عندنا إنتظر سوف أعطيك تحويل معاشك». فكر ويستون أنه من الأفضل أن يتركه يرحل؛ إذا كان مجنوناً من الأفضل أن يعيش في

مكان آخر «ربما تريد توديع آدا، سأطلب من الخادمة أن توقظها». ورفع يده ليدق جرس الخدم.

ردّ ديلوار بسرعة: «كلا، يا سيدي»، ومدّ يده ليمنع ماك غرات من دق الجرس، وتابع: «أعتقد أنها لا تزال نائمة ولا أريد إزعاجها بهذا الخبر».

وتركت لي القيام بهذه المهمة أليس كذلك؟ لقد فكرت وخططت جيداً».

احتقنت وجنتا ديلوار عندما سمع اتهام ويستون له وقال: «سوف أبدأ بجمع أغراضي. سأرسل في طلبها في أسرع فرصة ممكنة».

قال ويستون: «حسناً، حسناً. سأترك لك التحويل المصرفي على الطاولة في المدخل».

«أشكرك سيدي»، وتابع وهو يغادر الغرفة: «ابنتك لديها موهبة رائعة».

ردّ ويستون متمتماً: «بل موهبة غامضة، هذا رأيي فيها».

لكن آدا لم تكن نائمة، لم تعرف الراحة منذ عادت إلى غرفتها. كانت لا تزال غارقة في مباهج ليلة الميلاد ومتعة عناق ديلوار هوسلر. هي أيضاً أخذت تروح وتجيء في غرفتها تلفّ صدرها بذراعيها وتفكر بما حدث في تلك الأمسية. في الصباح ارتدت ثيابها بسرعة ونزلت إلى المطبخ حيث عرفت أن والدها في مكتبه. مشت بخفة في الممرّ، وانعكست معنوياتها المرتفعة في تألق العافية في خديها. مشت بأناقة بكتفين مشدودين وظهر مستقيم.

توقفت عندما سمعت أصواتاً في الداخل. انتابها هاجس بفرحة

الميلاد كما كانت تنوي. سمعت كل ما قيل عن مغادرة ديلوار هوسلر. وكما استطاعت وهي في السادسة أن تتحكم بنطقها وتمنع نفسها عن الكلام، قررت الآن أن تمنع نفسها من الصراخ ومن التدخل في هذا الحديث الرهيب. وقفت بسكون الحجر تحبس أنفاسها وتلجم خفقان قلبها. ظلت في مكانها حين صعد ديلوار هوسلر إلى غرفته ليجمع أغراضه. مكثت بلا حراك كالصنم حين خرج والدها بدوره ووضع التحويل المصرفي على الطاولة في المدخل. لم تتحرك إلاّ بعدما نزل ديلوار هوسلر وأخذ المغلف وفتح الباب وترك البيت.

حملها بدأ يظهر، وصار حجمها غير متناسب مع طولها ووزنها الاعتيادي. كانت الخادمة التي تتولى غسل ثيابها هي أول من لاحظ أن ثياب آدا صارت ضيقة جداً عليها وتتعرض للتمزّق أحياناً، ثم انتبهت إلى أن أثراً لم يظهر على ثيابها في مواعيدها الشهرية الأخيرة. كانت آدا محطمة القلب لكنها لم تدع أحداً ينتبه لذلك. كانت تمضي كل فترات بعد الظهر في غرفة الموسيقى كالمعتاد. عزفت الألحان الثنائية بمفردها لأنها وجدتها تتناسب مع مزاجها، لكنها ما لبثت أن ملّت من هذا الإيقاع اللاّمتوازن. استعادت تدريجياً طرقها القديمة في ابتكار الألحان، والعزف الارتجالي، وكان أسلوبها في العزف تطور كثيراً بعد أشهر عديدة من التدريب والتعلّم.

قررت الخادمة المسؤولة عن البيت التحدث إلى السيد عن وضع ابنته. لم يكن أحد يجرؤ على التحدث إلى آدا مباشرة؛ صارت الفتاة أكثر انطواءً وترفقاً مما كانت عليه في السابق. صرخ ويستون: «ماذا؟» وتردّد صدى صوته في أرجاء البيت. كانت آدا مستغرقة

في العزف، لكنها سمعته فتوقفت قليلاً وعرفت أنه تلقّى الخبر، ثم واصلت عزفها.

أحسّ ويستون بالحرج ولم يعرف كيف يتحدث إلى ابنته؛ ترك تلك المهمة لبيرسلي المحامي. التقى بيرسلي بآدا وكان قد أعدّ خطاباً قاسي اللهجة أراد به حثّها على كشف هوية والد الطفل كي يصار إلى حلحلة الوضع كالتوصل إلى تسوية والإعداد لعقد الزواج. لكن آدا بالطبع لم تكشف شيئاً. رفضت أن تكتب كلمة واحدة وراحت تدفع الورقة بعيداً كلما كان بيرسلي يضعها أمامها. أخيراً ترك بيرسلي الغرفة بعدما فقد الأمل وعاد إلى ماك غرات ليعلن فشله. الفتاة متمسكة بصمتها وتكتمها، ولا مجال لمواجهتها. قرّر الرجلان أن تبقى آدا في البيت في هذه الفترة. وأن لا يعلما أحداً بوضعها. الجميع سيعرفون في النهاية على أية حال. وقررا أيضاً التخلي عن محاولة معرفة هوية الوالد. كان بيرسلي متفائلاً فتصور أن المذنب قد يأتي بنفسه بعد فترة لتصحيح غلطته.

بعد هذا الحديث لزم ويستون ماك غرات الصمت في هذا الخصوص. كان يراقب كيف يزداد حجم ابنته. بعض العاملين في المنزل رآه مشوّش الذهن وأنه يخلط بين ابنته وزوجته، وأنه عاد سنوات إلى الوراء إلى الفترة التي كانت فيها سيسيليا حبلى بآدا. وآخرون في البلدة تناقلوا همسات مشينة ألمحوا فيها أن والد الطفل ربما يكون ويستون نفسه. لكن كثيرين كانوا يعرفون من هو الوالد، وخاضوا أحاديث مطوّلة عن رحيله المفاجيء. البعض اتهم ماك غرات بسوء التصرّف وتساءل لماذا لم يبحث عن الشاب ولم يضعه أمام مسؤوليته؟ وقال البعض الآخر إن ماك غرات رفض

www.9ofy.com

الاعتراف بأن ابنته كانت على علاقة مع مجرد عازف، أو معلم بيانو، ولا يتمتع بموهبة عالية حتى في هذا المجال.

لكن الأب وابنته لزما الصمت، وتعامل ويستون مع ابنته برقة متزايدة؛ لم يعد يفكر في أنها غير متزوجة، وكان يخطر له من وقت لآخر أنها ربما شاءت أن تحمل طفلاً وإرادتها قوية جداً لتنفيذ ما تشاء. وحين دخلت في المخاض أمضى الليل في غرفة مكتبه وهو يروح ويجيء من شدّة القلق. تعذبت آدا وكان من الواضح أن ولادتها لن تكون سهلة. لكن مجيء الطبيب ساعدها كثيراً وعند ولادة فلورا وصل إلى ويستون في الحال ـ تلك الطفلة أعادت إليه ذكرى سيسيليا. وخاف أن تواجه ابنته مصير أمها، لكن الطبيب، وهو صديق قديم لويستون، أكد له أن آدا تتمتع بصحة جيدة ولا خوف عليها.

لم تكن عند ويستون أية مشكلة في تقبّل وجود حفيدته الوحيدة، لكن أهل بلدة أبردين كانوا أقل تسامحاً، فوجدت آدا نفسها مجبرة على العيش المغلق، وكانت نادراً ما تترك الغرفة ـ بعد القيام ببضع زيارات للكنيسة ـ ومواجهة الهمسات العالية والنظرات المحدّقة، قال الكاهن لويستون إنه لا يستطيع تعميد الطفلة، وهكذا قطعت عائلة ماك غرات صلتها بالكنيسة. تسبب ذلك بألم كبير لويستون الذي كان يتمسك بإيمانه التقليدي، لكن آدا لم تجد مشكلة في ذلك. طفلتها الجميلة صارت كل عالمها. كانت تضعها في سلتها بجوارها وهي تعزف، فتضغط برجل على دعسات البيانو وتهزّ لها بالرجل الأخرى.

وجدت آدا سعادة عارمة في مراقبة نمو طفلتها. لم تشعر بأي نقص في حياتها، وكانت قد استردت عافيتها بسرعة. كانت تقلق

في الليل أحياناً، ولم يكن ذلك بسبب الطفلة؛ في تلك الفترة كانت لا تزال تفكر في ديلوار هوسلر وتتذكر ليلة عيد الميلاد التي أمضتها بين ذراعيه. إنه جبان، ورحيله يؤكد خوفه. لم تعد تهتم لأنه لم يطلب الزواج منها، ولم تعد تفكر في أنه لم يكتب لها أو لم يترك حتى بضعة أسطر يشرح فيها سبب رحيله. إنها فقط مشتاقة لأن تستمع إليه وتجلس بجانبه وهو يعزف.

مرت سنوات كبرت فيها فلورا، وآدا صارت شابة ناضجة. كان ويستون طوال هذه المدة يتحايل لتأجيل زيارة أختيه باتريسيا وإثيل لأنه أحسّ أنه غير قادر على مواجهة أسئلتهما وعلى تحمّل حكمهما الذي توقّع أن يكون قاسياً. وأهل البلدة استمروا في الكلام، كدأبهم عادة، وازدادت تخميناتهم بسبب النقص في المعلومات؛ كان توقهم لابتكار الأخبار كتوق النار لأوكسجين. في أحد الأيام قصدت آدا البلدة مع فلورا التي صارت في السابعة من عمرها وذلك لشراء هدية لويستون بمناسبة عيد ميلاده، تقدمت منها سيدة متزمتة وحيّتها بسخرية ثم بصقت بازدراء على الأرض أمامها.

عندما سمع ويستون بذلك فكّر بنشر إعلان في الصحف التي تصدر في المستعمرات يضمنه رغبته بتزويج ابنته من رجل يرضى أن يكون والداً لطفلتها أيضاً. هذا الإعلان لفت انتباه أليسدير ستيوارت على بعد آلاف الأميال في صحيفة «مرآة بريطانيا الاستوائية» النيوزيلندية، فأرسل في طلب آدا ماك غرات التي رضيت بمصيرها وبدأت رحلتها الطويلة للقائه.

خرجت آدا من بيت أليسدير ستيوارت في الصباح الباكر وكأنها تسير في نومها. لم تستطع أن تستوعب كل ما حصل لها

منذ وصولها. كان الماووريون يعملون على رفع أمتعتها وحقائبها ونقلها إلى الخارج. وقفت العمة موراغ ونيسي عند الباب تراقبان ما يحدث وكانتا مصدومتين وحزينتين، وأخذت موراغ تتمتم: «يا إلهي، يا إلهي» بصوت منخفض. كانتا في أعماقهما سعيدتين لرؤية تلك المرأة ترحل، لأن أليسدير لم يعد كما كان، لقد غيرته بطريقة ما، وتسببت له بالأذى، كانتا واثقتين من ذلك.

لم تكن آدا تهتم بما تفكر فيه العمة موراغ ونيسي، لقد تحملت ما يكفي من الأذى. خرجت من الباب ببطء وكانت عيناها نصف مغمضتين كأنها لم ترَ ضوء النهار منذ أسابيع. رأت فلورا تقف مع جورج، كلاهما ارتدى ثياباً مرتبة، فلورا غطّت شعرها بقلنسوتها الزرقاء، وجورج ارتدى معطفه الأزرق. وضع جورج ذراعه على كتفي فلورا، والطفلة تعلقت بطرف معطفه وأخذت ترتعش عندما رأت ذراع أمها المعلّقة بضمادة التفت حول رقبتها. أليسدير ستيوارت لم يكن هناك. ارتدت آدا فستاناً أسود كأنها في فترة حداد، وتركت شعرها ينسدل على ظهرها، لم تستطع تجديله، ولم تهتم لذلك، بدأ الماووريون يتحدثون فيما بينهم ويختلسون النظر إلى آدا، لكن الباكيها لزموا الصمت.

انسابت أشعة الشمس من بين أغصان شجر الكوري العالية وغمرت الدرب الطويل إلى الشاطىء. بدأت المجموعة تتحرك في ذلك الإتجاه، وتقدم جورج من آدا ليحيطها بذراعه ويشدها إليه. نظر بالحاح إلى عينيها السوداوين المتعبتين. وبدون أن يقول شيئاً رفع قبعته وقربها أكثر منه وقبلها بشوق عارم وكثير من الرقة، وذلك على مرأى من الجميع كأنه يضع نهاية لكل ما حدث. تلقت آدا قبلته دون أن تشعر بشيء. فظاعة الأيام الماضية شلّت مشاعرها. كانت كالمذهولة لا تفكر إلا بما أصابها.

وصلت المجموعة إلى الشاطىء، الشاطىء نفسه الذي رست عليه السفينة التي حملت آدا وفلورا إلى هذه البلاد منذ أقل من ثلاثة أشهر. جلست آدا على صندوق، فيما أخذت فلورا ترتب لها شعرها وكانت تأمل أنه عندما يصبح مرتباً قد تتحسن حالة أمها أيضاً. كان جورج قد اتفق مع الماووريين على نقله مع آدا وفلورا والأمتعة بعيداً عن المستوطنة. بدأ الماووريون بتوضيب الأمتعة في زورق كبير مزخرف كان يرسو هناك، وتركوا البيانو حتى يفرغوا من تحميل كل شيء.

وضعت فلورا قبّعة آدا بعناية على رأسها؛ رُفعت فلورا وآدا إلى الزورق الذي رسا جزء منه على الرمال. اهتزّ الزورق من ثقل البيانو، وجورج ساعد الرجال على ربط الآلة بحبال غليظة تجمعت تحت أرجل فلورا وآدا.

قال كاميرا المجذّف:-Tarmaharawa-aianei tahuri ai إنه ثقيل جداً ـ سينقلب الزورق».

ردّ باينز قائلاً: Keite pai! kaare e titahataha ma البيانو وضعه جيد الآن ـ إنه متوازن».

«باينى، المجنون فقط هو الذي يرضى بتحميل هذا البيانو»، ردّ جورج: «إنها بحاجة إليه. يجب أن نأخذه معنا».

وأخيراً بدأ الرجال يدفعون الزورق إلى المياه وهم ينشدون معاً ستة رجال من كل جانب، والزورق المثقل بحمله خلّف شقاً عميقاً في الرمال أثناء تحرّكه. وقفت هيرا صديقة جورج بمفردها على الشاطىء وغنّت لباينى أغنية وداع حزينة ودموعها تسيل على خدّيها:

He rimu teretere koe ete. Peini eecii

www.9ofy.com

Tere ki tawhiti ki Pamamao eecii

He waka teretere He waka teretre.

Ko koe ka tere ki twa wha karere eecii.

أنت كأعشاب البحر تجرفك الأمواج يا باينز،

ابتعد، ابتعد خلف الأفق.

مركب يطفو هنا، ومركب يطفو هناك

لكن أنت ستظل ترحل وفي النهاية

سترحل إلى ما وراء الستار.

تهادى المركب على صفحة المياه، والماووريون تابعوا غناءهم وهم يجذّفون بنشاط عبر الأمواج المتلاطمة. تحرك الزورق الثقيل ببطء وابتعد في عرض البحر فبدا كنقطة صغيرة وقد أحاطت به المياه بمداها الشاسع. أمسك جورج بيد آدا، أحسّ أنها ليست على ما يرام وكان واثقاً أنها ستسترجع عافيتها تدريجياً بعد فترة من الراحة والبيانو بجانبها.

بعد قليل امتلأت نظرتها بالعزم والتصميم. نزعت يدها من يد جورج وأشارت إلى فلورا، التي راقبتها ثم التفتت إلى باينز مدهوشة.

سألها جورج: «ماذا تقول؟»

«تقول: ارم البيانو في البحر».

«لكن البيانو بأمان، وهم يتدبرون أمرهم»، قال جورج ذلك ظناً منه أنها تريد أن تطمئن لوضع البيانو. أشارت آدا ثانية بمزيد من الإصرار.

قالت فلورا بحزم: «إنها لا تريده. تقول إنه معطوب».

«المفتاح معي، وسوف أصلحه». ومدّ يده إلى جيب معطفه ليتناول المفتاح العاجي. هزّت آدا رأسها وهي تومىء بحدة مباشرة إلى جورج.

سمع المجذّف كاميرا ما دار من حديث. فالتفت يقول: «معها حق. ارمه في البحر، إنه يشبه التابوت».

قال جورج: «أرجوك يا آدا»، لكن آدا حاولت الوقوف فشدّها إلى مكانها ثانية وقال: سوف تندمين إنه لكِ، وأنا أريدك أن تحتفظي به».

قالت فلورا تنقل إصرار والدتها التي وقفت وأخذت تجذب الحبال: «إنها لا تريده. ارمه في البحر!»

قال جورج بصوت عالٍ: «اجلسي! حسناً، سوف نرميه».

البيانو كُسر، وهي أيضاً كسرت، ولن يعود كما كان أبداً. إنها ترغب في التخلص منه.

بدأ الرجال يفكون الحبال ويحرّكون البيانو إلى حافة الزورق. تطلعت آدا إلى عمق المياه الفيروزية المتألقة، ومرّت بيدها على صفحتها وهي تفكر ما يكمن تحت السطح. راقبت الرجال وهم يرفعون بسرعة الألواح التي وضع عليها البيانو، وفي غضون لحظات كان البيانو يسقط في المياه، بقوة هزّت المركب بعنف. واندفعت وراءه الحبال، ورأتها آدا وهي تنساب في التفافها بجانب قدمها؛ وفجأة وبدافع من الفضول القدريّ الذي رافقها دائماً باندفاعه وفوضاه، وضعت قدمها بين العقد. أليس عليها مواجهة مصير البيانو؟ ألم تكن تشكل مع البيانو كلاً واحداً؟

اشتد الحبل حول كاحلها وحملها معه ومع البيانو إلى عمق المياه الباردة.

تجمعت الفقاقيع حول فمها وهي تسقط أكثر فأكثر وعيناها مفتوحتان وثيابها تلتف حولها، الماوورِيون الذين غطسوا في المياه لإنقاذها لم يستطيعوا الوصول إليها وهي تغوص في الأعماق. مرت لحظات طويلة جداً. نظرت آدا إلى المياه الداكنة من حولها. لا صوت تحت المياه، الصمت يطال كل شيء، في النهاية.

رفعت عينيها لترى يدها اليمنى التي لُفت بالضمادات فيما أخذ الضوء يتلاشى وقعر الزورق يكاد يختفي وسط الظلمة المترامية. شعرت بسكون كلي.

آدا اتخذت قرارها.

بدأت تناضل لتخلص قدمها من الحبل، لكنها وجدت صعوبة في ذلك بسبب ثقل البيانو الذي جذب الحبل إلى الأسفل معه. مدت يدها وهزّت رجلها بقوة ثانية. ثم استخدمت قدمها الثانية واستطاعت أن تنزع حذاءها. واصل البيانو مع فردة الحذاء سقوطهما الصامت والمخيف، وأحست آدا أنها حرة وخفيفة وجسمها يدفع بنفسه إلى السطح. أحاط بها الغطاسون من الماوورِيين وساعدوها للوصول بأمان إلى المركب، إلى الضوء، إلى جورج باينز.

يا له من موت!

يا له من حظ!

يا للمفاجأة!

إرادتي اختارت الحياة

مرة جديدة روّعتني، وروّعت الكثير معي.

الخاتمة

كانت ستائر الموسلين تتماوج مع النسيم الهادىء، فيما كانت آدا تروح وتجيء على الشرفة وهي تغطي رأسها بقطعة قماش سوداء. كانت تتمرن على نطق الأصوات الساكنة التي لم تتعوّدها حنجرتها أو شفتاها، وقد تملكها الخجل لأنها لم تتقنها بعد، في تلك الفترة كانت آدا تعطي دروساً في البيانو في بلدة نلسون. استطاع جورج أن يحصل لها على رأس أصبع معدني وهي صارت محط أنظار أهل البلدة الذين أدهشتهم بموهبتها الفذّة، وهذا جعلها تشعر بالراحة.

اشترى جورج منزلاً بما تبقى لديه من مدخّرات من صيد الحيتان، مال أتاه من باطن المحيط الحي كما أتت آدا في ذلك اليوم. أسس تجارة في المرفأ واستفاد في علاقاته القديمة مع الماوورِيين وصيادي الحيتان. فلورا بدأت تذهب إلى المدرسة، وكانت في اليوم الأول تنتعل حذاء جديداً من أنكلترا. عاش الثلاثة معاً في البداية كأنهم نجوا من كارثة تركت فيهم مشاعر القلق والخوف، لكنهم مع مرور الوقت بدأوا يحبون حياتهم الجديدة ويشكرون العناية التي أنقذتهم.

www.9ofy.com

كل ليلة أتخيل بالبيانو في مدفنه في المحيط، وأرى نفسي أحياناً أطفو فوقه. في تلك الأعماق كل شيء ساكن وصامت كأنه يغني لي تهويدة حتى أنام. لكنها أغنية غريبة، مع ذلك فهي أغنيتي.